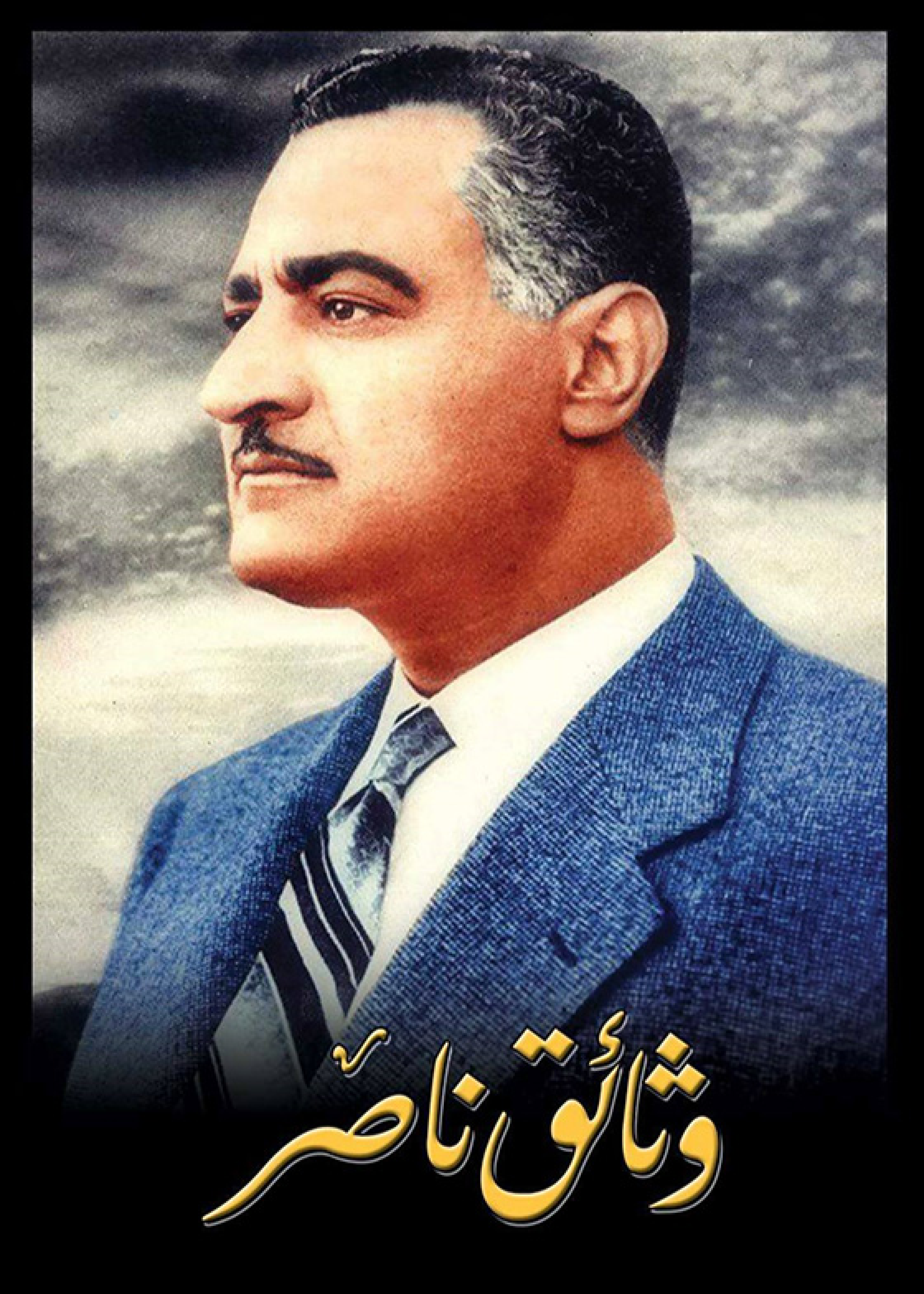

وثائق ناصر



بقلم : جمال عبد الناصر



المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
اليوميات الشخصية لجمال عبد الناصر في حرب فلسطين	٦٩
فلسفة الثورة	١٩٥
الميثاق	٢٧٣
بيان ٣٠ مارس	٤٣٣

مقـــــــــدمة

جمال عبد الناصر في مئوية ميلاده الأولى

بقلم : عمرو صابح

٢٢ يوليو ١٩٥٢..

ضابط شاب في الرابعة والثلاثين من عمره، يحمل رتبة مقدم أركان حرب بالقوات المسلحة المصرية، ويعمل كمدرس لمادتي الاستراتيجية والتاريخ العسكري بالكلية الحربية، تم تكريمه كأحد أبطال حرب فلسطين عام ١٩٤٨، لبسالته في القتال ودوره البطولي أثناء حصار الجيش المصري في الفالوجة، متزوج ولديه أربع أطفال – لم يكن قد أنجب أبنه الأصغر عبد الحكيم بعد- يمتلك مسكناً محترماً وسيارة حديثة ولا يعانى من أي مشاكل حياتية أو مادية على الإطلاق.

بكل المقاييس كان الضابط "جمال عبد الناصر"، يعيش حياة مستقرة، ولو لم يفجر الثورة بعد هذا التاريخ بيوم واحد، وانتظم في المسار الطبيعي لعمله لأصبح بعد عدة سنوات لواء بالجيش المصري، يحمل رتبة باشا، ولعاش حياة مرفهة يتمتع فيها بكل مزايا منصبه.

إذا فما الدافع الذى جعله يؤسس تنظيم سري لقلب نظام الحكم في وطنه، مادام لا يُعانى من شيء؟

في مذكرات زوجته السيدة "تحية كاظم"، قد نجد بعض الإجابات، على امتداد صفحات المذكرات المكتوبة بعفوية وصدق، نلاحظ أن جمال عبد الناصر قبل الثورة، لديه إحساس طاغي بآلام المجتمع، وبالظلم الطبقي الساري فيه.

تحكى السيدة تحية في مذكراتها، واقعة تمت قبل ميلاد ابنهما خالد، عندما قرر الطبيب الذى يتابعها خلال فترة حملها زيادة ثمن أتعابه بصورة لا يستطيع المواطن العادي وقتها تحملها، وعندما يعلم جمال عبد الناصر بذلك يغضب ويقول لتحية:

نحن نستطيع تحمل الزيادة، ولكن ماذا يفعل الفقير هل يموت لعجزه عن العلاج ودفع ثمن الدواء؟!

وفى مكان أخر من المذكرات، تقول السيدة تحية أنها قبل الثورة، وبعد علمها ببعض مما يخطط له زوجها تسأله:

لماذا تفعل كل ذلك؟ فنحن لا نعانى من شيء، وأخشى أن يفشل سعيك فأتشرد أنا وأولادك ويضيع مستقبلك.

فيرد عليها جمال عبد الناصر: بأنه لم ولن يكون في يوم من الأيام أنانياً منشغلاً فقط بمستقبله ومستقبل أبناءه، بينما يعانى أبناء وطنه الفقر والحرمان.

في مذكرات صلاح الشاهد مدير المراسم برئاسة الجمهورية "ذكرياتي بين عهدين"، نقرأ الواقعة التالية:

وصلت لصلاح الشاهد ذات يوم حقيبة مليئة بالحلي والمجوهرات، هدية للرئيس جمال عبد الناصر من ثري عربي، وقد رفض الرئيس قبولها وطالب صلاح الشاهد بإرجاعها لصاحبها، وإبلاغه رفض الرئيس تلقى هدايا، وعندما يعيدها الشاهد للثري العربي يرفض ويلح في أن يقبلها الرئيس الذى يغضب، ويقول لصلاح الشاهد:

"لقد كنت أحيا حياة كريمة قبل الثورة، ولم يكن ينقصني شيء، ولم أقم بالثورة لأمتلك المجوهرات والأموال، إن بإمكاني الآن مضاعفة راتبي عشرات المرات، ولكنى لن أفعل ذلك لأن لدى مبادئ وحلم أريد تحقيقه لحساب الجميع، وليس لحسابي الشخصي أو حساب أسرتي".

هذه الوقائع وغيرها كثير قد تمثل مفاتيح لفك ألغاز شخصية جمال عبد الناصر تلك الشخصية المتفردة بالغة العمق والتعقيد في تاريخنا العربي كله.

امتلاك حلم للجميع، الزهد في متع الحياة الزائلة، التجرد والعمل بإخلاص لخدمة ما يؤمن به من أهداف، الطموح والقدرة على التحدي، تلك الطاقة النفسية الهائلة على اجتياز الآلام وتخطى الصعوبات، الرغبة الدائمة في تحقيق المزيد من النجاحات، اليقين بقدرات الشعب المصري وبإمكانات مصر كقوى كبرى.

شكلت تلك الصفات ملامح شخصية جمال عبد الناصر وصبغت فترة حكمه التي حفلت بالتحديات وبالمعارك المتواصلة دفاعاً عن استقلال مصر وحرية إرادتها لذا تظل فترة حكم جمال عبد الناصر حقبة استثنائية في التاريخ العربي الحديث، فيها كنا على موعد مع التاريخ وبعدها وبالانقضاض على مبادئها خرجنا من التاريخ.

قرن من الزمان مرَّ على يوم ميلاد القائد المُعلم "جمال عبد الناصر" الذى ولد في ١٥ يناير ١٩١٨ ووافته المنية في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠.

في فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢، يفجر جمال عبد الناصر الثورة المصرية، فالضابط الشاب الذي حارب في فلسطين عام ١٩٤٨، وحوصر في الفالوجة، عاد من الحرب ساخطا على الأوضاع السياسية في وطنه وفى الوطن العربي كله، عاد حالماً بقلب تلك النظم الحاكمة المفلسة والعميلة، والتي رأى أنها صنعت الهزيمة قبل أن تنتصر إسرائيل فعلا على أرض المعركة، وتغتصب ٧٨٪ من مساحة فلسطين.

لمس جمال عبد الناصر مأساة فلسطين على الأرض عن قرب، وأدرك الهدف الحقيقي من زرع إسرائيل في قلب العالم العربي، وأيقن أن أمن مصر القومي موجود خارج حدودها، لذا عندما كتب كتابه الشهير (فلسفة الثورة)، حدد الدوائر التي سوف تتحرك من خلالها السياسة الخارجية المصرية من خلال الدائرة العربية ثم الدائرة الأفريقية ثم الدائرة الإسلامية.

ومن خلال العمل عبر تلك الدوائر، وأولها الدائرة العربية حدد جمال عبد الناصر هوية وانتماء مصر العربي، وعقب استقرار الأمور للرئيس جمال عبد الناصر على الصعيد الداخلي في مصر قام بتكليف أجهزته بدراسة أوضاع

الوطن العربي، ووضع الخطط لتحريره من الاستعمار، إيماناً منه أن حرية العرب من حرية مصر، وأن استقلال مصر سيظل منقوصاً طالما لم تتحرر كل الدول العربية.

عندما قرأ دافيد بن غوريون مؤسس إسرائيل كتاب (فلسفة الثورة) لجمال عبد الناصر، قال أن هذا الكتاب أسوأ من كتاب (كفاحي) لهتلر، لأن قيام النظام الجديد في مصر بدور قيادي نشط في الوطن العربي سيدفع بالأمور تجاه الحرب مع إسرائيل.

يبرز الوجه العربي الصرف لمصر الثورة التي تدعم وتساعد كل حركات التحرر العربية ماديا وإعلاميا، وتخوض حرب ضروس ضد قوى الاستعمار القديم في الوطن العربي، فتقود إذاعة "صوت العرب "- التي أفتتحها عبد الناصر في ٤ يوليو ١٩٥٣ – شعلة تحرير الوطن العربي كله، فتنفجر ثورة الجزائر عام ١٩٥٤ في وجه فرنسا، وتخوض مصر حرب ضروس ضد حلف بغداد في نفس العام، وعندما ترفض الولايات المتحدة الأمريكية طلب الرئيس عبد الناصر منها تسليح الجيش المصري، يكسر الرئيس عبد الناصر احتكار الغرب للسلاح، ويعقد أول صفقة سلاح مع الاتحاد

السوفيتي عام ١٩٥٥، مما يجعله في أعين الجماهير يبدو كبطلها وأملها في التحرر والوحدة واللحاق بالعصر، وعندما ترفض الولايات المتحدة مساعدة مصر في تمويل السد العالي، ينتهز الرئيس عبد الناصر الفرصة ليحقق حلمه بتأميم شركة قناة السويس، ليضرب بسيف البطل بين عيني الطغاة، ويكرس مكانه إلى الأبد في التاريخ كثائر أممي ضد الاستعمار، وبصمود الشعب المصري بقيادة الرئيس عبد الناصر أمام العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، والدعم العربي لمصر أثناء العدوان، تخرج مصر منتصرة من تلك الحرب، وتتعزز مكانة الرئيس عبد الناصر في مصر وفي الوطن العربي، ويوقن العرب أن عهدا جديدا قد بدأ، وأن بطلا تاريخياً قد ظهر على مسرح التاريخ.

كانت سورية أول بلد عربي يستقل بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت هي مهد الحركة العربية ومنبت القومية العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر في مواجهة عنصرية الحكم التركي الذي قادته حكومة الاتحاد والترقي في العقد الأول من القرن العشرين، وكانت سورية هي مركز الثورة العربية الكبرى خلال الحرب العالمية الأولى تلك الثورة المظلومة

تاريخيا التي ركب الهاشميون موجتها، وأجهضوا أهدافها من أجل ضمان حصولهم على عروش لهم، ورغم فشل الثورة وتمزيق سورية الكبرى إلى أربع دول (سورية، لبنان، الأردن، فلسطين)، إلا أن فكرة القومية العربية وتوحيد سورية ظلت حلما وغاية يسعى لها القوميون العرب.

في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، بدأ حزب البعث في سورية يشجع الوحدة مع مصر، ويرى في عبد الناصر أمله المنتظر في تحقيق أهداف الحزب القومية في سورية وفى الوطن العربي، فهو أول حاكم مصري في التاريخ يتبنى القومية العربية، ويدعو للوحدة العربية مدعوما بكل إمكانيات مصر كقطر قاعدة يمثل أهم وأقوى الأقطار العربية الكفيلة بنجاح الوحدة العربية، كما أنه يمتلك رصيداً من الإنجازات عند الجماهير العربية على امتداد الوطن العربي كـله.

تضافرت كل تلك العوامل لتفرض السؤال الملح، ما الذي يعوق الوحدة بين مصر وسورية؟، خاصة أن سورية وقعت منذ استقلالها في دائرة الانقلابات المتتالية المدبرة خارجيا من أجل السيطرة عليها، وبعد الخلاص من حكم

أديب الشيشكلي، اتخذت الحكومة الوطنية التي تكونت في سورية موقف مؤيد على طول الخط لسياسات عبد الناصر، ولعب الضباط السوريون من ذوى الاتجاه القومي العروبي بقيادة عبد الحميد السراج دورا بارزا في مساعدة مصر أثناء العدوان الثلاثي بنسفهم لخط أنابيب البترول، الذي يمر عبر سورية حاملا البترول إلى أوروبا، وأصبح واضحا لكل القوى الطامعة في المنطقة أن هناك محور مصري سوري مناهض للغرب وعملاءه، يناهض حلف بغداد، ويخرج منتصرا من حرب السويس، ويعمل على إفشال مبدأ إيزنهاور لملء الفراغ في المنطقة بعد هزيمة الاستعمار القديم، لذا يبدأ التخطيط الأمريكي للسيطرة على سورية الحلقة الأضعف في المحور المصري السوري، وتدبر المخابرات الأمريكية انقلابا في الأردن يطيح بحكومتها الوطنية كخطوة أولى للإطاحة بالحكومة الوطنية في سورية، وتحشد أمريكا كل حلفاءها في المنطقة عبر خطة محكمة يقودها ضابط المخابرات الأمريكي هندرسون لترتيب الانقلاب في سورية، وتتجمع القوات المسلحة التركية على الحدود السورية والقوات المسلحة العراقية على الحدود السورية انتظارا لإشارة البدء بغزو سورية، وعندما يطلب السوريون مساعدة مصر، يقرر

الرئيس عبد الناصر إرسال أسطول مصري يضم بضع ناقلات للجنود وثلاث مدمرات، يصل إلى ميناء اللاذقية السوري في ١٣ أكتوبر ١٩٥٧، لحماية استقلال سورية.

تعالت الأصوات في سورية المطالبة بالوحدة مع مصر، ورأى قادة البعث الرئيس عبد الناصر كأنه (بسمارك العرب) الذي يملك القوة والشعبية الكفيلة للبعث بإحكام سيطرته على سورية، وساعد في ذلك عجز أجنحة الجيش السوري المتصارعة على الاتفاق على زعامة تتولى أمور سورية، مما جعل قيادات حزب البعث تشجع الضباط السوريين في مسعاهم للوحدة الفورية مع مصر.

وفى ليلة ١١-١٢ يناير ١٩٥٨، توجه إلى القاهرة ١٤ ضابطا يمثلون كل مراكز القوى في الجيش السوري، يحملون معهم مذكرة وقع عليها جميع أعضاء المجلس العسكري السوري تطالب بالوحدة الفورية.

رفض الرئيس عبد الناصر الاستجابة لطلب الضباط السوريين، إلا إذا طلبت الحكومة السورية الشرعية والرئيس السوري شكري القوتلي منه الوحدة.

في يوم ١٦ يناير ١٩٥٨، يعود الضباط السوريين وبصحبتهم قطب حزب البعث ووزير الخارجية السوري صلاح البيطار ليعلن أمام الرئيس عبد الناصر:

(إن الحكومة السورية تريد إتمام الوحدة كمطلب شعبي وقومي دائم، وكطريق لا بديل غيره إلى استقرار سورية).

وافق الرئيس عبد الناصر على قبول الأمر مبدئيا ولكنه وضع ثلاثة شروط لقبوله الوحدة الفورية:

١- أن يتم إجراء استفتاء شعبي على الوحدة في مصر وسورية، حتى يقول الشعبان المصري والسوري رأيهما في الوحدة ويعبرا عن إرادتهما الحرة.

٢- أن يتوقف النشاط الحزبي السوري، وأن تقوم كل الأحزاب السورية دون استثناء بحل نفسها.

٣- أن يتوقف تدخل الجيش السوري في السياسة توقفا تاما، وأن ينصرف ضباطه إلى مهامهم العسكرية ليصبح الجيش أداة دفاع وقتال، وليس أداة سلطة وسيطرة، هذا يعنى خروج كل قادة الكتل السياسية في الجيش وفى مقدمتهم أعضاء المجلس العسكري من الخدمة العسكرية، وتفرغهم للعمل السياسي.

ورفض الرئيس عبد الناصر أي تفاوض حول تلك الشروط التي تعنى أن الوحدة مطلب شعبي جماهيري وليس نخبوي سلطوي، كما أنها تفرغ الساحة السياسية السورية من الأحزاب التي سببت القلاقل داخلياً وخارجيا في سورية، كما أنها تعزل الضباط السوريين المسيسين عن مصادر قوتهم في الجيش، وتجعل من الرئيس عبد الناصر صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في دولة الوحدة.

وافق قادة حزب البعث على شروط الرئيس عبد الناصر على أمل أن يسيطروا على (الاتحاد القومي) التنظيم السياسي الوحيد لدولة الوحدة، ويكونوا هم القوة المحركة له في ظل خلو الساحة من الأحزاب الأخرى، خاصة أنهم مهندسو الوحدة، وبأمل أن تكون لهم الأفكار وللرئيس عبد الناصر الزعامة، وقد خاب مسعاهم في ذلك لأن الرئيس عبد الناصر كان أكثر منهم ذكاء، وكانت رؤيته لدولة الوحدة تمنع وجود أي مركز قوى داخل التنظيم السياسي أو داخل السلطة السياسية يمكن أن ينازعه قراراته أو يشكل قيدا على حركته.

كان الشعب السوري متقدا بالحماس للوحدة، وشكلت إرادته وحبه للرئيس عبد الناصر قوة ضاغطة على السياسيين والعسكريين في سورية.

وفى ١ فبراير ١٩٥٨ أعلن عن الاتفاق على أسس الوحدة بين مصر وسورية، وفى يوم ٥ فبراير ١٩٥٨ عقد مجلس الأمة المصري اجتماعا في القاهرة، كما عقد مجلس النواب السوري اجتماعا في دمشق، قرر كل مجلس في اجتماعه الموافقة على طرح أسس الوحدة في استفتاء عام يجرى يوم ٢١ فبراير ١٩٥٨ مع ترشيح جمال عبد الناصر رئيسا لدولة الوحدة التي حملت اسم (الجمهورية العربية المتحدة)، وتم الاستفتاء في موعده المحدد، وجاءت نتيجته كاسحة لصالح الوحدة ورئاسة جمال عبد الناصر للجمهورية العربية المتحدة، ويوم ٢٤ فبراير ١٩٥٨، يصل الرئيس عبد الناصر إلى دمشق لأول مرة في حياته، ويستقبله الشعب السوري استقبالا أسطوريا في مشهد غير مسبوق في التاريخ، حيث زحف ملايين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين لرؤية الرجل الذي تعلقت به قلوبهم، ورأوا فيه السبيل إلى تحقيق مطامحهم وأمالهم.

كان ما حدث مثارًا لقلق كل النظم العربية والإقليمية التي نظرت بعين الريبة إلى ما اعتبرته توسعا مصريا بقيادة جمال عبد الناصر يسعى إلى خلق إمبراطورية مصرية، فقد أبدى الملك السعودي سعود بن عبد العزيز رفضا قاطعا للوحدة بين مصر وسورية لأنه رأى فيها تعاظما لنفوذ مصر الإقليمي والدولي، لذا حاول إفشال الوحدة عبر تدبير مؤامرتين لاغتيال الرئيس عبد الناصر، الأولى عن طريق رشوة العقيد عبد الحميد السراج مدير المكتب الثاني في سورية بمبلغ ١٢ مليون جنيه إسترليني، وقد جارى السراج المتآمرين وحصل منهم على شيكات بأجزاء من المبلغ المرصود لاغتيال عبد الناصر، بينما أبلغ الرئيس عبد الناصر بكل تفاصيل المؤامرة، التي أعلنها عبد الناصر للعالم كله من شرفة قصر الضيافة في دمشق أثناء زيارته الأولى لسورية.

وكانت المؤامرة الثانية للملك سعود، تهدف إلى تفجير طائرة الرئيس عبد الناصر يوم قدومه إلى سورية للمرة الأولى كرئيس لدولة الوحدة، وقد فشلت كلتا المؤامرتين، وتسبب الكشف عنهما في فضيحة سياسية للملك سعود بن

عبد العزيز، وسوف يظهر دور الملك سعود فيما بعد في تمويل الانقلاب على دولة الوحدة والتآمر مع الضباط الانفصاليين.

كما أثار قيام دولة الوحدة قلق رئيس وزراء تركيا (عدنان مندريس)، فيكتب إلى وزير الخارجية الأميركي جون فوستر دالاس يقول:

(إن الموقف الحالي وتطوراته تدعونا إلى إعادة تقييم الأمور، لقد ذهبت إلى فراشي بالأمس وعلى حدود بلادي الجنوبية ستة ملايين، واستيقظت صباح اليوم لأجدهم قد أصبحوا ٣٦ مليونا).

كما أثار قيام دولة الوحدة حلف شمال الأطلنطي، فتم عقد دورة طارئة لبحث التغيرات الاستراتيجية الناجمة عن قيام دولة الوحدة، وراح ممثل تركيا في الحلف ينبه الأعضاء إلى خطورة مشروع عبد الناصر حليف السوفييت على الغرب، وقدم ممثل بريطانيا مذكرة عن "التوسع الإمبريالي المصري"، شبه فيها أطماع جمال عبد الناصر بأطماع محمد على، وأكد فيها أن جمال عبد الناصر يطمح لخلق اتحاد من الجمهوريات العربية تحت حكمه، يضم أيضا بلدان الاتحاد

الأفريقي لكى يسيطر على أهم منطقة استراتيجية في العالم ويخنق الغرب.

في أوراق الرئيس الأمريكي إيزنهاور نقرأ له هذا التعليق حول قيام دولة الوحدة: "أنني حتى هذه اللحظة لم أفهم ماذا حدث في الشرق الأوسط؟، إن كل ما قرأته لم يجعلني مهيأ للتطورات التي جرت، فهل كنا على علم بها أم أننا فوجئنا مثل الآخرين؟ لقد كانت سياستنا كما أعرف هي انتزاع سورية بعيدا عن مصر وعزل ناصر بأخذ سعود من جانبه، فإذا نحن نفاجأ بالعكس تماما، ناصر يستولى على سورية بالكامل ثم يقوم هو بعزل سعود أنني أريد تقريراً عن الكيفية التي تم بها ذلك".

وترسل وزارة الخارجية الأمريكية توجيه سرى إلى جميع سفراء الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة نصه:

سرى للغاية

توجيه رقم: ٢٢٧٩

تسجيل: ١٨ أبريل ١٩٥٨

خاص ولعلم رؤساء البعثات الأمريكية في الشرق الأوسط وحدهم..

سياسة الولايات المتحدة تجاه الجمهورية العربية المتحدة

- إن وزارة الخارجية الأمريكية تؤكد أن الأهداف الأساسية لسياسة الولايات المتحدة في علاقاتها مع الجمهورية العربية المتحدة، باقية من غير تغيير، إنها تؤكد من جديد أن ازدياد نفوذ مصر يتعارض مع القرار المشترك للكونجرس عن الشرق الأوسط، ويؤدى إلى تقوية القومية العربية ويشجع الاتجاهات المضادة للغرب، وبالتحديد الاتجاهات المضادة لأميركا في الشرق الأوسط وفى أفريقيا، ثم هو يؤثر على هيبة حلف بغداد، الذي يعتبر حلقة هامة في شبكة الدفاع عن العالم الحر، ويمس بالضرر موقف إسرائيل ومصالحها، الأمر الذي لا تستطيع الولايات المتحدة أن تتجاهله.

- إن وجود السيطرة على مواصلات نقل بترول الشرق الأوسط إلى أوروبا سواء عن طريق قناة السويس، أو عن طريق أنابيب البترول المتجهة إلى البحر الأبيض تحت السيطرة الفعلية للقاهرة، يعرض المصالح الأمريكية في المنطقة لخطر أكيد، فإن ذلك يجعل الجمهورية العربية المتحدة الآن في وضع يمكنها من ممارسة ضغط على الولايات المتحدة وغيرها من

القوى الغربية، وهذا الاحتمال يمكن أن يتحول إلى سلاح مخيف في يد الرئيس ناصر.

- يتحتم علينا أن تظل جهودنا متجهة إلى مهاجمة فكرة الوحدة بين مصر وسورية، ولا يجب أن تتوقف جهودنا لإيجاد فاصل بين البلدين، وينبغي أن يظل ذلك من أبرز أسس سياستنا في المنطقة.

وهناك قوى داخلية تشارك الغرب معتقداته، كما أن هناك قوى خارجية يمكنها في أي لحظة ملائمة أن تتدخل، وينبغي تدعيم هذه القوى من غير كلل، وينبغي أن نذكر دائماً أن أي تفسخ في الجمهورية العربية المتحدة لن يقرر فقط مصير مصر تحت حكم ناصر، وإنما سيجعل من السهل محاربة القومية العربية في أي شكل تتخذه في الشرق الأوسط.

- وسوف تتكلل جهودنا بالنجاح أكثر إذا أمكن عزل الجمهورية العربية المتحدة عن باقي العالم العربي، وبالنسبة لهذه المهمة فإن ممثلي الولايات المتحدة سواء في الأقسام الدبلوماسية أو في أقسام الاستعلامات والدعاية في العالم العربي عليهم أن ينشروا الاعتقاد العام بأن الجمهورية العربية المتحدة تشكل خطرا على كل الحكومات العربية، وفى البلاد

الملكية علينا أن نشرح بقوة أن تدعيم الجمهورية العربية المتحدة قد يؤدى إلى سقوط حكم جميع البيوت الحاكمة، كما أنه في الجمهوريات يمكن بث الخوف من ابتلاع القاهرة لهذه الجمهوريات، كما ينبغي انتهاز كل الفرص لتقوية الاتحاد العراقي الأردني الذي سوف يستمر في الحصول على تأييد الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوري المصري.

وعلى الجانب الأخر فوجئ السوفييت بالطريقة التي تمت بها الوحدة، خاصة وقد تضمنت تصفية لدور الحزب الشيوعي السوري، وسافر زعيم الحزب خالد بكداش إلى صوفيا يوم ٤ فبراير ١٩٥٨ قبل جلسة مجلس النواب السوري- الذي كان عضوا به- للتصويت على قيام دولة الوحدة وانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للدولة، وهاجم بكداش بضراوة دولة الوحدة والرئيس عبد الناصر بتشجيع من السوفييت المعادين لفكرة القومية العربية.

في ١٤ يوليو ١٩٥٨، اندلعت الثورة في العراق، لتطيح بالنظام الملكي العراقي، وتنسف حلف بغداد، وتهز العواصم الغربية، لدرجة أن الرئيس الأمريكي إيزنهاور كتب في مذكراته انه فور علمه بقيام الثورة، ارتدى ملابسه العسكرية

للمرة الأولى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية التي كان خلالها القائد الأعلى لقوات الحلفاء في أوروبا، وفكر في إعطاء الأمر بتنفيذ خطط اغتيال جمال عبد الناصر، الذى أعتبره المسئول الأول عن تلك الثورة، وأصدر قراره بنزول قوات المارينز على شواطئ لبنان لحماية حكم كميل شمعون من الانهيار أمام المد الناصري، كان كميل شمعون فور علمه بالثورة العراقية، قد أرسل برقية مذعورة لإيزنهاور يطالبه فيها بالتدخل فورا وفقاً لمبدأ إيزنهاور، وإلا سيقوم عبد الناصر وثواره بنسف قصره ودفنه تحت ركامه.

على الجانب البريطاني، أسرع الإنجليز بإنزال قواتهم في الأردن لحماية عرش الملك حسين من الخطر الناصري، خاصة أن الثورة العراقية أطاحت بحكم أبناء عمومته في العراق.

رغم اعتراف الاتحاد السوفيتي بالدولة الجديدة (الجمهورية العربية المتحدة)، إلا أن الصراع تفجر بين السوفييت وعبد الناصر إعلامياً بعد تصاعد الخلافات بين النظام الناصري والنظام الثوري الجديد في العراق في نهاية عام ١٩٥٨، وانحياز عبد الكريم قاسم قائد تلك الثورة إلى الشيوعيين، ومذابحه تجاه القوميين العرب في العراق، وعدائه

لعبد الناصر ودولة الوحدة، فقد أتخذ السوفييت جانب قاسم ضد عبد الناصر مما حدا بالأخير إلى اعتقال كل الشيوعيين في الجمهورية العربية المتحدة في ليلة رأس السنة (١٩٥٨/ ١٩٥٩)، ورغم ذلك لم تتأثر العلاقات الاقتصادية المصرية السوفيتية، وبعد حين هدأت حدة الحرب الإعلامية بين القاهرة وموسكو لحرص عبد الناصر على عدم نسف كل جسوره مع السوفييت، ولإدراك خروشوف لأهمية دور عبد الناصر المناوئ للغرب وللولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

رأى الزعيم الإسرائيلي دافيد بن غوريون في قيام دولة الوحدة كارثة تهدد وجود إسرائيل وتضعها بين فكي كسارة البندق (مصر وسورية).

رغم أن الرئيس عبد الناصر لم يكن مؤيدا في البداية لإتمام الوحدة بالصورة السريعة التي تمت بها، وكان يرغب في فترة انتقالية لتمهيد الأمور والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين مصر وسورية، لإدراكه فوارق مراحل التطور الاجتماعي والاقتصادي بين البلدين، إلا أنه تحت ضغط الظروف وافق على إتمام الوحدة الفورية لرغبته في

إنقاذ سورية من التهديدات التي تتعرض لها، وقد نجحت الوحدة المصرية السورية في تحقيق الاستقرار لسورية بعد فترة طويلة من الانقلابات والمشاكل التي عانت منها عقب استقلالها، كما أن الوحدة حمت استقلال لبنان، وأسقطت مبدأ إيزنهاور لملء الفراغ في الشرق الأوسط عقب خروج الاستعمار القديم من المنطقة، كما ساهمت الوحدة في قيام الثورة العراقية في ١٤ تموز- يوليو ١٩٥٨ وإسقاط حلف بغداد وإفشال السياسة الاستعمارية الأمريكية في المنطقة، كما استطاعت سورية في ظل الوحدة أن تحقق تغييرات اجتماعية واقتصادية عميقة كانت تبحث عنها منذ استقلالها، وجاءت القوانين الاشتراكية في يوليو ١٩٦١ تحقيقا لأحلام ومطالب متراكمة منذ عقود، لذا وقف ضدها التجار والإقطاعيون السوريون..

في فجر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ تمت عملية الانقلاب على دولة الوحدة بتحرك وحدات من الجيش في سورية بقيادة المقدم عبد الكريم النحلاوي مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر للسيطرة على دمشق ومحاصرة مقر المشير، وقد رفض الرئيس عبد الناصر التصدي للانقلاب باستخدام القوة،

ورفض أن يتم رفع سلاح عربي ضد سلاح عربي، وأمر بإيقاف عمليات التصدي للانقلاب بالقوة، كما لم يعارض في عودة سورية للانضمام للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية كعضو مستقل، كان لعدم وجود اتصال جغرافي مباشر بين مصر وسورية دوراً كبيراً في نجاح الانقلاب، كما كان لحجم التآمر الخارجي الدور الأكبر في نجاح الانفصال فكما تكشف الوثائق تلاقت مصالح حلف غير مقدس مكون من (المخابرات المركزية الأمريكية- المخابرات البريطانية- الملك سعود بن عبد العزيز ملك السعودية- الملك حسين بن طلال ملك الأردن- الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم- الموساد الإسرائيلي- الضباط السوريين المرتشين) للعب الدور الأعظم في الانقضاض على دولة الوحدة.

أيد قادة حزب البعث (أكرم الحوراني – صلاح البيطار) انقلاب الانفصاليين، كما أيده الرئيس السوري السابق على الوحدة شكري القوتلي، وكذلك مؤسس حزب البعث ومفكره "ميشيل عفلق"، فبعد فشل حزب البعث في تحويل سورية لحكر بعثي خاص تحت حكم الرئيس عبد الناصر، لاعتقاد قادة البعث أنهم منحوا سورية للرئيس عبد الناصر،

وبالتالي فإن على الرئيس عبد الناصر أن يفعل ما يريده قادة البعث، وعندما رفض الرئيس عبد الناصر ذلك بذل قادة البعث كل جهودهم في سبيل فصم الوحدة، لإدراكهم أنهم لن يستطيعوا حكم سورية منفردين طالما ظل جمال عبد الناصر رئيسا لدولة الوحدة.

سقطت دولة الوحدة قبل أن تتدعم أركانها لأنها تمت تحت ضغوط داخلية وخارجية، كانت تعانى منها سورية، فجاءت الوحدة بين مصر وسورية كضرورة أمن قومي بين البلدين أكثر منها كهدف قومي.

كان الانفصال بداية المؤامرة لتصفية حركة التحرر الوطني العربي، وكان الطلقة الأولى في الطريق إلى النكسة عام ١٩٦٧، فالرئيس عبد الناصر الذي ألمته ضربة الانفصال شخصيا وبعدما تكشف له حجم التآمر العربي والغربي على مشروع الوحدة العربية، أصبح أكثر حذراً وراديكالية داخلياً وخارجيا، فالميثاق يصدر عام ١٩٦٢، وفيه يشدد الرئيس عبد الناصر على وحدة الهدف بدلا من وحدة الصف بين النظم العربية، وتسير مصر بخطى واسعة في الخطة الخمسية الأولى وبدا واضحا تصميم الرئيس عبد الناصر على انتهاج

نظام اقتصادي اشتراكي بعيدا عن الاحتكارات الرأسمالية العالمية.

في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ تندلع ثورة اليمن ضد نظام أسرة حميد الدين الاستبدادي المتخلف.

كانت السعودية الخائفة من انتقال الثورة إليها، هي التي بدأت التدخل في ثورة اليمن بالتحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وأنشأت السعودية للملكيين محطة إذاعية للتنديد بالنظام الثوري الجديد، كما وفرت الحماية والغطاء اللازم للأمير البدر ليقود الملكيين مدعوما بجيوش من المرتزقة بتخطيط أميركي بريطاني، وأمام هذه التدخلات، طلب الثوار اليمنيون من الرئيس عبد الناصر حماية جمهوريتهم الوليدة حتى لا يسقط اليمن مرة أخرى تحت الحكم الإمامي المتخلف، ووافق الرئيس عبد الناصر على دعم الثورة اليمنية عسكرياً بقوات مسلحة مصرية في عملية كبرى، كان اسمها الكودي (العملية ٩٠٠٠)، كما تولت مصر مهمة إدخال الحضارة إلى اليمن بإنشاء جهاز للدولة لأول مرة في تاريخ اليمن، وتأسيس المستشفيات والمدارس والطرق والموانئ والمطارات من أجل نقل اليمن إلى القرن

العشرين، أدت هذه التطورات إلى اشتعال الثورة في عدن واليمن الجنوبي، وقد دعمتها مصر بكل ثقلها في عملية كان اسمها الكودي (صلاح الدين).

عمت الثورة أنحاء اليمن شمالا وجنوبا وهددت معاقل الرجعية العربية ومنابع البترول شريان الحياة للحضارة الغربية، كما واصل الرئيس عبد الناصر دعمه لثورة الجزائر حتى تحررت عام ١٩٦٢، كما دعمت مصر كل حركات التحرر الوطني على امتداد العالم الثالث، فرغم الخلافات العربية الطاحنة والتآمر الغربي، رفض الرئيس عبد الناصر أن تخرج مصر من عروبتها وتنعزل عن إقليمها.

في عام ١٩٦٣ يظن رئيس الوزراء الإسرائيلي دافيد بن غوريون أن الرئيس عبد الناصر قد أصبح يائسا ومحبطا من تعاملاته مع العرب، وأنه مهيأ الآن لفض يده من الخلافات والمشاكل العربية، فيرسل له عرضاً للسلام مع إسرائيل عبر دينيس هاميلتون رئيس تحرير جريدة التايمس البريطانية، الذي قام بإبلاغ رسالة بن جوريون إلى صديقه الأستاذ محمد حسنين هيكل، رفض الرئيس عبد الناصر عرض السلام

الإسرائيلي مدركاً أنه مساومة على عروبة مصر مقابل الصلح مع إسرائيل.

وفى شتاء عام ١٩٦٤، يعقد حلف شمال الأطلنطي اجتماعا لمناقشة ورقة العمل التركية التي أعدها وزير الخارجية التركي، وتحمل عنوان (تصفية عبد الناصر).

ومحضر هذه الجلسة الذي يناقش ورقة العمل التركية، يتحدث عن الدور المشاكس والمضاد لمصالح الغرب الذي تلعبه مصر بزعامة جمال عبد الناصر عبر العديد من المشكلات التي تسبب فيها عبد الناصر من إفشال فكرة الأحلاف العسكرية:

- شراء الأسلحة من الكتلة الشرقية.
- تأميم القناة.
- تمصير وتأميم المصالح الأجنبية في مصر.
- الوحدة مع سورية.

ثم ثورة اليمن وهي الطامة الكبرى بالنسبة لمصالح الغرب.. فوجود الجيش المصري في اليمن لمساندة الثوار أدى إلى نشوء وضع خطير هو تحكم مصر في طريق المواصلات

بالبحر الأحمر من الشمال عبر قناة السويس، ومن الجنوب عبر مضيق باب المندب

كما أن هذا الوجود يهدد بزوال العرش الملكي السعودي الذي يحارب الثورة اليمنية وهو العرش الموالي للغرب والذى يضمن تدفق البترول إلى الغرب بكل يسر.

وتعرض الوثيقة إلى الأطراف العربية التي تعادى طموحات جمال عبد الناصر وسياساته وتحددها في:

المملكة العربية السعودية

الأردن

ليبيا تحت حكم الملك السنوسي.

كما تلفت النظر لسوء العلاقات المصرية السورية والمصرية العراقية.

كما تتحدث عن النفوذ المصري في إفريقيا المعادي لمصالح الغرب.

وتدعو لدراسة الاقتراح بتوجيه ضربة عسكرية موجعة إلى عبد الناصر، كما تطالب بتحويل اليمن إلى مستنقع يغوص فيه الجيش المصري، مما يساعد على إنجاح الضربة العسكرية الموجهة إلى مصر.

مع التنبيه على أنه إذا استمر الوضع الحالي في اليمن فإن العرش السعودي مهدد بالزوال عام ١٩٧٠.

في نفس الفترة تتصاعد الضغوط الأمريكية على الرئيس عبد الناصر لإيقاف برامج تصنيع الصواريخ والطائرات المصرية، وإخضاع المشروع النووي المصري للرقابة الدولية، وفى عام ١٩٦٥ يتم تجميد العمل ببرنامج إمداد مصر بالقمح الأمريكي لزيادة الضغط الاقتصادي على الرئيس عبد الناصر، ومحاولة تطويعه للأهداف الأمريكية، وتفكيك مشروعه المضاد للاستراتيجية الأمريكية في المنطقة، وفى عام ١٩٦٦ ورغم كل الرواسب العالقة في العلاقات المصرية السورية عقب الانفصال، يعقد الرئيس عبد الناصر اتفاقية دفاع مشترك مع سورية.

وعندما تفشل كل مشاريع تطويع عبد الناصر للإرادة الأمريكية، تصبح الحرب هي الحل الوحيد المتبقي لإسقاط جمال عبد الناصر وإنهاء مشروعه القومي، ويتم نصب فخ جر مصر إلى الحرب عبر تهديد إسرائيل بغزو سورية في مايو ١٩٦٧، فتندلع حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، والتي انتهت بهزيمة فادحة للدول العربية (مصر، سورية، الأردن)، ورغم الهزيمة

لم يسقط نظام جمال عبد الناصر بفضل تمسك الجماهير العربية في مصر وفى كل أقطار الوطن العربي ببقائه، وعندما تكشفت للرئيس عبد الناصر بعض الحقائق عما جرى في الحرب مثل عدم حدوث حرب حقيقية على الجبهة الأردنية، وخسارة الأردن لستة عشر شهيدا في الحرب كلها وتسليم الجيش الأردني القدس والضفة الغربية لليهود دون مقاومة، كما علم الرئيس عبد الناصر بما جرى على الجبهة السورية من إعلان سقوط مدينة القنيطرة في يد العدو قبل سقوطها، ومن صعود المدرعات الإسرائيلية لهضبة الجولان دون مقاومة، لم يفقد الرئيس عبد الناصر إيمانه بالعروبة وبدور مصر في العالم العربي، ورفض كل عروض السلام الإسرائيلية بعودة سيناء فقط إلى مصر مقابل سلام منفرد بين مصر وإسرائيل، وفى حديث له إلى أساتذة وطلبة الجامعات المصرية عقب مظاهرات الطلبة في ٢٥ أبريل ١٩٦٨ يقول الرئيس جمال عبد الناصر:

الموضوع مش هو مسألة جلاء إسرائيل عن سيناء وحدها، يمكن لو كانت دي هي المسألة أقدر احصل عليها بكرة بتنازلات.

أنا بقول للمثقفين بيفكروا ما ينفعلوش، أنا بقول لو العملية سيناء بس عايز.. برضه تفهموا كلامي.. لو العملية سيناء بس سهلة.

العملية مصيرنا؛ مصير العرب.. علشان لو كنا عايزين نسترد سيناء ممكن بتنازلات بنقبل شروط أمريكا وشروط إسرائيل، نتخلى عن الالتزام العربي ونترك لإسرائيل اليد الطولى في القدس والضفة الغربية وأي بلد عربي، ويحققوا حلمهم اللي أتكلموا فيه من النيل إلى الفرات، ونتخلى عن التزامنا العربي.. بندى هذه التنازلات ونقول لهم يعدوا في قنال السويس، ويرفعوا علم إسرائيل في قنال السويس، وبيمشوا ويتركوا سيناء.

الموضوع مش هو الجلاء عن سيناء وحدها، الموضوع أكبر من كده بكتير.. الموضوع هو أن نكون أو لا نكون.

موضوع إزالة آثار العدوان أكبر من الجلاء عن سيناء.

هل سنبقى الدولة المستقلة اللي حافظت على استقلالها وعلى سيادتها ولم تدخل ضمن مناطق النفوذ واللا حنتخلى عن هذا؟

إحنا مجروحين.. جزء من أرضنا محتل، ولكن رغم هذا؛ رغم الجرح هل نتنازل عن كل التزاماتنا العربية، وكل المثل وكل الحقوق، ونقبل إن إحنا نقعد مع إسرائيل لنتفاوض في الوصول إلى حل؟ إسرائيل بتقول كده، أمريكا بتقول كده إيه المقصود بإزالة آثار العدوان؟

أما نتكلم على إزالة آثار العدوان لازم نفهم أطراف وأبعاد إزالة آثار العدوان.. والمسألة مسألة كبيرة؛ كبيرة جداً، ومسألة أيضاً خطيرة؛ لأن أمريكا أيدت إسرائيل، ساعدتها في الأمم المتحدة، وأدتها الأسلحة، وأدتها المعونات المالية، وبمقدار كبر وخطورة الموضوع.. بمقدار ما يحتاجه من تكاليف وتضحيات. المسألة مش مسألة حل أزمة الشرق الأوسط.. المسألة هي نوعية الحل، شرف الحل، شرفنا.. مستقبلنا.. ومصيرنا".

لم يعد سرا الآن أن إسرائيل والولايات المتحدة حاولتا باستماتة إغواء الرئيس عبد الناصر بقبول صلح منفرد مقابل استعادة سيناء كاملة وبغير قيود لنزع سلاح القوات المسلحة المصرية في سيناء بشرط الخروج من الصراع العربي الإسرائيلي.

وفى حديث لرئيس وزراء إسرائيل ليفي أشكول مع مجلة نيوزويك الأمريكية عدد (١٧ شباط-فبراير ١٩٦٩) يقول: "خلال العقدين الأخيرين كررنا دائماً في إسرائيل قولنا بأننا مستعدون لمناقشة مشاكلنا مع ناصر، أنني ما زلت مستعداً لأن أطير إلى القاهرة، ولن أتحدث مع ناصر كمنتصر ولكنى سأبلغه أن إسرائيل مستعدة لإعادة سيناء كاملة إلى مصر وبدون أي قيد أو شرط حيث أنه لم تكن لإسرائيل في أي وقت طلبات من أجل نزع سلاح سيناء، ولكن بالنسبة لمرتفعات الجولان والقدس والضفة الغربية فإن إسرائيل ببساطة لن تتنازل عنها، سنرد لناصر سيناء بدون شروط مقابل أن يهتم بشئون مصر ولا يتدخل في شئون الدول العربية الأخرى".

رفض الرئيس عبد الناصر كل تلك العروض وأصر على عودة الأراضي العربية كلها وعلى الوصول إلى حل شامل للصراع العربي الإسرائيلي، أدرك الرئيس عبد الناصر أن عروبة مصر هي قدرها ومستقبلها وسبيل العرب الوحيد للوحدة ككتلة قوية في عالم لا يرحم الكيانات الصغيرة، أدرك أن قيادة مصر للوطن العربي تكون بأفعالها وبكونها

ممثلة لكل طموحات وأمال الشعوب العربية، لم تكن العروبة والقومية عنده تعنى السيطرة المصرية كما حدث في عهد محمد على بل كانت رؤيته أشمل لمفهوم الأمن القومي العربي الجامع لكل الدول العربية وكان مؤمنا أن المصالح العربية مشتركة وواحدة، لذا رفض بشدة أن يخرج من عروبته وأن ينعزل بمصر، كان الرئيس عبد الناصر مؤمنا بمعركة المصير الواحد لذا ظل مهتما بتكوين الجبهة الشرقية في معركة العرب المقبلة مع إسرائيل، وطلب من ياسر عرفات أن تنطلق ولو رصاصة فلسطينية يوميا داخل فلسطين المحتلة حتى يدرك العالم أن هناك قضية شعب تم اغتصاب وطنه لن تموت.

توفى الرئيس جمال عبد الناصر عقب مؤتمر القمة العربية بالقاهرة الذي عقد لوقف الحرب التي قادها ملك الأردن الراحل حسين ضد المنظمات الفدائية الفلسطينية، مات جمال عبد الناصر شهيدا في سبيل أمته، مات وهو يجاهد ضد أعداءه في إسرائيل وأمريكا.

ولنرى ما الذي حدث بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر؟

في مذكرات هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي الأسبق نقرأ التالي أنه شعر بالسعادة البالغة لنبأ وفاة الرئيس عبد الناصر لأن وجوده بسياسته الراديكالية المعادية للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط كان يمثل أكبر عائق لتنفيذ الأهداف الأمريكية في المنطقة الأهم للولايات المتحدة في العالم، ويحلل كيسنجر أوضاع المنطقة عقب وفاة عبد الناصر، ويصل أن الوقت أصبح مناسب للوصول لحل سلمى للصراع بين مصر وإسرائيل بشرط أن يكون هذا الحل أمريكي، وأن يتضمن ثلاثة شروط:

١ - طرد النفوذ السوفيتي من المنطقة كلها

٢- يترك مصر ضعيفة غير قادرة على التأثير بأي نفوذ على الإطلاق في العالم العربي

٣- أن تظهر التجربة الثورية التي قادها عبد الناصر في مظهر التجربة الفاشلة.

وعلى الجانب الإسرائيلي يقول مناحم بيجين عن وفاة عبد الناصر (إن وفاة عبد الناصر، تعني وفاة عدو مر، إنه كان أخطر عدو لإسرائيل. إن إسرائيل لهذا السبب

لا تستطيع أن تشارك في الحديث الذي يملأ العالم كله عن ناصر وقدراته وحنكته وزعامته).

ويقول بن غوريون (كان لليهود عدوين تاريخيين هما فرعون في القديم، وهتلر في الحديث، ولكن عبد الناصر فاق الاثنين معا في عدائه لنا، لقد خضنا الحروب من أجل التخلص منه حتى أتى الموت وخلصنا منه).

و يقول حاييم بارليف رئيس الأركان الإسرائيلي: (بوفاة جمال عبد الناصر أصبح المستقبل مشرقا أمام إسرائيل وعاد العرب فرقاء كما كانوا وسيظلون باختفاء شخصيته الكاريزماتية).

ويقول المفكر الإسرائيلي آمنون روبنشتاين: إن مصر يجب آلا تكون طرفا في الصراع العربي الإسرائيلي، إن تورط مصر الكبير في النزاع العربي الإسرائيلي تمخض بصفة خاصة بسبب سياسة جمال عبد الناصر التي كانت تقوم على ركنين أساسيين يعوزهما الحكمة:

١ - إمكانية وجود وحدة عربية.

٢ - معاداة الغرب.

وقد رفض جمال عبد الناصر طيلة حياته العدول عن تلك السياسات، والآن بعد وفاته نأمل أن تراجع القيادة المصرية الجديدة تلك السياسات لكى تنهى الحرب بين مصر وإسرائيل في مصر.

لعيوب بنيوية في تركيب النظام الناصري، خرج النقيض المتطرف للناصرية من قلب النظام، وعبر انقلاب أبيض بدون قطرة دماء في ١٣ مايو ١٩٧١، وعقب الانقلاب، وبعد فشل محاولات الوصول إلى حل سلمى برعاية أميركية، أضطر الرئيس السادات إلى اتخاذ قرار الحرب متحالفا مع السوريين، وفى يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، تندلع الحرب الخامسة بين العرب وإسرائيل، ويحقق المصريون والسوريون ما يشبه الإعجاز في أول أيام المعركة خاصة على الجبهة المصرية التي شهدت عملية العبور العظيم، وعند الحديث عن العبور يجب التنبيه إلى نقطة هامة وجوهرية لقد تم العبور بسواعد المصريين وعبر خطة محكمة وأداء مذهل بالسلاح السوفيتي، ولكنه أيضا تم بفضل السوريين، فالطيران الإسرائيلي وهو ذراع إسرائيل الطويلة، ركز ٨٠٪ من قوته على الجبهة السورية في اليوم الأول للحرب لقربها

من العمق الإسرائيلي، لذا تم تركيز ٨٠ ٪ من الطيران الإسرائيلي على الجبهة السورية، و٢٠٪ على الجبهة المصرية التي تفصلها صحراء سيناء الشاسعة عن العمق الإسرائيلي، وهو ما كان له دوره في نجاح عملية العبور العظيم بالطريقة التي تمت بها.

وهكذا بالدليل العملي ثبت جدوى الوحدة خلال اليوم الأول للمعركة، فقد حققت حرب ١٩٧٣ مخاوف بن جوريون من قيام دولة الوحدة التي شبهها بوقوع إسرائيل بين فكي كسارة البندق، وبرغم تفجر الخلافات أثناء الحرب وبعدها بين مصر وسورية، والاتهامات المتبادلة بين الرئيسين السادات والأسد، عقب قرار الرئيس السادات بالوقفة التعبوية، وعدم التزامه بما تم الاتفاق عليه مع الرئيس الأسد قبل الحرب، فقد كسرت حرب ١٩٧٣ هالة تفوق المقاتل الإسرائيلي وتخلف الجندي العربي.

منحت الحرب الرئيس السادات الشعبية التي كان يفتقدها منذ بداية حكمه، وجلبت له شرعية جديدة غير مستمدة من شرعية سلفه الرئيس عبد الناصر، رغم أن الجيش المصري الذي حارب وأنتصر تم بناءه في عهد الرئيس

عبد الناصر والخطط التي نفذت كانت موروثة من عهد الرئيس عبد الناصر، ولكن الرئيس السادات قرر استغلال الانتصار العسكري في تحويل مسار مصر، والانقضاض على الناصرية وعلى العروبة.

في يوم ٧ نوفمبر، وبعد وقف إطلاق النار بأيام قليلة كان الرئيس السادات يستقبل هنري كيسنجر في قصر الطاهرة للمرة الأولى مباشرة بعد العديد من الرسائل بينهما قبل الحرب وأثناءها وبعدها، وفى هذا الاجتماع المنفرد بين الرجلين فوجئ كيسنجر كما كتب بنفسه في مذكراته بالسادات وأطروحاته.

فالرئيس السادات لم يطلب منه أن تعمل الولايات المتحدة على انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي المحتلة في حرب ١٩٦٧ في إطار تسوية شاملة للصراع العربي الإسرائيلي وتفاوض على حقوق الشعب الفلسطيني.

بل كل ما طلبه هو انسحاب إسرائيلي من ثلثي سيناء حتى خط العريش- رأس محمد، وبهذا خالف الرئيس السادات الموقف العربي الثابت منذ حرب ١٩٦٧، وحتى هذا المطلب رغم سرور كيسنجر به، رفضه كيسنجر قبل

الرجوع للإسرائيليين، والرئيس السادات يصارح كيسنجر أن حصار الجيش الثالث ليس جوهر المسألة وخطوط ٢٢ أكتوبر لا تصلح للنقاش بين صانعي سياسة مثله هو وكيسنجر، إن السادات راغب بشدة في عودة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة، وهى العلاقات التي تم قطعها بين مصر والولايات المتحدة عقب حرب ١٩٦٧.

وإثر الدور الأمريكي الواضح في الحرب تخطيطاً وتنفيذاً، وإثر هذا القرار المصري قطعت معظم الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية بالولايات المتحدة وتم خروج ٦٢ ألف أمريكي من الوطن العربي في مشهد مهين لهيبة وكرامة الولايات المتحدة الأمريكية، وهاج الرئيس الأمريكي جونسون معتبراً ما حدث صفعة لمكانة الولايات المتحدة وتحريض شرير من الرئيس عبد الناصر، وطوال الفترة من ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٣ حاولت الولايات المتحدة العمل على عودة العلاقات الدبلوماسية المصرية الأمريكية دون جدوى لإصرار مصر على أن تلزم الولايات المتحدة إسرائيل بالانسحاب من الأراضي العربية قبل تلك الخطوة، والآن

يقوم الرئيس السادات وبعد حرب ضارية اهتزت فيها ثقة إسرائيل وتم كسر جيشها بتقديم هذا العرض المجاني، اغتبط كيسنجر لذلك وفى ذهنه ما هو أبعد وأهم، فعودة العلاقات الدبلوماسية المصرية الأمريكية تفتح الباب لعودة علاقات أمريكا بكل دول العالم العربي، ويبلغ الرئيس السادات كيسنجر أنه قرر أن يرفع مستوى التمثيل الدبلوماسي فوراً من قائم بالأعمال إلى سفير بالنسبة لمصر والولايات المتحدة، وكل ذلك بدون مقابل.

ولم يكتف الرئيس السادات بذلك بل يبلغ كيسنجر أنه ليس خلفا للرئيس عبد الناصر بل خلفا لأجداده من الفراعنة الكبار، ويبلغه أنه ينوى تصفية ميراث سياسات الرئيس عبد الناصر الاقتصادية والاجتماعية وتوجهاته القومية العربية، وسيعمل على طرد السوفييت من الشرق الأوسط.

ويقول السادات لكيسنجر لقد كانت حماقة وطيش من عبد الناصر محاولاته الدائمة لابتزاز الأمريكان وتحقيق أهداف مصر من خلال محاربة السياسة الأمريكية في العالم

العربي وعلى امتداد العالم، وإن مصر خاضت ما يكفيها من حروب من أجل العرب وتتطلع إلى السلام.

يسجل كيسنجر في مذكراته تلك الكلمات عن الرئيس السادات: (أنه يمثل لي أفضل فرصة لكى نقلب المشاعر والاتجاهات العربية والمواقف العربية تجاه إسرائيل، وهى أفضل فرصة تتاح لدولة إسرائيل منذ قيامها).

يقول كيسنجر أنه هو الذي أوحى للرئيس السادات أن المشكلة بين مصر وإسرائيل هي مشكلة نفسية نتجت عن عدم ثقة إسرائيل بنوايا مصر وخوفها على أمنها، وأن يجب على مصر أن تعطى إسرائيل الإحساس بالأمان تهتم بشئونها فقط بدلاً من الاهتمام بمشاكل العرب الآخرين، وكالعادة يوافقه الرئيس السادات ويصارحه أن المشكلة الأساسية نجمت من رفض الرئيس عبد الناصر الاعتراف بالهزيمة عام ١٩٦٧ وإصراره على الحل العسكري للصراع وتمسكه بحل شامل على كل الجبهات العربية مما كلف مصر الكثير.

كان خيار الرئيس السادات خروج مصر من العروبة، والبحث عن حل فردى لصراعها مع إسرائيل، وفصل الجبهات العربية هو البداية لعقود مريرة في التاريخ العربي

المعاصر، مزقت الوطن العربي شر ممزق، لم تكن عروبة مصر مغامرة أو رغبة في الزعامة من الرئيس عبد الناصر بل كانت فرض التاريخ والجغرافيا على مصر، ولم تكن حروب مصر مع إسرائيل من أجل العرب فقط بل من أجل مصر في المقام الأول، لقد أنشأت إسرائيل لعزل مصر في أفريقيا ولوراثة دورها في الوطن العربي، يقول رئيس الوزراء الإسرائيلي بن جوريون لوزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس في ١٤ مايو ١٩٥٣:

"أنكم مهتمون بمصر وأود أن ألفت نظركم إلى أن إسرائيل تملك نفس المزايا التي تملكها مصر، فكلاهما يطل على البحر الأبيض والبحر الأحمر وما بين ميناء إيلات وميناء حيفا يمر نفس الشريان الحيوي الذي يمر بين بورسعيد والسويس وهو مهيأ لحفر قناة جديدة تصل ما بين البحرين، وأنا لا أعرف لماذا يريد المصريون أن نخرج من النقب، إن لديهم صحارى بأكثر مما يكفيهم ولديهم أرض تزيد عن حاجتهم وحجم بلادهم يساوى ٣٦ مرة حجم إسرائيل، هكذا يعلنها بن جوريون بصراحة إسرائيل تستطيع بموقعها

وراثة دور مصر، وإسرائيل ليست مستعدة للتخلي عن صحراء النقب لأنها تفصل مصر عن المشرق العربي.

ويروى الأستاذ هيكل في برنامجه (مع هيكل) وقائع لقائه مع رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق كوف دي مورفيل الذي قال له أنه جرت في الشرق الأوسط معركتين معركة دخول إسرائيل، ومعركة خروج مصر، وان دخول إسرائيل لا يتحقق إلا بخروج مصر، وأن بريطانيا هي الدولة التي ساعدت على دخول إسرائيل، والولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة التي يجب أن تحقق خروج مصر، وأنكم كعرب تنبهتم للمعركة الأولى الخاصة بدخول إسرائيل وغابت عنكم معركة خروج مصر، أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تريد لمصر أن تعبر خط قناة السويس، لا مانع لدى الأميركيين من أن تصبح مصر بلداً أفريقياً جيداً أو بلداً إسلامياً جيداً ولكنهم لا يريدون أن تكون مصر بلداً عربياً جيداً، لقد كانت كل مشاكل الغرب مع جمال عبد الناصر بسبب أنه جلب المشرق العربي إلى مصر واهتم بصياغة مشروع للوحدة عربية.

لفت نظري في كل الكتب التي الأوربية والأمريكية عن الرئيس جمال عبد الناصر أن هناك أكليشيه واحد متكرر يجمع بين تلك السير الذاتية للرئيس الراحل هو "أنه كان بإمكان الرئيس عبد الناصر أن يفعل المزيد من أجل رفاهية مصر لو أنه قلل من مساعداته وتدخلاته في شئون الدول العربية الأخرى ".

يبدو هذا الأكليشيه المتكرر بما يحمله من معانى شديد الدلالة عن الرؤية الغربية لمصر، ولكن هل كانت عروبة مصر سببا في مشاكل مصر الاقتصادية بالفعل؟

لقد ساعد الرئيس جمال عبد الناصر الثورة الجزائرية بمبلغ ٦٠ مليون جنيه مصري، وبعد استقلال الجزائر عام ١٩٦٢، اشترى الرئيس بومدين أسلحة لمصر في خلال الاستعداد لحرب سنة ١٩٧٣ بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار، وفى فترة الوحدة، دفعت مصر لسوريا مبلغ ٦ ملايين جنيه مصري، وفى مواجهة حلف بغداد، لم تنفق مصر شيئا بل دعمت إذاعاتها وكتلت الشعوب العربية لمقاومة المشاريع الاستعمارية في المنطقة، وأنفقت مصر مبلغ ٥٠٠ مليون جنيه لإنشاء الدولة الحديثة (مدارس- مستشفيات- طرق- جهاز

الدولة) في اليمن، ولنقل اليمن إلى القرن العشرين، وبعد حرب ١٩٦٧ في قمة الخرطوم ١٩٦٧، تعهدت الدول العربية بدفع ٩٥ مليون جنيه سنوياً لمصر لتعويض خسائرها في الحرب، وعندما احتاجت مصر لطائرة قاذفة مقاتلة سنة ١٩٧٠ اشترى الرئيس الليبي معمر القذافي لمصر صفقة طائرات قاذفة ميراج ضخمة (مائة وواحد طائرة ميراج – وأربع طائرات تدريب) من فرنسا بمئات الملايين من الدولارات، وفى عام ١٩٧٣ وحده دفعت ليبيا القذافي لمصر تكاليف شراء أسلحة وصلت قيمتها إلى مليار دولار، كان ضمنها القوارب المطاطية التي استخدمتها قوات الموجة الأولى في عبور قناة السويس، وكان شراؤها من إيطاليا، وفى الفترة من سنة ١٩٧٣ إلى سنة ١٩٧٧، وقبل مبادرة السادات للسلام دفعت الدول العربية لمصر مبلغ تتراوح تقديراته من ١٦ مليار دولار إلى ٢١ مليار دولار.

وعندما اجتمع مؤتمر القمة العربي في بغداد سنة ١٩٧٩ وجدت الدول العربية أن خروج مصر على الصف العربي بصلح منفرد مع إسرائيل سوف يؤدى إلى إضعاف الوطن العربي، وفى محاولة لإثناء الرئيس السادات عن توقيع معاهدة

السلام مع إسرائيل، قرر الحكام العرب إرسال وفد ممثلا لهم، يحمل عرضاً للرئيس السادات بمنح مصر مبلغ ٥ مليارات دولار كمنحة لا ترد وتدفع مرة واحدة.

رفض الرئيس السادات مجرد استقبال وفد القمة العربية وقال: "أنا لا أريد أن أظل مع المتخلفين، وإنما مكاني هناك في الغرب مع المتقدمين".

ولكن حتى مع الأخذ في الاعتبار تبريرات الرئيس السادات لمواقفه وسياساته، فإذا نظرنا إلى عروبة بمصر بمنطق التجار والسماسرة من الحكام سوف نجد بحسبة بسيطة أن مصر هي المستفيدة ماديا من عروبتها ومن قيادتها للوطن العربي، وهو ما ينسف كل مبررات الرئيس السادات لما فعله بعد أكتوبر ١٩٧٣.

ولنلقى نظرة أكثر شمولا على أوضاع مصر الاقتصادية في زمن العروبة والحروب مع إسرائيل (زمن المتخلفين كما وصفه الرئيس السادات).

تخبرنا الأرقام وهى لا تكذب ولا تتجمل بالتالي: أن مصر في عهد العروبة والحروب حققت نسبة نمو من عام ١٩٥٧–١٩٦٧ بلغت ما يقرب من ٧ ٪ سنوياً.

ومصدر هذا الرقم تقرير البنك الدولي رقم [٨٧٠ - أ] عن مصر الصادر في واشنطن بتاريخ ٥ يناير ١٩٧٦.

وهذا يعنى أن مصر استطاعت في عشر سنوات من عصر عبد الناصر أن تقوم بتنمية تماثل أربعة أضعاف ما استطاعت تحقيقه في الأربعين سنة السابقة على عصر عبد الناصر.

كانت تلك نتيجةً لا مثيل لها في العالم النامي كله حيث لم يزد معدل التنمية السنوي في أكثر بلدانه المستقلة خلال تلك الفترة عن اثنين ونصف في المائة بل أن هذه النسبة كان يعز مثيلها في العالم المتقدم باستثناء اليابان، وألمانيا الغربية، ومجموعة الدول الشيوعية.

فمثلًا إيطاليا وهى دولة صناعية متقدمة ومن الدول الصناعية الكبرى حققت نسبة نمو عن تقدر بـ٤. ٥ ٪ فقط في نفس الفترة الزمنية.

وبدأت مصر مع الهند ويوغوسلافيا منذ بداية الستينيات مشروعاً طموحاً لتصنيع الطائرات والصواريخ والمحركات النفاثة والأسلحة.

وحتى سنة ١٩٦٧ كانت مصر متفوقة على الهند في صناعة الطائرات والمحركات النفاثة وتم صنع الطائرة النفاثة المصرية القاهرة ٣٠٠.

وصنعت مصر أول صاروخين من إنتاجها بمساعدة علماء الصواريخ الألمان ولكن شابهما عيوب في أجهزة التوجيه.

في عام ١٩٦٦ كان الفارق بين البرنامج النووي المصري، ونظيره الإسرائيلي عام ونصف لصالح البرنامج النووي الإسرائيلي، ورغم النكسة كانت مصر على وشك تحقيق توازن القوى في المجال النووي بينها وبين إسرائيل بحلول سنة ١٩٧١.

و في يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ جاء يوم الحساب لتجربة ومشروع جمال عبد الناصر في الحرب العدوانية التي شنتها أمريكا وإسرائيل لإجهاض مشروع النهضة العربي الذى يقوده جمال عبد الناصر، تلك الحرب التي وصفها الرئيس الفرنسي شارل ديجول بأنها (المعركة أمريكية والأداء إسرائيلي).

ورغم عنف الضربة وفداحة الهزيمة العسكرية.

هل انهارت مصر وانتهت كما يحاول إقناعنا بعض العملاء من مدمني تكريس الهزيمة والمعادين للعروبة، أن العروبة وحرب ١٩٦٧ هما سبب كل مشاكل مصر؟!!

بإلقاء نظرة على أوضاع مصر عقب الهزيمة يتضح لنا الآتي تحمل الاقتصاد المصري تكاليف إتمام بناء مشروع السد العالي العملاق، ولم يكتمل بناء هذا السد إلا سنة ١٩٧٠ قبيل وفاة الرئيس عبد الناصر.

السد العالي الذى اختارته الأمم المتحدة عام ٢٠٠٠ كأعظم مشروع هندسي وتنموي في القرن العشرين والذى يعادل في بناؤه ١٧ هرم من طراز هرم خوفو.

كما تم بناء مجمع مصانع الألمونيوم في نجع حمادي وهو مشروع عملاق بلغت تكلفته ما يقرب من ٣ مليار جنيه.

وفى ظل النكسة حافظت مصر على نسبة النمو الاقتصادي قبل النكسة بل أن هذه النسبة زادت في عامي ١٩٦٩ و١٩٧٠ وبلغت ٨ ٪ سنوياً.

واستطاع الاقتصاد المصري عام ١٩٦٩ أن يحقق زيادة لصالح ميزانه التجاري لأول وأخر مرة في تاريخ مصر بفائض قدرها ٤٦ . ٩ مليون جنية بأسعار ذلك الزمان.

تحمل الاقتصاد المصري عبء إعادة بناء الجيش المصري من الصفر وبدون مديونيات خارجية كانت المحلات المصرية تعرض وتبيع منتجات مصرية من مأكولات وملابس وأثاث وأجهزة كهربية.

وكان الرئيس عبد الناصر يفخر أنه يرتدى بدل وقمصان غزل المحلة ويستخدم الأجهزة الكهربائية المصرية (إيديال).

كما ترصد تقارير البنك الدولي بعض مظاهر التحول الاجتماعي العميق الذى شهدته مصر ما بين عامي (١٩٥٢-١٩٧٠).

حيث زادت مساحة الأرض الزراعية بأكثر من ١٥٪ ، ولأول مرة تسبق الزيادة في رقعة الأرض الزراعية الزيادة في عدد السكان.

لقد كان جمال عبد الناصر أول حاكم مصري منذ عهد الفراعنة يوسع رقعة وادى النيل.

وزاد عدد الشباب في المدارس والجامعات والمعاهد العليا بأكثر من ٣٠٠٪ .

وزادت مساحة الأراضي المملوكة لفئة صغار الفلاحين من ١/٢ مليون فدان إلى حوالى ٤ مليون فدان.

كما حدث تقدم ملحوظ في مجال المساواة، والعدالة الاجتماعية في المدن أيضا بفعل الضرائب.

وتم وضع حدود دنيا وعليا للرواتب والمرتبات.

فلا أحد يعيش برفاهة وبذخ ولا أحد يعيش دون مستوى الكفاف.

وقبيل وفاة الرئيس عبد الناصر أتمت مصر بناء حائط الصواريخ الشهير وأتمت خطط العبور وتحرير الأرض العربية كلها وليس تحريك الموقف.

وبقبول الرئيس عبد الناصر لمبادرة روجرز، أستطاع أبطال القوات المسلحة تحريك حائط الصواريخ العظيم حتى حافة قناة السويس.

وبذلك تم إلغاء دور الطيران الإسرائيلي ذراع إسرائيل الطويلة في الهجوم على مصر غرب قناة السويس وأصبح اندلاع حرب التحرير، وعبور الجيش المصري للضفة الشرقية مسألة وقت.

كان الرئيس عبد الناصر يقدرها بزمن لا يتأخر عن نيسان- أبريل ١٩٧١ وقبيل وفاة الرئيس صدق على الخطة جرانيت. وهى خطة العبور التي نفذ الجزء الأول منها في ظهيرة يوم ٦ تشرين الأول- أكتوبر ١٩٧٣ كما صدق على الخطة ٢٠٠ وهى الخطة الدفاعية التي تحسبت لحدوث ثغرة في المفصل الحرج بين الجيشين الثاني والثالث المصري.

والغريب أن الثغرة حدثت كما توقعت الخطة ٢٠٠ بالضبط عقب قرار الرئيس السادات المتأخر بتطوير الهجوم المصري يوم ١٤ تشرين الأول- أكتوبر ١٩٧٣.

صعدت روح الرئيس عبد الناصر إلى بارئها واقتصاد مصر أقوى من اقتصاد كوريا الجنوبية، ولدى مصر فائض من العملة الصعبة تجاوز المائتين والخمسين مليون دولار بشهادة البنك الدولي.

وثمن القطاع العام الذى بناه المصريون في عهد الرئيس عبد الناصر بتقديرات البنك الدولي بلغ ١٤٠٠ مليار دولار.

ولدى مصر أكبر قاعدة صناعية في العالم الثالث حيث كان عدد المصانع التي أنشأت في عهد عبد الناصر ١٢٠٠ مصنع منها مصانع صناعات ثقيلة وتحويلية واستراتيجية.

كما تم خفض نسبة الأمية من ٨٠٪ قبل ١٩٥٢ إلى ٥٠٪ عام ١٩٧٠ بفضل مجانية التعليم في كل مراحل الدراسة.

كما تم دخول الكهرباء والمياه النظيفة والمدارس والوحدات الصحية والجمعيات الزراعية إلى معظم قرى مصر.

وتم ضمان التأمين الصحي والاجتماعي والمعاشات لكل مواطن مصري.

كل ذلك تم بدون ديون تُذكر.

كما لم تكن عملة مصر مرتبطة بالدولار الأمريكي، بل كان الجنيه المصري يساوى ثلاثة دولارات ونصف، ويساوى أربعة عشر ريال سعودي بأسعار البنك المركزي المصري.

كما تخبرنا الأرقام أن مصر في زمن العروبة والحروب، اشترت أسلحة من الاتحاد السوفيتي من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٧٣ بمبلغ ٤ مليار دولار، سددت من هذا المبلغ مليار دولار فقط للسوفييت الذين تنازلوا عن الثلاثة مليارات الباقية لمصر، خاضت مصر بالسلاح السوفيتي أربع حروب

ضد إسرائيل: حرب السويس ١٩٥٦، حرب يونيو ٦٧، حرب الاستنزاف ١٩٦٧-١٩٧٠، حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وبالنسبة لحرب اليمن فقد كانت كل أسلحتها منحة من السوفييت للقوات المسلحة المصرية، ولم تدفع مصر جنيهاً واحدًا فيها.

في نفس تلك الفترة الزمنية من ١٩٥٥ حتى ١٩٧٥، كان شاه إيران البائد يشترى من الولايات المتحدة سنويا أسلحة بمبلغ ٤ مليار دولار يدفعها مقدماً ونقداً.

المدهش في الأمر أنه عقب قرار الرئيس السادات بتنويع مصادر الحصول على السلاح، اشترت مصر من الغرب في الفترة من سنة ١٩٧٤ إلى سنة ١٩٧٨ أسلحة بمبلغ ٧ مليار دولار، أي أن مصر في ظل البحث عن السلام وعقب إعلان الرئيس السادات أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ هي أخر الحروب أشترت أسلحة في ٤ سنوات فقط بثمن مضاعف لما أشترته من أسلحة خلال ٢٠ عاماً شهدت خمس حروب (حرب ٥٦- حرب اليمن – حرب ٦٧ – حرب الاستنزاف – حرب ٧٣).

كما تخبرنا أرقام منظمة الصليب الأحمر الدولي أن مصر من سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٧٣ خاضت ٥ حروب ضد إسرائيل خسرت فيها ٣٩ ألف شهيد، ٧٣ ألف جريح، ٦١ ألف معوق.

بينما تخبرنا الأرقام أن مصر خلال الفترة من ١٩٨٠ وحتى ٢٠١٠ وبدون أن تخوض أي حروب ضد إسرائيل خسرت في حوادث الطرق ١٨٠ ألف قتيل، و٥٠٠ ألف جريح ومعوق.

وهكذا فإن الخروج من العروبة، ومقولات الرئيس السادات عن أخر الحروب وحفظ دماء المصريين لم يحفظ دماء المصريين، ولم يمنع عنهم الموت في حوادث عبثية على الطرق.

والأرقام الاقتصادية الموثقة أثبتت أن العروبة لم تكن أبداً مغامرة ناصرية غير محسوبة، لم تكن أبداً رغبة في الزعامة أو بحثا عن مجد شخصي للرئيس عبد الناصر بل كانت ذات خير مزدوج لمصر وللأمة العربية كلها.

لم تكن العروبة أبدا عائقا أمام تقدم مصر الاقتصادي والاجتماعي، وما أنفقته مصر في سبيل القضايا العربية استردته أضعافا مضاعفة.

إن حل مشاكل مصر هو في تبنى دورها الطبيعي في قيادة الوطن العربي وليس بالانسحاب من دورها الذى فرضته عليها الجغرافيا، وفرضه عليها التاريخ.

أثبت جمال عبد الناصر دور الفرد البطل في التاريخ، كما لم يفعل غيره خاصة في أمة مهزومة تجرعت كؤوس الذل والقهر والاستعباد لحقب طويلة.

أتى جمال عبد الناصر ليجسد الحلم في الانعتاق والتحرر واللحاق بالعصر، كانت ثورته تمثل الخلاص لكل المستضعفين في الأرض، فبعد عصور طويلة من الرقاد والموات وفى ظل أوضاع كريهة لا تبشر بخير ولا توحى بأمل، صعد جمال عبد الناصر من مصر القطر القاعدة في الأمة العربية كفرعون جديد قادر على قيادة أمته نحو الخلاص.

جسد جمال عبد الناصر كل الأحلام التي يتمناها كل عربي مخلص لأمته، وعمل جاهدا على تحقيق طموحات

الشعوب العربية في ظل مناخ داخلي وخارجي معادى، فلا توجد ثورة في العالم الثالث لقيت كل هذا الكم من الهجوم والتآمر والافتراء والحصار والعدوان كما لقيت ثورة جمال عبد الناصر، واللافت للنظر أن هذا الهجوم الظالم مازال مستمرا حتى الآن رغم مرور أكثر من ٤٧ عاما على استشهاد قائد الثورة ذاته وهو أمر يدعونا للتفكير بعمق في سر ذلك، لماذا مازالت القوى التي حاربها عبد الناصر طيلة حياته تمتلك هذا الإصرار على تلطيخ سمعته وتشويه أعماله واغتيال شخصيته إلا إذا كان فكره ومشروعه النهضوي القومي مازالا يشكلان خطراً على مصالح وامتيازات تلك القوى التي لا تريد خيراً بأمتنا.

كان أكثر من أدرك تفرد دور عبد الناصر وخطورة وجوده هم أعداءه، فمشروع عبد الناصر بإيجاز لديهم، كان يتلخص في أن يمتلك العرب إرادتهم، ويفرضوا كلمتهم في عالمهم العربي لصالح شعوبهم، وهو ما لا يمكن السماح به، لذا خاض عبد الناصر معارك ضارية طيلة مدة حكمه، استهدفت في البداية إقناعه بعدم جدوى مشروعه، وعندما فشلت محاولات إقناعه، تحولت المعارك لتعطيل مشروعه، ثم

لتدمير مشروعه ثم لقتل عبد الناصر شخصياً، عندما أيقن أعداءه أن غيابه من الوجود سيحطم مشروعه المعادي لهم.

كان عبد الناصر يعترض سبيل كل أعداء العرب في حياته، وبعد وفاته أصبح العالم العربي مستباحاً لكل أعداءه.

أدرك عبد الناصر دور مصر المحوري في العالم العربي، وارتباط أمنها القومي بالأمن القومي العربي كله، لذا رفض أن يكون وكيلاً للمصالح الأمريكية، كما رفض الصلح مع إسرائيل حتى النهاية، ليقينه أنه لو تصالح وانعزل داخل حدود مصر، ستفقد مصر قيمتها كقائد للعرب، وسينفرط عقد الدول العربية حديثة العهد بالاستقلال السياسي وسيعود الغرب للتحكم بالعالم العربي مرة أخرى.

بلا شك جمال عبد الناصر هو أعظم مصري وعربي في التاريخ الحديث، وعهده هو عهد الصعود المصري والعربي في شتى الأصعدة، وقد كان فصلاً استثنائياً في تاريخ مصر والعرب حتى الآن، جاء عبد الناصر في لحظة أزمة بعد حقبة شبه ليبرالية فشلت في تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي والعدالة الاجتماعية، كما هُزمت عسكرياً في حرب فلسطين مما تسبب في نشأة الكيان الصهيوني.

استطاع عبد الناصر في ١٨ سنة فقط أن يقلب النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي العربي كله رأساً على عقب رغم قوة أعداءه، وقد أثمر نضاله الكثير لصالح مصر والأمة العربية، ولكن للأسف لأن مشروعه كان قائماً على شخصه، ولأن كل تلك الإنجازات لم تكن لتتحقق إلا بفضل وجوده شخصياً على قمة السلطة، لم يمتد مشروعه بعد موته لأن نظامه فشل طيلة ١٨ سنة في حل تناقضات بناءه وظل للنهاية مبنياً على التوازنات الهشة.

جاءت وفاة عبد الناصر المفاجئة لتدمر توازنات نظامه، ولتضع الأضداد في مواجهة بعضهم البعض، وللأسف في تلك المواجهة انتصر الفريق السيئ بقيادة السادات الذى قامت سياسته على تفكيك كل ميراث عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

لا صلة لعبد الناصر بالنظام السياسي المصري منذ لقاء السادات مع كيسنجر يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣ والتعهدات التي قطعها له بالخلاص من تركة عبد الناصر تمهيداً لدخول مصر تحت المظلة الأمريكية، وقد نفذ السادات تلك التعهدات كاملة وواصل خلفاءه تنفيذها.

استدعاء رمزية عبد الناصر كلما واجهت النظم التي جاءت بعده أزمة لا يعنى صلته بسياسات تلك النظم التي تتمسح فيه، وكون خلفاء عبد الناصر كانوا ضباط من الجيش لا يعنى أنهم نتاج عبد الناصر الذى كان أيضا ضابطا بالجيش، لأن قيمة عبد الناصر لم تأت من كونه ضابط جيش فقط بل من انحيازاته الاقتصادية والاجتماعية ورؤيته السياسية التي يتمايز بها عن كل من سبقوه ومن لحقوه من حكام مصر لذا يمكن التأريخ لمصر بما قبل عبد الناصر، وحقبة عبد الناصر، وما بعد عبد الناصر، لأن الانحيازات الاقتصادية والاجتماعية لكل الحكام قبل وبعد عبد الناصر واحدة، وسياسات كل هؤلاء الحكام الخارجية متشابهة، بينما فترة حكم عبد الناصر وهى قصيرة بمعايير الزمن تُعد خروجاً واضحاً على مسار التاريخ المصري منذ قرون طويلة.

يعكس الإصرار على تحميل عبد الناصر كل خطايا النظم التي خلفته قصوراً في الرؤية، وعجزاً عن التغيير، وسطحية في تحليل وقائع التاريخ، وهو لا ينال من عبد الناصر بل يضفى عليه صفات خارقة، فالرجل الذى

مات منذ ٤٧ سنة ما زال فاعلاً في واقع مصر الحالي عبر الدولة التي بناها ويستحيل إسقاطها من وجهة نظر خصومه.

إن الاحتفال بمرور مئة عام على ميلاد الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ليس مناسبة لسكب الدموع على البطل الراحل، بل يجب أن يتحول الاحتفال بذكرى ميلاده إلى فعالية لتوحيد التيار الناصري في مصر، وبلورة لأفكار جمال عبد الناصر في إطار مناسب للعصر لمواجهة الهجمة الرأسمالية الشرسة التي تسعى للقضاء التام على أخر إنجازات جمال عبد الناصر.



اليوميات الشخصية
لجمال عبد الناصر في
حرب فلسطين

قراءة في اليوميات الشخصية لجمال عبد الناصر في حرب فلسطين

اليوميات الشخصية لجمال عبد الناصر خلال مشاركته في القتال في حرب فلسطين هي أول وثيقة بخط يد جمال عبد الناصر تعبر عن مشاعره وانطباعاته كضابط مصري يقاتل ضد العدو الصهيوني في فلسطين، وتنبع أهميتها من كونها مكتوبة وجمال عبد الناصر خارج السلطة.

بدأ جمال عبد الناصر تدوين يومياته الشخصية في يوم ٣ يونيو ١٩٤٨ وانتهى تدوينه لها في يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨، فقد توقف جمال عبد الناصر عن الكتابة وهو في منتصف جملة كان يكتبها بسبب تجدد الهجمات الإسرائيلية على موقع كتيبته.

في أول أيام التدوين سنجد أن جمال عبد الناصر ذهب لمعسكر المتطوعين لمقابلة الصاغ محمود لبيب وعندما لم يجده وأثناء طريقه إلى غزة يقابله بصحبة الشيخ محمد فرغلي ويتفق جمال عبد الناصر معهما على أداء صلاة الجمعة سويا في معسكر المتطوعين.

الصاغ محمود لبيب واحد من أهم رموز جماعة الإخوان المسلمين وهو من مؤسسي الجهاز الخاص الجناح العسكري للجماعة وكان القائد العام لمتطوعي الإخوان المسلمين في فلسطين، والشيخ محمد فرغلي هو قائد كتائب الإخوان المسلمين في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وعضو مكتب الإرشاد ورئيس منطقة الإسماعيلية والقناة وأحد مؤسسي الجهاز الخاص للجماعة أيضاً.

يبدو حرص جمال عبد الناصر على لقاءهما مدعاة للتساؤل حول العلاقة التي كانت تربط بينه وبين جماعة الإخوان المسلمين قبل الثورة، وفى نفس الوقت يرد بقوة على ما أثارته الجماعة من أكاذيب عن صلة ربطت بين جمال عبد الناصر والإسرائيليين أثناء حرب فلسطين في إطار محاولتهم لتشويه سمعته إثر احتدام الصراع السياسي بين الضباط الأحرار والجماعة بعد الثورة، كان جمال عبد الناصر من أشد المتحمسين للاشتراك في حرب فلسطين وقبل أن تقرر الحكومة المصرية دخول الحرب كان يفكر في التطوع للقتال في فلسطين، وهناك واقعة شهيرة عن التحقيق الذى تعرض له جمال عبد الناصر بعد حرب فلسطين عندما تم

اكتشاف كتاب أصدره الجيش عن صنع القنابل اليدوية عليه توقيعه أثناء تفتيش إحدى شعب جماعة الإخوان إبان حملة اعتقالهم عام ١٩٤٨، وقد قام إبراهيم عبد الهادي باشا رئيس الوزراء المصري وقتها باستدعاء جمال عبد الناصر في مايو ١٩٤٩ بعد عودته من ميدان القتال للتحقيق معه عن صلته بجماعة الإخوان المسلمين بحضور الفريق عثمان المهدى رئيس هيئة أركان الجيش، وقد نفى جمال عبد الناصر صلته بالجماعة وقال لرئيس الوزراء أنه أعطى الكتاب لزميله الضابط أنور الصيحي، وعندما سأله إبراهيم عبد الهادي: أين أنور الصيحي؟ أجابه جمال عبد الناصر: أنه أستشهد في حرب فلسطين، فصرفه رئيس الوزراء بعد أن حذره وهدده.

توفى الصاغ محمود لبيب يوم ١٨ ديسمبر ١٩٥١ قبل الثورة، بينما قاد صراع جماعة الإخوان المسلمين مع ثورة يوليو الشيخ محمد فرغلي إلى حبل المشنقة بعد محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر بالإسكندرية يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ والتي كان الشيخ محمد فرغلي واحد من الضالعين في التخطيط لها.

يظهر عبد الحكيم عامر مبكرا في دفتر يوميات جمال عبد الناصر فهو يقابله يوم ٤ يونيو ١٩٤٨ ويلحظان معاً

مدى هشاشة التحصينات الدفاعية للقوات المصرية وعدم وجود عمق وغياب الاحتياطي الاستراتيجي للجيش المصري، وعلى امتداد اليوميات سنجد عبد الحكيم عامر موجودا بها ولكن برغم وجود أسماء أخرى لشخصيات لعبت دوراً هاماً في الثورة عام ١٩٥٢ مثل صلاح سالم، كمال الدين حسين، زكريا محيى الدين.

يمكننا ملاحظة أن صلة جمال عبد الناصر بعبد الحكيم عامر مختلفة فالعلاقة بينهما أعمق وأوثق وصداقتهما ليست مجرد صداقة شخصية بل تبدو عائلية أيضاً فعبد الحكيم عامر هو الذى يقوم خلال حصار جمال عبد الناصر في الفالوجة بالاتصال بأسرته ومعرفة أحوالهم ثم يطمئن جمال عبد الناصر على زوجته وابنتيه(هدى، منى) لم يكن جمال عبد الناصر وقتها أنجب أبناءه الذكور الثلاثة (خالد، عبد الحميد، عبد الحكيم).

وعلى امتداد اليوميات يمكننا رصد مدى ارتباط جمال عبد الناصر بأسرته الصغيرة زوجته تحية وطفلتيه (هدى، منى) فهو مشغول البال دوما بأحوالهن وبمستقبلهن ودائم

السؤال عنهن والاتصال بهن كلما سنحت له الفرصة، بل أنه فور إصابته برصاصة فوق قلبه يفكر فيهن على الفور.

ولكن ليس هذا هو المهم فارتباط جمال عبد الناصر بزوجته وأبناءه بوجه عام وتعلقه بأسرته الصغيرة معروف، ولكن اللافت للنظر هو عمق صلته بوالده فهو حريص على الاتصال به والاطمئنان عليه وإرسال الخطابات له واستلام خطابات منه أيضاً، يبدو هذا ملفتا فقد أثيرت أقاويل كثيرة وسال حبر أسود كثيف على الورق عن سوء علاقة جمال عبد الناصر بوالده واتسامها بالتوتر الدائم وتأثير ذلك على تكوين جمال عبد الناصر النفسي والشخصي منذ تزوج والده من سيدة أخرى السيدة "عنايات الصحن"، عقب وفاة زوجته الأولى السيدة "فهيمة محمد حماد" والدة جمال عبد الناصر، وأشاع خصوم جمال عبد الناصر أنه كان مصابا بعقدة أوديب يحب أمه ويكره والده، بينما يتضح من اليوميات التي خطها الضابط جمال عبد الناصر وقد تجاوز الثلاثين من عمره بقليل أن ذلك غير صحيح فعلاقته بوالده تبدو طبيعية وحميمة وليس والده فقط بل بعمه أيضاً، وإن كان لم يذكر اسم هذا العم وأرجح أنه عمه خليل، وكذلك

أخيه عز العرب عبد الناصر فهو على اتصال به عبر الخطابات، وكذلك نجد اتصال من جمال عبد الناصر لشخص يدعى "عبد الحميد" يوم ٩ سبتمبر ١٩٤٨ يبلغه أن إجازته تأجلت ويطلب منه إعلام الأسرة، وأعتقد أنه عبد الحميد كاظم الشقيق الأكبر للسيدة "تحية" زوجة جمال عبد الناصر وكانت علاقته بجمال عبد الناصر وطيدة رغم أنه كان رافضا في البداية لزواج أخته تحية منه، وقد توفى عبد الحميد كاظم مبكرا بسبب مرض الدرن، وسمى جمال عبد الناصر ثاني أبناءه الذكور عبد الحميد على اسمه، كما يرد اسم "السيد يوسف" عديل جمال عبد الناصر في دفتر اليوميات والذى **كان ناظراً لمدرستي المنيا الثانوية والمنصورة الثانوية وبعد ذلك أصبح رئيساً لديوان الموظفين ثم وزيراً للتربية والتعليم** كصلة اتصال مع أسرته، وهكذا فعلاقات جمال عبد الناصر بأسرته تبدو طبيعية للغاية بدون عقد نفسية توهمها خصوم جمال عبد الناصر.

في يوم ٢٣ أغسطس ١٩٤٨ يكتب جمال عبد الناصر معبرا عن صدمته البالغة لمقتل الضابط أحمد عبد العزيز قائد المتطوعين في حرب فلسطين برصاصة خاطئة – نيران صديقة

كما يقال الآن- فقد أطلقت عليه رصاصات خاطئة من القوات المصرية لاعتقادهم أنه من الجانب الإسرائيلي.

كتب جمال عبد الناصر "لقد تألمت جدا فإن احمد عبد العزيز كان يحب أبناءه، وكان في عز مجده الذى لم يجاز عليه، ولم يره الشعب، ولم يستقبله، مات أحمد عبد العزيز وكله أمال في الحياة، لقد تألمت جدا لهذه الآمال التي انهارت كان آخر ما قاله لصلاح سالم".

تبدو هذه الكلمات صادقة ومعبرة عن حزن جمال عبد الناصر على البطل الراحل وهى تهمنا على وجه الخصوص لكونها أبلغ رد على بعض الكتب المشبوهة التي أصدرها خصوم جمال عبد الناصر فيما بعد واتهموا فيها جمال عبد الناصر بقتل أحمد عبد العزيز !!

إلى هذا الحد بلغ الاستخفاف بالبعض أن يستبيحوا التاريخ لإلصاق فرية قذرة كتلك بجمال عبد الناصر في إطار سعيهم لاغتيال شخصيته وتشويه سيرته.

وعبر صفحات دفتر اليوميات سنجد اللقاء بالإسرائيليين وسنلحظ أن جمال عبد الناصر يصفهم دوماً باليهود أو بالعدو وليس بالإسرائيليين.

يطلب العدو تحديد لقاء مع قيادة القوات المصرية المحاصرة في الفالوجة يتم إرسال جمال عبد الناصر من قبل القيادة المحاصرة لتحديد مكان اللقاء وبالفعل يتم اللقاء في مستعمرة جات اليهودية حيث توجه من الجانب المصري السيد طه، ورزق الله الفسخاني، وجمال عبد الناصر، وإبراهيم بغدادي، وخليل إبراهيم إلى مستعمرة الجات، وتنتهى المفاوضات بينهما بالفشل لرفض الجانب المصري الاستسلام، ورفض اليهود إخلاء الجرحى إلى غزة.

وهكذا لم يكن اللقاء منفردا بين جمال عبد الناصر والضباط الإسرائيليون ولم يتفق معهم على شيء ولم يخطط معهم لثورته كما كتب الإخوان بغزارة في أدبياتهم عن صلات ولقاءات جمعت جمال عبد الناصر بالإسرائيليين خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨.

كان جمال عبد الناصر ضابطا ضمن وفد تفاوضي وقد فشل التفاوض، يرصد جمال عبد الناصر خلال زيارته لمستعمرة الجات الفوارق الحضارية بين اليهود والعرب والمدنية والرخاء الذى يتمتع به اليهود خلال حياتهم بالمستعمرة مقارنة بأوضاع العرب البائسة.

على امتداد صفحات اليوميات يبدو جمال عبد الناصر غاضبا وساخطا على الأوضاع التي يعانى منها الجيش المصري في الحرب، واتهاماته دائمة للقيادة العسكرية بالتخبط والجهل بل أنه يتهمها بأنها سبب كل المصائب وأنه لا توجد قيادة للجيش المصري في فلسطين من الأساس فهي قيادة عاجزة لا تملك خطة ولا احتياطي همها الوحيد هو الهرب والنجاة بعيدا عن المعركة وإطلاق تصريحات وبيانات كاذبة عن انتصارات وهمية لم تحدث.

تبدو تلك الكلمات مريرة وتحتاج لتعمق في قراءتها فالضابط جمال عبد الناصر عانى من ذلك هو وكل القوات المصرية المحاربة في فلسطين ولكن لسوء الحظ تكررت مثل تلك الأخطاء بحذافيرها تقريبا بعد ١٩ عاماً أثناء حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ وكأننا لم نتعلم شيء، وربما كان هذا أكثر ما حزَّ في نفس جمال عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧ أن يشهد نفس المأساة مرتين، ومؤكد أن ذلك كان دافعه بعد أن قضى على محاولة انقلاب المشير عبد الحكيم عامر بعد النكسة للقيام بإعادة بناء القوات المسلحة المصرية من الصفر وخوض حرب الاستنزاف بها في ظروف بالغة الصعوبة حتى

تمكن بعد ثلاث سنوات من الهزيمة أن يحقق المعجزة ويقيم بسواعد الأبطال من المصريين أكبر حائط صواريخ في العالم وقتها ويبنى جيش المليون من الجامعيين ويصدق على خطط العبور والتحرير ولكن شاءت الأقدار ألا يشهد جمال عبد الناصر بعينيه النصر الذى صنع كل مقوماته، فقد خانه قلبه وتوقف عن النبض في يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ هذا اليوم الأسود في تاريخنا.

تظهر بوادر الصمود والتحدي الكامنة في شخصية جمال عبد الناصر والتي ستكون من علامات عهده فيما بعد على صفحات اليوميات وتحديدا يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٤٨، فالطائرات الإسرائيلية تمطر القوات المصرية المحاصرة في الفالوجة بالمنشورات التي تطالبها بالاستسلام يكتب الضابط جمال عبد الناصر معلقا على ذلك "كلام فارغ قابله الجميع بالسخرية، فبالرغم من أننا محاصرون من يوم ١٦، وبالرغم من طلبنا تعيينات وذخيرة بواسطة الطيران، وبالرغم من أن طلباتنا لم تجب، ولم يلتفت إليها، فسنقاوم إلى أخر رجل".

أنها روح التحدي والمقاومة المطبوعة في شخصيته والتي قاد بها أمته طيلة ١٨ عاما مجيدة في تاريخها ولم تفارقه في لحظات الهزيمة.

كما تبدأ فكرة الثورة تنبت في عقله، فما يعانيه الجيش المصري هو من صنع القيادة العسكرية الفاشلة وقيادة البلاد العاجزة فيكتب "لقد فقدنا الإيمان في قيادة الجيش وقيادة البلاد، هؤلاء المضللون الممثلون، ماذا عملوا بعد أن دخلنا الحرب؟ لا شيء".

أنها بذور الثورة التي أينعت بعد أقل من أربع سنوات من الهزيمة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨.

يبدو الضابط جمال عبد الناصر في يومياته الشخصية مدركا لطبيعة الصراع مع العدو الصهيوني مدركا لقوة العدو وتفوقه وكونه جزء من الغرب مزروع في الوطن العربي، كما نلحظه حزيناً على مستقبل الفلسطينيين ومتأثراً لما سيحيق بهم من جراء الهزيمة وانسحاب الجيوش العربية من فلسطين، وقد ظل هذا الإدراك يحكم سياساته طيلة عهده فقد رفض أي حل جزئي منفرد لا يرجع للشعب الفلسطيني حقه في أرضه المسلوبة.

تمثـــل هذه اليوميـــات الشخصـــية للضـابط جمـال عبد الناصر في حرب فلسطين وثيقة تاريخية نادرة تلقى أضواء كاشفة على شخصية أهم عربي في التاريخ الحديث، وفضلا عن أهميتها لكون جمال عبد الناصر كاتبها، فأن صدقها هو الأهم نحن أمام ضابط شاب يخوض حربا في ظروف غير مواتية ثم يحاصر وهو خلال كل ذلك حريص على تدوين يوميات شخصية له، يعبر فيها عن حقيقة مشاعره وما يشغل باله وهو لا يدرى إن كان سيقرؤها أحد غيره بل ولا يدرى إن كان هو ذاته سينجو من الحرب أم لا؟!

لقد كان جمال عبد الناصر أحد أبطال حرب فلسطين عام ١٩٤٨، فقد دخلت الكتيبة السادسة من الجيش المصري التي كان يشغل منصب رئيس أركانها فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨، وقد أصيب بالرصاص مرة قبل حصار الفالوجة، وقد حصل على نجمة فؤاد العسكرية لشجاعته، وكان بين أفراد القوات المصرية التي حوصرت في الفالوجة بدء من ٢١ أكتوبر ١٩٤٨، وأصيب خلال الحصار مرتين وكاد أن يفقد حياته.

كانت حرب فلسطين وفساد الإدارة السياسية والعسكرية المصرية وحصار القوات المصرية في الفالوجة هي الأسباب الرئيسية التي دعت جمال عبد الناصر للبدء في الإعداد للقيام بالثورة، فقد رأى جمال عبد الناصر أن الحل لمأساة مصر يتلخص في الإطاحة بنظام الحكم الفاسد الذى قاد البلاد إلى الهزيمة، وكذلك التخلص من الاحتلال البريطاني، ومن هنا فإن الجيش الذى فشل في الاستيلاء على فلسطين قرر الاستيلاء على القاهرة.

ستظل تلك اليوميات الشخصية لجمال عبد الناصر وثيقة بالغة الأهمية عن شخصيته وتكوينه وهى تمثل خطوة على الطريق لفك مفاتيح تلك الشخصية بالغة التفرد التي حبا الله بها الزعيم الخالد.

عمرو صابح



يوميات جمال عبد الناصر الشخصية
في حرب فلسطين

الخميس ٣ يونيو:

وصلت إلى غزة ك٣- ك٤.

قابلت شفيق معوض.

ذهبت إلى أبو عوف.. وبلغني أن محمود بك لبيب موجود في معسكر المتطوعين.

ذهبت إلى هناك مع أبو عوف... ولكن لم أجده.

وفي الطريق إلى غزة قابلته مع الشيخ فرغلى.

اتفقنا على أن نصلي الجمعة سويًا في معسكر المتطوعين..

في الساعة ٢٠٠٠ سمعنا إطلاق النار في قطاع (السرية ٢).. وظهر أنهم اشتبهوا في تقدم قوات معادية.

الجمعة ٤ يونيو:

كنت أستعد للذهاب إلى محمود بك لبيب عندما صدرت أوامر بالتحرك من غزة إلى أسدود لغيار الكتيبة التاسعة.

تعينت قائدًا لجماعة الاستكشاف.

تحركت الساعة ١٣٣٠.. مريت على دير سنيد لأخذ جماعة هاون وجماعة ٦ رطل لنا هناك.

مريت على المجدل.. وصلت أسدود الساعة ١٦٠٠.

قابلت عبد الحكيم والرحماني بك..

مريت مع عبد الحكيم على المواقع الدفاعية.. وكان الدفاع غريبًا جدًا فهو أشبه بالنقط الخارجية.

لا يوجد احتياط مطلقًا من الفصيلة إلى اللواء.

الجماعات على خط واحد.. فواجهة الكتيبة حوالي ٤ كيلو.

قابلت خليف وهين ومصطفى حامد.. وكان كل شيء هادئًا..

عرفت من عبد الحكيم: أن هذا الهدوء نادر، وإن الوضع الدفاعي عبارة عن دائرة من كتيبتين تحيطهما المستعمرات من كل جهة تقريبًا. وأن المناوشات الليلية مستمرة.. وحكى لي عن هجوم اليهود ليلة ٢-٣ يونيو بقوات كبيرة والخسائر التي تكبدوها.

وذهبت إلى محل الهجوم.. وكانت الرائحة لا تُطاق.. والمخلفات التي تعبّر عن العار.

وهذه النقطة هي أقصى ما وصل إليه الجيش حتى الآن شمال أسدود.

إن الخط الدفاعي ليس به عمق ولا احتياط وهو عبارة عن موانع نقط خارجية فيه ثغرات تسمح بالتسلل، ولا يوجد أسلاك أو أي تحصينات سوى الحفر.

السبت ٥ يونيو:

وصلت الكتيبة السادسة الساعة ١١٠٠.. وقابلها أحد الضباط عند أول أسدود واستلمت محلاتها.. وقد بلغنا القائد والضابط: أن الموقف هنا يختلف جدًا عن غزة..

فنحن محاطون بالمستعمرات من جميع الجهات، ونشاط العدو ملحوظ.

وبقيت في مركز رئاسة الكتيبة في إحدى الحدائق المجاورة للطريق..

واستمر كل شيء هادئًا..

الساعة ١٨٣٠ حين بدأت مدفعية العد تصب نيرانها فجأة على الحديقة.. وكانت القنابل تسقط في مواضع متفرقة.. وابتدأ الضرب حين كنت جالسًا مع جاد بك الذي

كان يلبس البيجامة، ويجلس على السجادة.. وفوجئنا بصفير فوق رؤوسنا تبعه انفجار قريب رج أرض الحديقة.

وكانت مفاجأة وجرى كل منا إلى حفرته.

وكنت مع محب، وكمال بشارة في حفرة واحدة.

واستمر الضرب حتى بلغ عدد القنابل اثنتين وعشرين.. وكانت جميعها تسقط قريبة ولكن لم تحصل أي إصابة.

وتبع ذلك عواء الذئاب التي يعتقد أنها أصوات اليهود.. وتبعه إطلاق النيران.

وتلاحظ أن طلقات نارية تضرب من كل مكان قريب منا جدًا.

وأخرجت دورية لتفتيش الحديقة..

وفجأة حوالي الساعة ٢١٠٠ بدأ الخط بفتح نيران وطلب العوضي نيران نجدة في المدفعية.

وبلغني أن ذخيرة الهاون (٦٧) نفذت..

وطلبت من المدفعية نيران نجدة فأعطتها في الحال.

وبلغني العوضي أنه يرى أنوارًا متحركة أمامه..

وعرفته أن ذلك ربما يكون الغرض منه استهلاك ذخيرتنا.. وإني لن أستطيع أن أرسل له ذخيرة في أثناء الليل. وفعلاً كان الإسراف شديدًا في الذخيرة.. ولم يطمئن الجنود إلا بعد إطلاق ذخيرة كاشفة. ورؤيتهم أنه لا يوجد عدو مطلقًا..

الاثنين ٢٨ يونيو:

وصل أمر إنذاري بالاستعداد للهجوم يوم ٢٨ ومؤتمر يوم ٢٩ الساعة ١٠٠٠.

الثلاثاء ٢٩ يونيو:

حضرنا المؤتمر.. كان عبارة عن عدة مؤتمرات..

واحد بخصوص التأمين الاجتماعي.. وواحد بخصوص طلبات لإدارة الجيش..

حضره الشاذلي الذي كان في منتهى الوقاحة إذ قال: إن أي ضابط في المدفعية أحسن من بتوع المشاة الذين أظهروا الجبن.. وقوبل بثورة من الجميع.

وقال له أحد الموجودين: قبل ما تتكلم تعال امسك سرية.. وقال نعمة الله بك... إن عساكر وضبط المشاة بيهجموا على المواقع اليهودية بالقميص، وبدون أي أسلحة

مدرعة... الأمر الذي لم تسمع عنه.. والحقيقة أن موقف الشاذلي كان في غاية السخافة.

الأربعاء ٣٠ يونيو:

حضر عبد الحكيم وثروت.. وتكلمنا بخصوص الجواب المطلوب إرساله لمصر.. وأخبرتهم أني أرسلته فعلاً بالأمس مع عبد الله مهدي.

تكلمنا مع الوالد وتحية، بالتليفون الساعة ١٥٣٠.. وكانت تحية تكرر السؤال دائمًا عن ميعاد العودة الذي لا يعلمه إلا الله..

في الساعة ١٦٣٠ حضرت مع جاد بك مؤتمر لشرح الخطة المقبلة على تختة الرمل.

وكان يشرح الأرض جبر، ويساهم في ذلك رزق الله الفسخاني، ونعمة الله بك..

وأخيرًا تكلموا عن الخطة..

أما الوقت، فهو عبارة عن تكرار لليوم السابق: صحيان الساعة ٦٠٠ وشغل مرور وبوستة حتى الساعة ١٣٣٠، ويشمل ذلك الكتب ثم الغذاء..

وبعد ذلك حتى الغروب تكملة الأعمال المطلوبة.. والنوم الساعة ٢٢٠٠.

الخميس أول يوليو:

خرجت مع القائد في الصباح للاستكشاف من تبة المغناطيس، ولكن لم نتقدم عن التبة..

وطلبت منه الخروج باكر للاستكشاف مع ضابط المخابرات وضابط الحمالات.

الجمعة ٢ يوليو:

خرجت الساعة ٧٠٠ مع حسن رأفت وإسماعيل محيي الدين للاستكشاف ومعنا مدفعان برن وثلاثة تومي وتوجهنا إلى تبة الفنطاس.

وقابلنا ضابطًا سودانيًا، وعرفناه عن اتجاهنا وتوجهنا.

وقابلنا عربيين، وأخذناهما معنا.

وتوجهنا بالعربية إلى مكان مزروع بالذرة خلف تبة..

وتركنا العربة وتوجهنا إلى (النبي صالح)..

وأشرفنا من هناك على (كامب جوليس)، وكان غرضنا استكشاف الصوافير الغربية، ولكن لم أتمكن من رؤيتها..

وبلغنا العربي الموجود معنا أن اليهود موجودون بالجنينة شمال النبي صالح... ففتشناها، ولم نجد بها يهودًا..

وكنا في موقع بين الكامب وبيت دوراس.

وبعد مدة طويلة تبلغ ساعتين... عدنا إلى العربة.

وعندما ركبنا العربة... بلغني إسماعيل أن التبة التي خلفنا عليها يهودي..

وركب الجميع، وتحركت العربة.

وبلغني إسماعيل: أن العد زاد وأصبح حوالي خمسة عشر..

وتحركنا في وسط التبة وخرجنا بسلام..

السبت ٣ يوليو:

ذهبت مع القائد وقواد السرايا إلى تبة المغناطيس لشرح الأرض..

وتوجهنا إلى البيت الأبيض قرب التبة.

الأحد ٤ يوليو:

حاولت الكلام بالتليفون ولكن الخط كان مشغولاً.

وتكلمت الساعة ١٩٠٠ ولكن لم يرد أحد.

الاثنين ٥ يوليو:

علمنا أن جلالة الملك سيزور المواقع غدًا.

الثلاثاء ٦ يوليو:

حضر صاحب الجلالة الملك للمرور على المواقع، ووصل إلى أقصى المواقع الأمامية الساعة ٧٣٠.

خرجت للاستكشاف (معسكر جوليس) ومعي حسن عثمان والفيومي ولبيب وثابت ورأفت وكمال بشارة ويسري..

وتوجهنا مع النبي صالح والتبة الموجودة جنوبه..

واستكشفنا المعسكر جيدًا.. ووجدنا دشمة مبنية خلف المعسكر القديم.. ورأينا مصفحتين خلف المعسكر متجهتين إلى الجنوب..

واستمر الاستكشاف من الساعة ١٥٠٠ إلى الساعة ١٨٠٠..

وعدنا بسلام، وكنا على مسافة ١١٠٠ ياردة من المعسكر..

الأربعاء ٧ يوليو:

طلب القائد لحضور مؤتمر يرأسه اللواء..

تكلمت مع تحية بالتليفون حوالي الساعة ١٧٠٠..

وقبل الكلام بالتليفون... حضر مراسلة يطلبني لمقابلة القائد..

ذهبت... فوجدت أن الأوامر صدرت للكتيبة السابعة بنقض الهدنة ليلة ٧-٨.. ومهاجمة بيت دوراس في عملية ليلية.. يقوم بها السودانيون..

شظايا قرب القلب

الخميس ٨ يوليو:

كانت أخبار الغارة على بيت دوراس سيئة جدًا: فإن القوات السودانية استطاعت التسلل والدخول إلى البلدة. وبدلاً من أن يقوم القائد بإطلاق إشارة النجاح... أرسل إشارة طلب النيران الدفاعية فأطلقت المدفعية نيرانها على القوات، ولم يحصل أي تعزيز..

وعاد السودانيون بعد أن أُسر قائدهم، وتكبدوا بعض خسائر.. ولكن بعد أن ذبحوا عددًا كبيرًا من اليهود..

الجمعة ٩ يوليو:

وصلنا أمر إنذاري الساعة ١٤٠٠.. الكتيبة تستعد للهجوم. تسلم المواقع الدفاعية..

الغرض جوليس... يتم الاستكشاف قبل المساء..

توجهنا لاستكشاف الساعة ١٦٠٠..

ودخلت ومعي إسماعيل ورأفت وبشارة إلى آخر جنينة تشرف على جوليس..

وقمنا بعمل رسم للبلدة.. عملنا خطة للهجوم، وكان جاد بك يعتد برأيه..

وكانت الخطة.. سرية نيران وسرية تتقدم من الغرب وسرية من الجنوب وسرية احتياط.

السبت ١٠ يوليو:

تحركت الكتيبة إلى منطقة التجمع الساعة ٧٠٠، وأعطى القائد الأوامر الساعة ٩٣٠، وحدد ساعة الصفر الساعة ١١٠٠.

وبدأت العملية، وكنت في مركز الرئاسة في عربة اللاسلكي مع جاد بك وبشارة وكمال عبد الحميد..

استمر التقدم بانتظام. ولكن القائد فقدَ أعصابه..

طلب التقدم، وعاد وطلب تغيير محل الرئاسة إلى طريق عراق سويدان..

وتقدمت الرياسة، وتركها القائد وطلبني لأقدم جماعتين هاون لأساعد السرية الأولى..

تقدمت ومعي عيسى سراج الدين، ضابط المراقبة الأمامي..

وكانت تطلق علينا مدافع الماكينة وتمر فوق الرأس..

وعدت إلى مركز الرئاسة فلم أجد القائد، ووجدت طلبات من السرايا تريد الإجابة عليها..

السرية الأولى، تطلب ذخيرة.. وتطلب إخلاء الجرحى..

السرية الثانية، فقدت اتجاه فصيلتين..

السرية الثالثة، فقدت اتجاه فصيلتين..

السرية الثالثة، لا ترد..

السرية الرابعة، وصلت إلى غرضها..

وعندما بدأت أرد على طلبات هذه السرايا.. علمت أن إسماعيل محيي الدين توفي وهو داخل الحمالة وأن اليهود يستعملون ٢٠مم..

وصلني مراسلة راكب يقول: إن القائد يطلب سحب

الكتيبة إلى الجناين.. وأنه موجود عند بعض السـرايا الاحتياطية..

طلبت قائد اللواء بالتليفون فطلب مني أن أبقى في مواقعي..

ولكن وصلني مراسلة، وأخبرني أن القائد سحب جميع السرايا ما عدا السرية الأولى، وأنه طلب سحبها..

أخبرت اللواء بذلك، وعملت ترتيب سحب السرية، وتم الانسحاب بخسائر قليلة..

وكانت الخسائر ١٥ قتيلًا و٣٠ جريحًا.

الأحد ١١ يوليو:

اتخذت الكتيبة موقعًا دفاعيًا حول محطة التجارب.. وقضينا الليلة هناك.

وفي الصباح وصل أمر للكتيبة باحتلال جوليس اليوم.

وعزل جاد سالم من القيادة..

وتسليم الكتيبة لحسين كامل..

كان حال الكتيبة لا يشجع أي هجوم..

توجهنا للمجدل، وأفهمناهم حال الكتيبة..

وصل أمر لنا باحتلال تقاطع عراق سويدان- المجدل- كوكبة- جوليس..

ذهبت مع قائد اللواء، وأركان حرب اللواء، وقائد الكتيبة، وقادة السرايا.. وغيرنا سرية من ك٩ غرب نجبة..

وطلب منا وضع سرية على تقاطع الطرق: نجبة- جوليس.. وسرية على تقاطع الطرق عبديس- جوليس..

احتل لبيب محله بعد السرية الموجودة تحت نيران المدفعية..

وتواجدت مع السرية الثانية غرب نجبة..

وكانت نيران مدافع الماكينة من نجبة تتناثر حولي والمدفعية تسهل الطريق بين السرية الثانية والرابعة..

عدت إلى تقاطع عراق سويدان.. فوجدت أن سرية حسني (السرية الأولى) لم تتحرك وأن حسني لم يعد من استكشافه..

وعاد حسني في حالة عصبية، وأخبرني أن اليهود فتحوا عليه نيرانًا. وأن الحمالات تركته وأنه لا يستطيع أن يحتل محلاته الآن.. فاتفقنا على أن يحتل محلاته قبل أول ضوء.

وكان في حالة يُرثى لها ويقول: إنه لا داعي لاحتلال هذه المواقع..

وعدته أن أذهب في الصباح إلى الموقع..

الاثنين ١٢ يوليو:

توجهت مع السرية الأولى إلى محلاتها عند تقاطع الطريق جوليس– عبديس..

وكان الموقع مغمورًا بالنيران من التباب غرب عبديس..

واتخذت السرية مواقعها تحت النيران..

واستترت مع عبد العزيز في حافة الطريق..

وكان الرصاص يتساقط حولنا.

بعد أن استقرت السرية حوالي الساعة ٦٠٠ في محلها ركبت حمالة، وعدت إلى السرية الرابعة، وقد تعطلت الحمالة..

ذهبت إلى السرية الرابعة، وكان يطلق على مواقعها نيرانًا أوتوماتيكية من نجبة..

وكان الرصاص يمرّ فوق رؤوسنا..

ووصل سامي ياسين إلى موقع السرية، وطلب مني أن نذهب إلى السرية الأولى فذهبنا، وكانت النيران قد تزايدت على مواقع السرية..

وحاولنا معرفة مواقع العدو ولكنها كانت مختفية فاستترنا خلف إحدى الحمالات..

ثم ركبت مع سامي حمالة وتوجهنا إلى المحلات التي يُطلق علينا منها.. ولكن لم نتمكن من تمييز محلها.. وعدا ولكن لاحظت أن هناك دمًا يتساقط على القميص..

فسألت الجاويش عبد الحكيم، الذي أخبرني أن هناك جرحًا بسيطًا في ذقني..

ثم قمت مع سامي للعودة...

فقام العدو بإطلاق نيران شديدة على الحمالة..

فشعرت أني أصبت في الصدر من الجهة اليسرى..

ونظرت فجدت أن الدماء تبلل القميص حول الجيب الشمال وأن القميص به خرم متسع..

وكان محل الإصابة يظهر في منتهى الخطورة.. فوق القلب.. فأخبرت سامي الذي أخذني إلى محطة الغيار الأمامية..

وقد كان منظر الجرح يدعو إلى القلق، ولكن عندما فحصه الطبيب قال: إنها شظية وليست رصاصة.. ونُقلت في الحال إلى مستشفى المجدل.

ودخلت غرفة العمليات. وبالفحص، وُجد بالجرح شظيتان صغيرتان أخرجهما الدكتور وخيط الجرح.. وقد ارتفعت روحي المعنوية وحمدت الله فأول ما خطر على بالي عند الإصابة كان الأولاد وأمهم.. والحقيقة إنه عندما عرفت محل الإصابة... فقدت الأمل في النجاة ولكن الله كريم..

الثلاثاء ١٣ يوليو:

عُدت إلى الكتيبة حوالي الساعة ١١٠٠ وكانت حالتي متعبة إلى حد ما.. ولكن كان لابد لي من العودة وكان عمل الكتيبة في يدي..

كانت السرية الأولى في موقف حرج..

وفي الساعة ١٣٠٠ صدر أمر بسحبها..

وتوجهت مع ضابط المراقبة إلى محل السرية (الذي أصبت فيه بالأمس) لإعطاء مساعدة لها وعمل إشارة دخان.

وكان الجنود المشاة قد انسحبوا فعلاً أما ٦ رطل فكان في محله..

وكان هناك حسن عثمان والفيومي وحسني..

بعد تسجيل الأغراض... عدت إلى مركز الرئاسة..

وكلمني الفيومي بالتليفون وقال: إن اليهود هجموا خلاص.. رحنا خلاص..

وانقطعت المكالمة..

اتصلت بلبيب (س٤) وطلبت منه إرسال فصيلة وجماعة م م لستر انسحاب الفيومي وحسن عثمان.. وعاد لبيب وقال: إنهم انسحبوا وسحبوا مدفعًا وتركوا مدفعين أخذوا ترابيسهم.

ووصل حسن والفيومي في حالة يُرثى لها..

عندهم صدمة عصبية، ونقلوا للمستشفى.

الأربعاء ١٤ يوليو:

سقطت قنابل على مركز الرئاسة فقتلت أربعة وأصابت ثلاثة..

واستمر سقوط القنابل..

فطلبت من المدفعية ضرب المكان الذي أعتقد أن المدفع به.. فسكت.

بلغتني س٢ إن: اليهود يحتفلون الآن مكان س١.. فعملت على ضرب هذا المكان بالمدفعية..

صدر أمر بتغييرنا بالكتيبة التاسعة..

ونقل الكتيبة إلى القشلاق الإنجليزي جنوب شرق نيتساليم.

استلم مني رؤوف محفوظ سرية إلى أسدود..

الخميس ١٥ يوليو:

سرية توجهت إلى تقاطع طرق عراق سويدان..

هجمت ك٣ على (بيرون إسحاق)..

بعد أن دخلت المستعمرة لم تؤمَّن الطرق فحصل هجوم مضاد..

أرسلت سرية من ك٦ لإنقاذها.. ولكن وصلت متأخرة وعادت..

وبلغني لبيب أن العويس، توفي وأن شفيق معوض حالته خطرة.

مجلس الأمن قرر وقف القتال في إذاعة المساء.

الجمعة ١٦ يوليو:

س٤ – اتخذت مواقع دفاعية جنوب تبة المغناطيس..

س١ توجهت إلى اللواء الثاني..

هجوم من اليهود على طول الجبهات أثناء الليل وتم رده خاسرًا..

السبت ١٧ يوليو:

علمت بوفاة فيليب بقطر في موقعه أمس بالكتيبة الخامسة.

أوقف القتال نهائيًا بالقدس..

التقطت إشارة أن العدو حول ستة آلاف مدد أمام أسدود.

الأحد ١٨ يوليو:

صدرت أوامر بإيقاف القتال الساعة ١٧٠٠..

كانت السرية الأولى تقوم بعملية تثبيتية عند جوليس..

وكانت السرية الثانية تقوم مع قوات أخرى بالهجوم على كراتية لفتح الطريق إلى الفالوجة..

في الساعة ١٧٢٠ فوجئنا بمعركة في الجو بين خمس طائرات سقطت إحداها فوق خطوطنا.. اعتقدنا أنها يهودية، ولكن ظهر أنها مصرية بقيادة الجنزوري فاجأتها ثلاث طائرات يهودية بعد الهدنة.

الاثنين ١٩ يوليو:

زارني ثروت عكاشة ووحيد حلمي..

السبت ٢٤ يوليو:

ابتدأ الملل يسري في دمائنا..

الحالة اليومية متكررة..

الواحد بدأ يقرف من كل شيء ولا يعمل شيء..

الأحد ٢٥ يوليو:

مرور المواوي على الخط الدفاعي.. الذي لم يمر عليه مطلقًا قبل الآن إلا مع جلالة الملك..

يمر عليه الآن بعد انتهاء القتال..

كان في منتهى السماجة والغرور والجهل..

كل ملاحظاته تقريبًا غلط..

الراجل نسي نفسه وركبه الغرور..

كان يقول مبادئ ١٠٠ سنة هدمتوها..

وبيتكلم في النقط الهايفة..

ولم يرتد ثوب القائد الذي يكلم جنوده بعد معارك أصيبوا فيها خسائر جسيمة وصمدوا..

كلمني عبد الحكيم وأنا أمر مع المواوي فلم يجدني..

قال إنه سيتكلم في المساء..

لم أستطع الكلام مع المنزل..

اتصل بي عبد الحميد الساعة ٢٣٠..

ولكن لم أستطع الكلام معه إلا الساعة ١١٠٠..

وكلمني حمدي عاشور..

زارني عبد المنعم والمنشاوي..

الأربعاء ٢٨ يوليو:

قام اليهود بنقض الهدنة في الساعة ١٠٠ عند الفالوجة وكان إطلاق النار مستمرًا حتى الصباح..

وعلمت أنهم أرادوا المرور إلى المستعمرات الجنوبية فحاولت القوات منعهم وحدث اشتباك..

وفي الصباح، بدأت المدفعية تشترك في المعركة ثم اشترك الطيران..

ويقال إن خسائر اليهود كثيرة..

واستمرت المعركة حتى الغروب.

وصلني جواب من حسن إبراهيم..

قدمت طلب إجازة من ٢ إلى ٦ أغسطس..

كلمت تحية في التليفون..

غيّرت رتبة اليوزباشي برتبة الصاغ..

الاثنين ٢٣ أغسطس:

علمت اليوم خبرًا لم أصدقه لأول وهلة..

إن أحمد عبد العزيز قُتل أمس عند عودته من بيت لحم..

وتفصيل الأمر أن أحمد عبد العزيز وصلاح سالم والورداني عادوا بعد مؤتمر العرب واليهود بالقدس لمقابلة المواوي..

وعندما اقتربوا من عراق المنشية حوالي الساعة ٢٠٠٠ فُتحت عليهم نيران من المواقع المصرية..

فكان أحمد عبد العزيز هو الضحية..

ولقواتنا بعض العذر، فإن اليهود يخرقون الهدنة يوميًا في هذا المكان... محاولين العبور إلى المستعمرات الجنوبية..

لقد تألمت جدًا فإن أحمد عبد العزيز كان يحب أبناءه..

وكان في عز مجده الذي لم يجاز عليه، ولم يره الشعب ولم يستقبله.

مات أحمد عبد العزيز وكله أمل في الحياة..

لقد تألمت جدًا.. لهذه الآمال التي انهارت..

كان آخر ما قاله لصلاح سالم..

الأربعاء ٨ سبتمبر:

تكلمت مع تحية في التليفون، وبلغتها أني سأحضر يوم ١٠ بعد بكرة..

طلبني اللواء تليفونيًا.. وطلب مني أن أذهب وأقابله..

وبلغني في المقابلة طلب رئاسة القوات بأن أتواجد مع القائد وقائد اللواء وأركان اللواء الساعة ٨٠٠ باكر..

الخميس ٩ سبتمبر:

ذهبت لرئاسة القوات وطلبوا من الكتيبة احتلال خط عراق المنشية- بيت جبرين..

اتصلت بعبد الحميد، وبلغته أن إجازتي تأجلت..

وقمت مع صلاح سالم إلى عراق المنشية..

وصلت السرية الأولى.. احتلت خربة الأمير..

رأيت محل الكمين الثاني (الذي) عمله تهامي، وأثر العربات اليهودية التي نسفت..

كانت ك١ في عملية لاسترداد أبو جابر..

توجهت مع صلاح إلى بيت جبرين..

الجمعة ١٠ سبتمبر:

تركت معسكر نيتساليم إلى عراق الأمير..

وصل لبيب واحتل عراق المنشية..

السبت ١١ سبتمبر:

وصل المواوي باشا لعراق المنشية وذهبت معه إلى بيت جبرين..

وعدنا سويًا.. وكان يطلب تعديل الدفاعات في عراق المنشية..

الأحد ١٢ سبتمبر:

الحمد لله..

دخلت في حقل ألغام بنوع الخطأ.

فبعد استكشاف عراق الخراب مع عبد الفتاح فؤاد وعبد العزيز كامل طلب السير في طريق غزة بير سبع.. وقد عارضته لأني أعرف أن في هذا الطريق ألغام.. ولكنه صمم على السير..

وجدت فجأة أن العربة وسط الألغام الموجودة خلف عراق الأمير ومنسوف فيها لغمان وآثار عربات اليهود حولنا..

رفعنا محلينا..

وخرجنا بعون الله..

ذهبت للمجدل لأكلم تحية..

كلمتها الساعة ١٧٠٠..

وقابلت عبد الحكيم..

وفي العودة اصطدمت بعربة من ك١..

ولكن الله سلم..

كنت مسرعًا حتى أصل بيت جبرين قبل الساعة ١٨٠٠.

وصلت الساعة ١٨٠٠ والحمد لله..

الجمعة ١٧ سبتمبر:

سافرت في الإجازة في قطار الساعة ٦٢٠ في غزة.

الأربعاء ٢٢ سبتمبر:

عدت بعد انتهاء الإجازة الساعة ١١٣٠.

الخميس ٢٣ سبتمبر:

وصلت الكتيبة الساعة ١٠٠.

زكرين.. ودير الريان.. عجور.. بيت الجمال.. تهاجم..

تحركت إلى بيت جبرين.

الجمعة ٢٤ سبتمبر:

قام القائد بإجازة..

تسلمت قيادة الكتيبة..

الأربعاء ٢٩ سبتمبر:

مرّ المواوي باشا وموسى لطفي باشا على مواقع الكتيبة..

وقد أعجبوا بالمواقع الدفاعية..

الجمعة أول أكتوبر:

وصلتني الساعة ٩٠٠ ورقة من لطفي واكد الحاكم الإداري ببيت جبرين يقول:

إن اليهود احتلوا خربة المحجز، وإنه مع المناضلين يناوشوهم ويطلب النجدة..

أرسلت كمال بشارة لمقابلة واكد واستكشاف مواقع العدو..

وصدرت أوامر بأن يطرد العدو من موقعه..

فاتصلت بكمال على أن يقابلني في الكتيبة..

وقمت ومعي خمس حمالات برن بقيادة الشاويش عبد الفتاح وفصيلتان مشاة وجماعة هاون ٢.٤ بوصة وجماعة فكرز بقيادة الحديدي وعربيتان همر بقيادة فايز يكن..

وصلنا إلى منطقة التجمع وتحركت للاستكشاف..

خربة المحجز عبارة عن عدد من المنازل فوق تبة عالية تشرف على الأرض المحيطة بها..

والعرب مشتبكون معهم..

وضعت الخطة كالآتي.. ساعت صفر ١٦٠٠..

من صفر + ١٠ إلى صفر + ١٠ نيران هاون ومدافع ماكينة..

ستتقدم الحمالات من الجنب الأيمن إلى البلدة رأسًا..

تتقدم المشاة من الجانب الشمال بقيادة الشاهد..

حدث الآتي:

فتحت نيران المدفعية ومدافع الماكينة، ولكن لم تتقدم المشاة..

وكان الاتصال بها بالمراسلة لتعطل اللاسلكي..

اتصلت بنا الحمالات وبلغتنا أنه يوجد خور يمنع تقدمها..

كانت الساعة ١٧٠٠.. ولم تتقدم الحمالات ولم تتقدم المشاة وكان المسلحون العرب معرضين لنيران العدو..

وفي الساعة ١٧٣٠ بلغ قائد الحمالات أنه استطاع أن يعبر الخور مسافة مفتوحًا رأسًا إلى العزبة..

وفي الساعة ١٧٤٠ بلغ أنه دخل البلدة، وقتل جميع اليهود الموجودين بها..

توجهت في عربة هامير إلى البلد.. سلمتها لمحمد عبد الهادي قائم مقام الخليل، وعدنا إلى عراق المنشية الساعة ٢٢٠٠..

لم تحصل أي خسائر..

السبت ٢ أكتوبر:

حضر قائد اللواء..

قام كمال بشارة إلى المحجز..

وجد أن العرب مثلوا بالقتلى اليهود..

قام بتأنيبهم..

وأحضر بعض الألغام وجوابات القتلى..

أحضرت فصيلة الحمالات الأسلحة الآتية من اليهود:

مدفع هاون ٣ بالقاعدة الجديدة..

مدفع هاون ٢ بالقاعدة الجديدة..

مدافع بيات وقنابل كثيرة..

أحضروا مأكولات وسجاير وعلب بيرة..

وقد أخذنا الأسلحة وأعطيناهم المأكولات والسجاير..

كانت هذه المعركة سببًا كبيرًا في رفع الرح المعنوية..

أصبحت روح عساكر فصيلة الحمالات عالية جدًا..

لقد التحموا مع اليهود وجهًا لوجه.. وانتصروا بدون خسائر..

كان حسن التهامي وفايز يكن موجودين لحماية الجانب الأيمن..

وقال الجميع إنها أبسط عملية للآن..

وكان الهاون ٤. ٢ بوصة عظيمًا جدًا.. ضرب مواقع العدو من مسافة ٣١٠٠ متر..

وكان العدو يستعمل هاوناته ومدافع اللافايت ولكنها لا تفلح..

كانت جماعة مدافع الماكينة ومعها الحديدي تضرب على مسافة ٢٠٠٠ متر.. وكان ضربها مؤثرًا جدًا..

بعد المعركة، وجدت خوذات للعدو بكل منها دفعة..

كان لطفي واكد من أحد أسباب نجاح المعركة..

فعندما علم باحتلال المحجز..

قام ومعه المناضلون.. واشتبك مع العدو..

ومنعه من عمل أي تحصينات..

فلم تقام أسلاك ولم توضع ألغام..

نيران في عراق المنشية

الأحد ٣ أكتوبر:

حضر بعض العرب وقالوا: إن اليهود استولوا على المحجز مرة أخرى وطردوا المناضلين..

بلغنا اللواء الرابع..

فقال: إنها مسئولية لواء المتطوعين..

بلغنا لواء المتطوعين..

فقال: إنها مسئولية الكتيبة..

أعطيت العرب صندوقي ذخيرة..

وطلب منهم عدم تمكين اليهود من عمل أسلاك..

فأنا أعرف أن تأخير الهجوم سيفيد اليهود في عمل التحصينات..

وأعرف أيضًا أنه لابد وسيصدر أمر لأي شخص بعد مدة من التردد بالاستيلاء على البلد..

المواوي في بيت لحم..

نعمة الله ملخوم.. مش عارف يعمل إيه..

مضى اليوم بدون أي تصرف..

الاثنين ٤ – الثلاثاء ٥ أكتوبر:

معركة المحجز الثانية:

استمر العرب في مناوشة العدو ويطلبون نجدة..

حضر نعمة الله بك، وفؤاد بك ثابت..

لم يتخذ أي قرار..

الساعة ١٦٠٠ صدرت أوامر بالاستيلاء على المحجز..

القوة.. سرية في ك١. جماعة حمالات من ك١، وجماعة حمالات من ك٦.. وجماعة فكرز من ك١، جماعة هاون ٤. ٢ بوصة من ك٦، وجماعة هاون ٣ من ك١، على أن تكون القيادة من ك٦.

استعديت للخروج.. ولكن عدلت القيادة على أن تكون من ك١.

خرجت القوة بقيادة زكريا وخرجت معه..

كان الوقت متأخرًا.

فقررنا تأجيل الهجوم للصباح على أن تبيت القوة في (الخليل)..

عمل اللازم للدفاع، ووضعت الخطة على أن تبدأ العملية في أول ضوء..

ونمنا أنا وكمال بشارة على الأرض على بطانية..

واتغطينا ببطانية..

وقمنا في الساعة ٤٠٠ صباحًا يوم ٥ أكتوبر.

وبدأت العملية..

الهجوم كان مقدرًا له الساعة ٥٣٠.. ولكن تأجل للساعة ٧٠٠، لقلة ذخيرة الهاون ٤. ٢ بوصة.

بدأ الهجوم..

الحمالات من اليمين والمشاة من الشمال..

وبدأ الهاون ٤. ٢ والهاون ٣ في ضرب الغرض..

قطعت المواصلات مع المشاة..

وطلبنا من الحمالات التقدم، ولكن الملاح لم ينفذ..

كان قريبًا من محلات العدو..

ولم يقتحم، وكان بذلك معرضًا لنيران شديدة من العدو وهاوناته..

غالي مسيحة قائد المشاة لم يبذل أي مجهود لكي يتقدم..

الحمالات لم تتقدم..

الساعة ١٢٠٠ هبطت حدة الهجوم..

أوقفنا العملية على أن نبدأ عملية أخرى الساعة ١٥٠٠..

طلبنا الملاح.. فقال: إنه لن يستطيع التقدم إلى الخربة مطلقًا. وهو مستعد لحماية جنب أو شيء..

طلبنا الشاويش عبد الفتاح من الكتيبة... ومعه جماعة حمالات..

وصل عبد الفتاح الساعة ١٤٠٠..

طلبا منه التقدم إلى المجحز رأسًا..

على أن توضع جميع حمالات الكتيبة السادسة تحت قيادته..

وكانت روحه عالية..

المعركة.. قطع الطريق بواسطة جات وكراتيا.

الساعة ١٥٠٠..

بدأت المعركة بنيران شديدة.. الهاون ٤. ٢ بوصة..

وتقدم عبد الفتاح مع الحمالات..

وفي الساعة ١٥٢٠ كان داخل المحجز يطلب المشاة..

وصلت إلى المحجز..

وكانت تحت نيران شديدة من العدو..

انفجار جوي.. هاون أسلحة صغيرة..

وكان غالي مسيحة قد وصل إلى هناك مع سريته، واتخذ مواقع دفاعية، وانسحبت الحمالات..

عدت إلى محل التشكيل..

وجدت زكريا..

واتفقنا على أن يأخذ الأسلحة المساعدة.. الفكرز والذخيرة والأسلاك والألغام، ويذهب للمحجز حيث سيبيت هناك..

وآخذ أنا الباقي وأبيت في الكتيبة..

وصلتني فصيلة من ك٦..

وفي نفس الوقت وصل أحمد شريف..

وبلغني أن العدو استرد المحجز.. وأن القوة انسحبت..

بقيت، فوصل زكريا وبلغني: أنه قابل القوة منسحبة في الطريق..

ويظن أن السرية انسحبت بدون أدنى مقاومة..

جمعنا نفسنا وبتنا في الكتيبة..

الأربعاء ٦ أكتوبر:

عودتي إلى عراق المنشية..

الخميس ٧ أكتوبر:

معركة المحجز الثالثة..

قطع الطريق- ضرب عراق المنشية بالطائرات..

١٥٠٠ اتصل الشافعي بنا..

وطب إرسال سرية بسرعة وجماعة هاون ٤. ٢ بوصة..

وكان صوته يدل على منتهى الانزعاج..

أرسلت سرية بقيادة حسن عثمان..

الجمعة ٨ أكتوبر:

طلبت وضع سرية بالكتيبة وسرية بالدرايمة..

وقلت: إن اليهود بنشاطهم في ذكرين ودير الريان في آنستا..

ونشاطهم في المحجز، وفي أبو جابر في الجنوب..

ينوون على ما أعتقد فتح طريق في هذا القطاع..

وبينت ذلك لفؤاد بك وثابت وصلاح سالم وعبد الفتاح فؤاد..

أرسلوا لنا سرية على أن تقوم بدورية ليلية على المحجز باستمرار..

فاعترضت على ذلك..

وقلت: إن اليهود لابد وأن يضعوا كمينًا لها..

والأجدى هو وضعها بالكتيبة..

وقد وافق قائد اللواء على ذلك..

سافر عبد الحكيم وزكريا بالإجازة..

وكلموني بالتليفون من عراق سويدان..

السبت ٩ أكتوبر:

أوامر من اللواء الرابع بوضع ٣٠٠ عسكري من الإمداد بالرجال تحت قيادة الكتيبة..

الأحد ١٠ أكتوبر:

سعت ١٢٠٠.

وصل محمد السيد ومعه ٣٠٠ من الإمداد بالرجال..

صدر أمر بإلغاء الهجوم الثقيل على المحجز..

الاثنين ١١ أكتوبر:

صدرت أوامر أمس بسحب السرية الأولى من هربيا من قيادة القوات الضاربة وتنضم إلى الكتيبة..

وصلت الساعة ١٠٠٠ ووضعت بالاحتياط..

الثلاثاء ١٢ أكتوبر:

عادت القوة الخاصة بالإمداد إلى غزة..

وتركت سرية مع الكتيبة..

أوامر باحتلال أبو طر والسكرية كل منها بفصيلة..

الأوامر من صلاح سالم وعبد الفتاح فؤاد..

عارضت هذه الفكرة..

الأربعاء ١٣ أكتوبر:

بلغني الساعة ٢٠٠٠ من الشاهد بخربة الأمير أن العدو يحاول اتخاذ موقع أمامه..

أمرت الهاون ٤. ٢ بوصة بضربه..

وطلبت من حسني عبد العزيز الذي كان وصل اليوم أن يأخذ فصيلتين ويقوم بدورية قتال..

وصل فلم يجد شيء فطلبت منه المبيت..

الخميس ١٤ أكتوبر:

بلغني حسني أنه وجد طلقات فارغة في المحل الذي كان به العدو وسلك شائك..

أخذنا مندوبي لجنة الهدنة لمعاينة المكان..

الجمعة ١٥ أكتوبر:

١٢٠٠ طلبت لمقابلة أركان اللواء الساعة ١٥٠٠..

١٥٠٠ بلغت أن العدو استطاع أن يمررّ في الليلة بين التقاطع والمجدل عددًا كبيرًا من العربات..

١٦٠٠ طلب مني أن أرسل تحت قيادة اللواء السرية الأولى وسرية الإمداد..

قابلت عبد السلام عفيفي في رئاسة اللواء وصلاح سالم..

السبت ١٦ أكتوبر:

من الساعة ٢٠٣٠ أمس..

نشاط للعدو في خربة الأمير..

احتل خربة عطا الله..

الساعة ٥٠٠، بدأت القنابل تسقط على عراق المنشية ثم بدأ الهجوم الكبير..

دبابات طائرات مشاة..

النصر الكبير..

خرق اليهود للهدنة في قطاع ك٦..

الساعة ٢٠٣٠ أمس..

اتصل الشاهد بي من خربة الأمير..

وقال: إنه يسمع حركة..

فطلبت منه أن يعمل على إرسال دورية استكشاف..

عادت.. وقالت: إن العدو يحاول احتلال خربة عطا الله، والتبة جنب الطريق..

فطلبت منه إرسال دورية قتال وإزعاجه بالهاون..

واستمرت المناوشات طوال الليل..

وفي الساعة ٤٣٠ اتصلت بعبد الفتاح فؤاد وبلغته فطلب طرده..

في الساعة ٥٠٠.. كل شيء هادئ بعراق المنشية..

فوجئنا بنيران هاون شديدة..

تجمعات من جات على البلدة..

وكان الضرب في كل أنحاء البلدة، حتى أصبحت وكأنها ضباب..

في الساعة ٥٣٠، اتصل بي حسن عثمان..

وقال: إن اليهود يهجمون جهة المدرسة، وأن معهم دبابات ثقيلة..

عملت على سحب المدفع ٦ رطل الموجود في الجهة

الشرقية وإرساله للجهة الغربية حتى يكون هناك مدفعية..

وفي الساعة ٠٥٥٠، اتصلت بأركان حرب اللواء..

فقال: إنه سيكلم أركان حرب ك١، لإرسال سرية..

اتصلت ك١، فقال: إنها ستصل بعد ساعة..

اتصل بي حسن عثمان..

وقال: إن دبابات العدو اقتحمت الفصيلة التي بالمدرسة، وأن العدو دخل عراق المنشية..

طلبت س٢ سودانية..

وطلبت أن يقوموا بهجوم مضاد..

حسن عثمان بلغني أن المدفعية ٦ رطل عطلوا..

طلبت أبو سبع..

وطلبت منه أن يرسل الحمالات لعمل هجوم مضاد ومعها أكبر عدد من آليات الاستعانة..

توجهت للسرية السودانية..

فبلغني الضابط أن بشير توجه إلى المدرسة..

توجهت إلى الحملة وطلبت إخراج كل عسكري للدفاع..

استشهاد الشاويش جرجس..

كان العدو داخل عراق المنشية..

دبابة من دباباته شرق المدرسة..

عدت من عند السودانية فوجدت أن بشير الأمين قائد السودانية والحمالات، استطاعوا طرد العدو وتعطيل ٣ دبابات اثنتين بالألغام، وواحد ضربها عبد الخالق شوقي بعد أن اقتحمت الموقع..

وكان قتلى العدو كثيرين..

كانت الدبابة الثانية على السلك والدبابة الثالثة على بُعد ألف متر..

ستر العدو انسحابه بالدخان ونيران (..)...

وفي الساعة (٩٠٠)...

عاود الهجوم مرة أخرى.. ولكن ضرب عليه بالهاون فانسحب..

ذخيرة الهاون ٤ . ٢ بوصة قربت من النفاذ..

طلبنا ذخيرة..

استعملنا الطريق الخلفي..

طلبت من أبو زيد قائد س٥ سودانية مساعدة خربة الأمير.. وكذلك من الفيومي..

طلبنا ٦ رطل..

وصل ٤ الساعة ١٣٠٠..

وبعد ذلك بخمس دقائق، حصل الهجوم الثالث لسحب الدبابات المعطلة..

ولكن انسحبوا..

وتركوا ثلاث دبابات أخرى في الخور حرقها الهاون..

وبلغتنا دوريتنا الليلية بذلك..

قام الطيران أثناء الهجوم بضرب البلد بمدافع الماكينة..

بعد الانسحاب ضربت عراق المنشية بحوالي ٥٠٠ قنبلة..

كان يوم ١٦ رابع يوم العيد..

وكان عيدًا حقًا بعون الله..

هجم العدو باثنتي عشر دبابة..

ترك ستة، وسحب اثنتين معطلين..

الأحد ١٧ أكتوبر:

مهاجمة الفالوجة بالطائرات..

قطع الطريق عند التقاطع..

إلغاء الإجازات... وإجازتي باكر..

ضرب جات بالطائرات..

قطع الاتصال مع المجدل، وبيت جبرين..

وأصبحنا محصورين..

لا تصل لي أي تموينات..

موقف الذخيرة سيئ، وكذلك التعيين..

الاثنين ١٨ أكتوبر:

قامت طائراتنا بضرب جات بالقنابل..

وصل خليل من الفالوجة بعد أن قضى ليلته هناك..

كان ذاهبًا لإحضار بطاريات وتوصيل بطاريات للمــــلء..

حصلت غارة على الفالوجة بمجرد وصوله..

تهشمت العربة..

مات الشاويش جرجس.

تكسرت البطاريات..

ضربت جات علينا قنابل هاون قبل ضربها بالطائرات..

سحبنا دبابة من دبابات العدو المعطلة بواسطة عربات النجدة الثقيلة..

الدبابة مكتوب عليها Fbrs Hotchicuss .G11 مسلحة بمدفع ٢ رطل ومدفع هوتشكس بها ترسين سُمْكهما أكثر من بوصة..

هذه الدبابة كانت دخلت البلدة وضربها عبد الخالق شوقي بالبيات في الجنزير الشمال؛ فقطع الجنزير..

وكان الضارب على مسافة ٥ ياردة منها..

وقد رمى طقم الدبابة مولد دخان ونزل منها..

ولكن مدافع الماكينة قتلته..

القتلى اليهود منثورون أمام السلك..

عددهم كبير..

خرجت دوريات لإحضار أسلحتهم..

نقض اليهود الهدنة بعد استكمال التسليح..

وقد قاموا بهجوم عام..

فبدأ أول نقض للهدنة، عندنا في عراق المنشية يوم السبت ١٦..

استعملوا مدفعية شديدة. تجمعات..

سقطت قنابل لا حصر لها..

واستعملوا الدبابات..

ثم استعملوا الطائرات ذات الأربع محركات..

كل الغارات الجوية أثناء الليل..

الآن الساعة ١٨٤٥، ضربت الطائرات الفالوجة..

كان استعمال الدبابات في هجوم يوم السبت على عراق المنشية مضافًا إلى خرق الهدنة أكبر مفاجأة في هذه الحرب...

عندما بلغني ضابط الموقع الذي هوجم: أن اليهود يهجمون ومعهم دبابات ثقيلة..

لم أصدق..

ولكن عاد وقال: إن الدبابات اخترقت الموقع..

وعند ذلك صدقت..

لأول مرة يستعمل اليهود دبابات..

الثلاثاء ١٩ أكتوبر:

أحضرنا ثلاثة أجهزة لاسلكي من دبابات العدو..

وأخذنا أسلحة كثيرة من القتلى..

مدافع استن وهوتشكس ومدافع بيات وبنادق..

واستعملنا الأجهزة اللاسلكية ١٩ ماركة ٢..

أرسلت النادي مع الحمالات لاستكشاف طريق خلفي إل الكتيبة عن طريق السكرية وأبو طر..

بلغني أبو زيد الساعة ١٠٠ أن اليهود استولوا على خربة حامد..

فطلبت منه أن يطرد العدو من هذا الموقع بأي حال..

في الساعة ١١٠٠ بلغني أن العدو ترك الموقع..

عاد المنياوي وأخبرني أنه استكشف طريق آمن..

واتفقت مع السيد بك طه على ترحيل الجرحى من هذا الطريق إلى مستشفى الخليل..

والجرحى بالفالوجة كثيرون نتيجة للغارات الجوية..

والجرحى عندنا لا يمكن إخلاؤهم..

وذلك بعد إخلاء جرحى يوم السبت نظرًا لقطع الطريق..

إن حالة الجرحى مؤلمة...

فالدكتور لا حول له ولا قوة..

حصلت أمس حالة مصران أعور، وكان لا يمكن التصرف فيها..

وفي الظهر أبلغ الدكتور أن المصران انفجر..

وفي المساء قال أنه توفي...

قامت جات بضربنا بالهاون..

لا يمكن الرد عليها لأننا في حاجة إلى القنابل..

طلب أبو زيد منى ذخيرة..

أرسلت له خمس صناديق..

الباقي خمسة عشر صندوقًا فقط..

اتصلت بالفيومي وطلبت منه أن يرسل تعيينات لنا..

فقال سيتصل بالخليل لطلب تعيينا على أن ترسل لنا باكر..

وطلبت ذخيرة فقال إنه سيحاول..

علمت أن اليهود استولوا على التقاطع وكوكبة..

وأن الرياسة نقلت إلى غزة..

وأن العدو هاجم عراق سويدان والمواقع التي أمام كـــراتيه..

وتم صده بخسائر جسيمة..

وقام العدو بضرب البلد بالطيران في المساء..

ولكن سقطت خارج البلد..

الأربعاء ٢٠ أكتوبر:

أرسلنا الجرحى، ومعهم الحمالات إلى الكتيبة لينقلوا إلى مستشفى الخليل..

ضمن الجرحى طفل مصاب في رجله..

بلغني الفيومي من بيت جبرين أن التعيينات وصلت في الخليل، وأنه أرسلها إلى الكتيبة..

فطلبت من المنياوي إرسالها مع حمالتين..

سمعت أخبار الشرق الأدنى..

وهم يقولون أن العدو محاصر غزة..

وأنه فتح طريقًا بجوار الكتيبة..

أما في الكتيبة، فهو قطع طريقنا الرئيسي إلى بيت جبرين..

ولكن، لا يستطيع المرور..

وصل التعيين، ومعه عدد قليل من الذخيرة..

أرسلت ثلث التعيين وكل الذخيرة إلى ك١ لإرسالها إلى ك٢...

قام العدو بضربنا بالهاون من جات الساعة ١٦٠٠ لمدة ساعة..

كلمني عبد الحكيم وزكريا وكمال بشارة باللاسلكي..

عرفني حكيم أن هدى ومنير بخير..

سمعت في الراديو أن مجلس الأمن أمر بإيقاف القتال.

إن قطع طرق التموين يدعو للقلق..

فنحن مقطوعون من الشرق والغرب..

وأمامنا عدو وخلفنا عدو..

خفض التعيين بنسبة النصف..

وصلنا دقيق..

سنعمل ترتيب خبز عيش وشراء لحوم بمعرفتنا..

الخميس ٢١ أكتوبر:

مؤتمر الفالوجا- أمر الانسحاب إلى الخليل- المعارضة

فيه- أمر بإلغاء الانسحاب- غارة جوية على عراق المنشية- وصول الإجازات عن طريق الخليل.

طلب القائد إلى مؤتمر في الفالوجة فذهبت معه..

واجتمعنا السيد طه وأركان حربه وأحمد توفيق وأركان حربه وحسين كامل وأركان حربه..

وتكلمنا في أمر الانسحاب..

الأمر ينفذ الساعة ١٨٣٠..

وكان أمرًا إنذاريًا فقط.

كلفني السيد بك بكتابة أمر الانسحاب، بعد أن اختلف مع أحمد توفيق على طريقة انسحاب كتيبته..

جهزت أمر الانسحاب مع الفسخاني..

صدر أمر بإلغاء الانسحاب..

وأن الحالة ستتحسن..

وأن أمر القتال سيصدر في مصلحتنا..

عادت الإجازات عن طريق غزة بير سبع الخليل- الدوايمة..

عندما صدر الأمر بالانسحاب انتابتني... أفكار عدة..

فإن انسحابنا سيعرض جميع السكان التي من عراق سويدان إلى بيت جبرين إلى التشرد..

أو الوقوع في قبضة اليهود..

تصورت منظر الأطفال والنساء والعائلات عند انسحابنا..

وكيف سيحتل اليهود عراق المنشية والفالوجة... إلخ..

وكيف إذا استمرت الحرب سنحاول استعادة هذه البلاد التي حصنّاها..

عراق المنشية مثلًا التي وقفت أمام دبابات العدو وجموعه..

كل ذلك سيستولي عليه اليهود..

وسيكون من العسير... بل من المحال استرجاعها..

ومن ناحية أخرى... فإن وجود ثلاثة كتائب ومعها أسلحة مساعدة... في هذا الوضع يدعو إلى التفكير..

لقد كان الغرض من وجودنا فصل الشمال عن الجنوب..

والآن اتصل الشمال بالجنوب..

ووجود هذا اللواء في الخليل... يمكن أن يغيّر من مجرى الأمور هناك.

قيادة عاجزة وهزيلة.

الجمعة ٢٢ أكتوبر:

استيلاء اليهود على خربة حمدي العملين..

أمر إيقاف القتال الساعة ١٤٠٠..

إيقاف ضرب النار..

بلغني أبو زيد الموجود بالكتيبة: أن العدو استولى على خربة العملين..

وكنت قد أرسلته للمنياوي ليطلب منه احتلال هذه الخربة بواسطة قوات من سريته لا بواسطة المناضلين..

ولكنه لم ينفذ..

استمر ضرب الهاون علينا..

وصدرت لنا أوامر بإيقاف القتال الساعة ١٤٠٠..

بلغ لنا أن الملازم أول بشري من قوة السرية السودانية بالكتيبة استشهد..

السبت ٢٣ أكتوبر:

قطع الطريق مع الكتيبة..

امتداد مواقع اليهود من خربة عطا الله إلى أبو طر..

أمر جديد بالانسحاب من الخليل..

الاعتراض عليه لقطع الطريق..

بلغ لنا في الصباح أن العدو احتل خربة أبو رحمة وخربة كركرة..

وبذلك قطع الطريق مع الكتيبة..

وأصبحنا محصورين من الشرق ومن الغرب..

صدر أمر جديد بالانسحاب إلى الخليل..

وقد بلغنا أن العدو قطع طريق الانسحاب..

وصدر أمر آخر بالبقاء في محلاتنا..

لقد حوصرنا وقطع طريق المواصلات مع المجدل ومع الخليـــل..

خفض التعيين الذي يصرف إلى الربع..

الأحد ٢٤ أكتوبر:

ذهبت إلى خربة الأمير..

رأيت اليهود على التبة شرق خربة الأمير... والمواقع جنوبها..

وصلت إشارة من رئاسة اللواء... تدعو للاطمئنان..

السرية السودانية تترك الكتيبة..

بلغنا الفيومي أن شوكت بك انسحب من رئاسته إلى الخليل..

وأن الخط زكرين- دير الريان استولى عليها العدو..

الاثنين ٢٥ أكتوبر:

يوجد أكل يكفي اثني عشر يومًا فقط..

خبر من الرئاسة عن التموين من الجو..

طلبنا ذخيرة وأدوية..

العدو يهاجم بيت جبرين الليلة الماضية..

العدو يحتل الكتيبة دون قتال..

الثلاثاء ٢٦ أكتوبر:

العدو هاجم بيت جبرين الليلة الماضية من الساعة ١١٣٠ إلى الساعة ٠٠٥ بدون جدوى..

احتل بيت العزة..

لم يتمكن من احتلال المركز..

وأخيرًا قام بإخلاء البلدة..

أرسل الفيومي إشارات طلب نجدة..

وكان يقول سندافع لآخر طلقة، وآخر عسكري والنصر لنا..

في الساعة ٩٠٠ أرسل يقول: إن الذخيرة نفذت..

ويطلب ذخيرة..

وبلغنا أنه ذهب إلى الخليل..

الساعة ١٩٠٠ بلغنا عامل الإشارة: أن السرية تنقل للخليل..

وبذلك تركت بيت جبرين بدون دفاع..

الأربعاء ٢٧ أكتوبر:

طلبني السيد بك طه وقال: إنه وصلته إشارة باحتلال بيت جبرين..

وكان هذا الخبر من الأسباب التي تؤكد أن القيادة تتخبط..

لقد أخطرناهم أن الطريق إلى بيت جبرين محتل بالعدو..

ولا توجد ذخيرة من يوم ١٦ الجاري منذ عشرة أيام..

ولكن رغم ذلك، يتجاهلون ويصدرون أوامر..

هذه القيادة الهزيلة هي التي تسببت في كل هذه المصائب..

والحقيقة، أنه لا توجد قيادة للجيش المصري في فلسطين..

نفس التقاليد العتيقة..

ونفس المظاهر والتمثيل بدون إنتاج..

لقد كوَّن اليهود جيشًا به دبابات وقوة دافعة في أربعة أشهر..

واستطاعوا أن يقطعوا أوصال الجيش المصري..

ويعزلوه في جيوب متفرقة..

ويقطعوا خطوط مواصلاته في عملية استغرقت ثلاثة أيام..

لقد ضربوا النقط الضعيفة.. ونفذوا منها.. إلى الخلف..

وقطعوا خطوط المواصلات..

أما قيادتنا فعاجزة كل العجز..

لا يوجد عسكري واحد احتياطي ليستعيدوا به الموقف..

ففكروا في شيء واحد، وهو الهرب والنجاة بأنفسهم..

كان المواوي عاجزًا..

فإنه قائد بدون جنود، وبدون جيش..

اللواء الثاني منعزل في أسدود..

واللواء الرابع منعزل في النقب..

واللواء الجديد في مصر منذ خمسة أشهر.. وهو كل ما فكر فيه قيادتنا.. لم يكمل تدريبه..

أما اليهود فقد كونوا سلاح طيران سيطر على الجو طوال مدة العمليات..

قادتنا المنافقون يصدرون بلاغات كاذبة..

بعدما استولى اليهود على بئر سبع فعلاً... رغم تكذيب النقراشي..

وصلنا في مدة الهدنة بعض مدافع الفكرز والهاون في الوقت الذي كوَّن فيه اليهود سلاح طيران ودبابات..

الخميس ٢٨ أكتوبر:

حلقت طائرات الساعة ٦٠٠ وألقت منشورات تطلب منا التسليم..

وتشرح موقفنا جيدًا بأسماء الوحدات..

طبعًا كلام فارغ قابله الجميع بالسخرية..

فبالرغم من أننا محاصرون من يوم ١٦..

وبالرغم من طلبنا تعيينات وذخيرة بواسطة الطيران..

وبالرغم من أن طلباتنا لم تجب..

ولم يلتفت إليها..

فسنقاوم إلى آخر رجل..

لقد فقدنا الإيمان في قيادة الجيش... وقيادة البلاد..

هؤلاء المضللون المثلون...

ماذا عملوا بعد أن دخلنا الحرب... لا شيء..

لم تصل أي إمدادات للأسلحة التي دخلنا بها..

هي هي...

إن اليهود لأفضل آلاف المرات..

فبعدما كانوا يدافعون عن أنفسهم ببنادق الرش..

أصبحوا قوة كبرى بها طيران ودبابات ومشاة مجهزة بالهاون، ومعها مدفعية ثقيلة...

عندما كان اليهود محاصرون قبل يوم ١٦ الحالي...

كانت طائراتهم في الجو باستمرار لتموينهم...

أين سلاحنا الجوي؟...

لقد اختفى...

الجمعة ٢٩ أكتوبر:

وصول ست طائرات وإلقاء ذخيرة...

الموافقة على سحب قوة خربة الأمير على أن يتم ذلك في الليل...

سحب القوة يتم الساعة ٢٢٠٠....

السبت ٣٠ أكتوبر:

تقوية عراق المنشية والفالوجة والكوبري بقوة خربة الأمـير..

إعادة تنظيم الخط الدفاعي في عراق المنشية...

تقوية الناحية الجنوبية بالأسلاك...

وضع المدافع بعمق...

إعادة توزيع القطاعات ومدافع ٦ رطل...

وضع مدفع عند المدرسة...

ومدفع عند الطريق شمال شرق البلدة...

ومدفع عند تبة الثلاث شجرات...

ومدفع عند الطريق جنوب شرق البلدة...

العمل يرى ليلاً..

الأحد ٣١ أكتوبر:

القائد اليهودي يحضر في عربة عليها علم أبيض...

ذهبت لمقابلته..

يطلب منا التسليم...

نرفض...

يطلب أخذ جثث قتلاه..

الاثنين أول نوفمبر:

جمع جثث قتلى اليهود حسب الاتفاق...

العدو يحتل عراق الخراب...

وصول أربع طائرات بها تموين...

العدو ينقض اتفاقية إيقاف القتال بعد استلام جثث القتلى بساعة...

يضرب عراق المنشية بالمدفعية...

غارة جوية الساعة (٢٠٠٠)..

العدو يحتل عراق الخراب ويضع فيها مدافع ماكينة...

وبذلك أصبح الطريق الأسفلت الذي يخدم عراق المنشية محفورًا بنيران الأسلحة الصغيرة...

وكذلك الناحية الشرقية...

والمواقع الشرقية من البلدة...

الثلاثاء ٢ نوفمبر:

ذهبت إلى مراكز عراق سويدان للاستكشاف...

ماذا رأيت...؟!

وصول طائرات تموين ستة...

العدو يضرب عراق المنشية بالهاونات بشدة من الساعة (١٥٠٠)....

وصول طائرات مرة أخرى الساعة (١٦٠٠)..

العدو يستمر في ضرب عراق المنشية طول الليل بالهاون...

نمت في الخندق...

هجوم الساعة التاسعة مساءً على عراق سويدان...

انسحاب العدو بخسائر...

الأربعاء ٣ نوفمبر:

الساعة (٥٠٠)... تجمعات كثيفة من مدفعية وهاونات العدو...

الساعة (٦٠٠).. هجوم من الناحية الجنوبية الشرقية بدبابات.. وانسحابه..

هاونات طوال اليوم...

تجمعات في الجنوب...

الساعة (١٥٠٠)...

الضرب عليها...

تجمعات في جات الساعة (١٧٠٠)...

الضرب عليها..

الضرب الآن الساعة (١٧٣٠) على عراق المنشية..

مستمر بشدة..

توقفت عن الكتابة نظرًا لقيام العدو بهجوم في اتجاه المدرسة...

وقد تم صد الهجوم..

كل عمليات اليوم وضرب الهاون تعدى ثلاثمائة قنبلة..

وخسائرنا قتيل وجريح..

نقاتل... ولا نستسلم.

الخميس ٤ نوفمبر:

الضرب مستمر علينا من الشمال والشرق والجنوب..

مدافع هاون بكثرة..

ومدافع ماكينة بكثرة...

ضرب الهاون غير منقطع..

الساعة (١٠٣٠).. هجوم على قطاع السودانية..

لقد أظهروا منتهى النذالة..

حضر عدد منهم..

روحهم المعنوية بطالة..

يقولون: إذا لم ينتهي الحال... فإنهم سيتركون المواقع..

ولا يمنعهم من عمل ذلك إلا إن كل الطرق مقفلة..

ضربنا العدو بالمدفعية..

ويظهر أنه كان هجومًا ضعيفًا..

أو دورية.. فقد انسحبت..

الساعة الآن (١١٣٠).. الحالة تزاد سوءًا..

العدو متفوق في كل شيء..

ويتحرك كما يريد..

ونحن في خنادقنا..

ندافع فقط، ومحاصرون..

لا زالت الكتيبة الأولى تظهر روحًا سيئًا في مساعدتنا..

الذخيرة تقريبًا نفذت..

الهاون ٣ ليس له ذخيرة..

الهاون ٤. ٢ بوصة تبقى منه ١٣٠ طلقة فقط..

الذخيرة م م لا يوجد احتياطي.. بعد استعواض ما ضُرب أمس..

أما الأكل فهو لحم وأرز باستمرار للضباط.

ولحم وعدس للجنود..

الساعة الآن ١٢٠٠..

سقطت قنبلة داخل منزلنا..

وكنت بالحجرة..

والنار دخلت من الباب..

أصيب عسكريان..

الجمعة ٥ نوفمبر:

الخبار تقول إن الجيش المصري انسحب من المجدل إلى غزة..

وإن العدو دخل مستعمرة دير سنيد..

سألنا.. فقيل إن هذا حقيقي..

السبت ٦ نوفمبر:

العدو يسقط منشورات عن دخوله المجدل ودير سنيد..

ويطلب منا التسليم..

ويشترط الاحتفاظ بالأسلحة والعربات..

الأحد ٧ نوفمبر:

أذاعت محطة لندن أن الحكومة طلبت من الصليب الأحمر سحبنا..

ولكن العدو رفض..

وطلب تسليم الضباط والأسلحة..

مستعمرة الجات ترفع العلم الشيوعي بمناسبة مرور ٣١ عامًا على الثورة الشيوعية.

أخبار الساعة ٢٤٠٠ أن العدو يتجمع في جات..

وأن هناك صوت عربات ذات جنزير..

انتظرنا هجوم..

ولكن لم يحدث..

الاثنين ٨ نوفمبر:

أخبار الصباح تقول إن الجيش المصري انسحب من غزة إلى الحدود المصرية..

أخبار المساء تكذب ذلك بواسطة وزير الحربية..

خفف العدو من النيران المزعجة..

كلمت واكد ببيت لحم..

ووصلت خطابات بواسطة إسقاطها من الجو..

ووصلتنا جريدة المصري والإخوان والزمان عن السبت ٦ نوفمبر لأول مرة..

الثلاثاء ٩ نوفمبر:

مهاجمة مركز عراق سويدان وبيت عفة م الساعة (٩٠٠)..

هجوم شديد جدًا اشتركت فيه الطائرات والمدفعية والدبابات..

في العصر سقط مركز عراق سويدان..

خرج منه ضابط واحد، وبعض الجنود..

هجم العدو علينا من الجنوب..

ولكنه صد..

وأحرقت المدفعية بعض عرباته..

ما زال الأكل عبارة عن أرز وشوربة فقط..

بعد سقوط مركز عراق سويدان انسحبت الكتيبة الثانية، انسحابًا غير منظم إلى الفالوجة..

وبذلك ضاق الجيب..

وأصبح محورًا في الفالوجة وعراق المنشية..

الأربعاء ١٠ نوفمبر:

في الفجر أسقط العدو منشورات يقول فيها: إن مركز عراق سويدان سقط..

ويطلب التسليم..

ضربت مدفعية الفالوجة مستعمرة جات وأحرقتها..

حضرت الساعة ١٥٠٠ مصفحة يهودية من الشرق، عليها علم أبيض..

طلب الضابط الموجود في العربة: أن يحدد ميعادًا ليتقابل فيه قائد الفرقة اليهودية مع قائد قواتنا..

سنتقابل باكر الساعة ١٠٠٠ لأخبره عن رد قائدنا..

أحضر جوابين من صلاح بدر قائد حصن عراق السويدان لوالدته وزوجته يقول: إنه بالأسر وأنه بحالة جيدة..

أوقف العدو الضرب..

الخميس ١١ نوفمبر:

تقابلت مع الضابط اليهودي الساعة ١٠٠٠..

وبلغته أن القائد وافق على مقابلة القائد اليهودي بين الساعة ١٥٠٠ والساعة ١٦٠٠..

فقال إنه يأسف لعدم اتفاقنا على المكان..

وأن هذا المكان بين الخطوط.. في الشمس غير مناسب..

إذ أن قائده يرغب في أن نتناول فنجانًا من الشاي سويًا..

وهو يخيرنا بين جات وبيت جبرين..

واتفقنا على الاجتماع في جات..

وسيقابلنا فى منتصف الطريق الساعة ١٥١٥..

توجهنا السيد بك طه، ورزق الله الفسخاني، وجمال عبد الناصر، وإبراهيم بغدادي، وخليل إبراهيم إلى الجات..

وقوبلنا مقابلة حسنة..

وكان الفرق شاسع بين جات وعراق المنشية..

فإن الشخص يشعر بأنه بين قوم متمدنين..

الآلات الزراعية الميكانيكية والنظافة والنساء في ملابس زاهية يلبسن الشورت..

واجتمعنا مع اليهود..

وتكلم القائد اليهودي..

وقال: إنه يرغب أن يمنع سفك الدماء..

وأن موقفنا ميؤوس منه..

وطلب أن نسلم..

فاعترض القائد المصري.

طلب انسحاب إلى غزة أو رفح..

فمانع اليهود..

وقالوا إنهم يوافقون على شرط أن يخرج الجيش المصري من كل فلسطين..

وطلبنا إخلاء الجرحى إلى غزة..

ولكن رفضوا ذلك..

وقالوا إنهم مستعدون أن يعطونا ما نرغب من الأدوية..

وأخيرًا، خرجنا..

وقد قدموا لنا عصير برتقال، وبرتقالاً، وساندويتشات، وشكولاتة، ومِلبس وبيتي فور وبسكويت..

أبلغتنا الرياسة أن قافلة ستحضر..

كلمة السر (حسان)..

وأن جلالة الملك أرسل تلغراف، يشكر فيه الجميع، ويشجعهم..

وقد رُقي السيد طه إلى أميرالاي مع رتبة البكوية..

كتبت خطابات سيأخذها أحد العرب إلى غزة..

الجمعة ١٢ نوفمبر:

بدأ العدو الساعة ٢٣٠٠ أمس حتى الصباح.. يضربنا

بالقنابل ضربًا شديدًا..

عُقد مؤتمر الساعة ١٠٠٠..

وعرض علينا طلب من القيادة بالانسحاب..

ولو بتكسير العتاد..

وأبدينا آراءنا..

وكان الرأي أن ذلك مستحيل..

فإن العدو من جهة الشرق يتحكم في كل الطرق..

وصلت إشارة عن وصول الخطابات المرسلة مع العرب..

غير أن الوسيط طلب مرور التموين، وإسرائيل وافقت..

السبت ١٣ نوفمبر:

يحاول العدو اتخاذ مواقع قريبة من مواقعنا من جهة الجنوب، والجنوب الغربي..

وقد طلبنا من الرياسة أن تضرب عليه بالمدفعية..

ولكن لم يوافق السيد بك طه..

وأخيرًا، اتفقنا على تقوية موقع الكوبري..

حتى لا تفصل الفالوجة عن عراق المنشية إذا استولى العدو عليه..

كان الصليب الأحمر منتظر وصوله الساعة (١٢٠٠)..

ولكن لم يصل..

وعلمنا في المساء أن اليهود منعوه من المرور عند التقاطعات..

وضربوا أعضاءه..

سقطت أمطار غزيرة من الساعة (٣٠٠)..

ومستمرة..

وصلني باللاسلكي، أنهم اتصلوا بالبيت..

وأن الجميع بخير..

والسيد يوسف بك يبلغ سلامه..

والعم موجود..

يبدأ في الضرب حوالي الساعة (١٦٣٠)..

ويبدأ بعد ذلك في الإزعاج طول الليل بقنابل الهاون والمدفعية..

ونحن لا نرد عليه محافظة على الذخيرة..

الأحد ١٤ نوفمبر:

استمر العدو يطلق مدفعيته وهاوناته طوال الليل..

وفي الساعة ١١٠٠ وصلت عربة عليها بيرق أبيض..

وبلغنا الضابط اليهودي أنه مستعد لإعطائنا أدوية..

وأخذ الجرحى إلى مستشفياتهم على أن يكون أسرى حرب..

وافق القائد على أخذ الأدوية..

ولكنه قال: إنه مصمم على إخلاء الجرحى بواسطة الصليب الأحمر إلى خطوطنا..

واتفقنا على أن نتصل الساعة ١٩٠٠ باللاسلكي مع اليهود لأخذ الرد بعد أن استلموا كشف الأدوية..

المطر مستمر..

وقد تقابلت مع القائد اليهودي تحت الأمطار..

وتكلمنا في مواضيع عامة..

فقال إنه يرجو أن لا نكون متعبين في المطر..

وسأل.. هل مصر الآن مطر بهذا الشكل...؟

وقال: إنه يرجو أن يسود السلام..

وأن نرجع آمنين سالمين..

وتكلم؛ فقال: إن بريطانيا هي التي زجت بنا لتحقيق أغراضها..

وإنهم قد تمكنوا من طرد الإنجليز من فلسطين..

ويرجون أن نطردهم كذلك..

وأن نتعاون سويًا..

ما زال الضرب كالعادة..

عدو خبيث لا يحفظ العهد..

الاثنين ١٥ - الثلاثاء ١٦ نوفمبر:

الضرب مستمر كالعادة..

توقفت الأمطار لكن الجو بارد..

لا يزال العدو يتخذ مواقع في الجنوب في الوحيدات وشمال العظاطة..

وأصبح قريبًا جدًا ومشرفًا على عراق المنشية... وجعلها تحت نيران أسلحته الصغيرة..

ولكنهم لم يضربوا مطلقًا..

طلبت من السيد طه ضرب مواقع العدو بالمدفعية بقنابل الانفجار الجوي..

ولكنه رفض، أيده الفسخاني..

لن يبدأ بالضرب..

قلت لهما: إن العدو الآن لا يضرب على مواقعنا.. لأنه لم يتخذ مواقع للآن..

ولكن التجربة أثبتت: أن العدو بعد أن يتخذ مواقع دفاعية كاملة سيبدأ في فتح النيران..

وأن العدو حاول عدة مرات اتخاذ مواقع في العظاطة..

ولكن لما ضرب بالهاون ٢.٤ بوصة... انسحب..

والآن لا يمكن استعمال الهاون؛ لأن الذخيرة أصبحت لا تحتمل ذلك..

ولكن لم يستمع أحد منهما لهذا الكلام..

إن أعصابهم جميعًا مضطربة..

وللآن لم يتفهموا صفات العدو الذي نقاتله..

إنه لا يحتفظ بالعهد...

كل غرضه هو تكبيدنا أي خسائر ممكنة..

ما دام الحكام غير موجودين..

أما نحن فلا زلنا نتمحك في إيقاف القتال..

حتى يبدأ اليهودي السيطرة على الموقف..

في الساعة ٢٣٠٠ اتصل بي السودانية..

وكنت نائمًا..

وفوجئت بصلاح سالم يتكلم..

ويقول: أنا صلاح يا جمال.

جيت لكم من غزة..

وقد فوجئت بذلك..

وقال: إنه سيحضر مع أحد السودانية..

ووصل مساءً بعرفة عسكريين من السودانية..

وكان في حالة يُرثى لها..

ملابسه ممزقة، وكلها طين وقواه خائرة جدًا..

وبعد أن استراح وأخذ كوبًا من الشاي..

قال: إنه خرج من غزة أمس الساعة (١٦٠٠)..

ومعه زكريا محيي الدين، وثلاث عرب أولاد، وثلاثة بغال محملة بالذخيرة والأدوية، ومبلغ مائتي جنيه..

ومع زكريا مبلغ مائتي جنيه..

وإن الأولاد قالوا: إن المسافة تُقطع في ست ساعات..

ولكنهم استمروا طوال الليل تحت الأمطار... يسيرون بين خطوط الأعداء حتى طلع النهار..

فاختبأوا في بيت..

وكان البرد فظيعًا..

ودفأوا أنفسهم تحت التبة..

وكان المشوار متعبًا جدًا..

فإن الحمولة وقعت من البغال مرات عدة..

وكانوا يحملونها..

وقابلوا دوريات يهودية مرات كثيرة في الطريق..

فكانوا يختبئون في مجاري السيل..

وكانوا يكممون أفواه البغال؛ لمنع صوتها..

ونفذت المياه التي معهم..

وقاسوا كثيرًا من العطش..

واستطاعوا بصعوبة بعد فك الحبال التي على البغال، أن يستخرجوا قليلاً من الماء من أحد الآبار في وعاء فخاري قذر.. وشربوا..

وعندما انتهى النهار بدأوا في السير في اتجاه عراق المنشية..

وحوالي الساعة ٢٢٠٠ فوجئوا بالنيران تطلق عليهم..

والعدو يشعر بهم..

ويخرج بعرباته في اتجاههم..

فجرى زكريا والعرب في جهة الشمال..

أما صلاح، فقد خارت قواه من التعب..

وسقط مكانه..

وعثر اليهود على البغال..

وانشغلوا بهم..

وأخذ صلاح يزحف في اتجاه الشمال..

حين تيقن أنهم لم يلتفتوا له..

وفوجئ عندما رأى تبة عراق المنشية..

وعادت له الحياة..

فأخذ يزحف حتى وصل للأسلاك..

وعندما مرّ من تحت أول سياج..

ووصل للسياج الثاني..

فتحت عليه نيران بنادق من خطوطنا..

فثبت في الأرض..

وصاح: أنه ضابط مصري من غزة..

فخرج إليه أحد السودانية وأحضره..

وكان في شدة الانشغال على زكريا..

ويعتقد أنه مسك..

ونام معنا..

وكانت القنابل تتساقط طول الليل..

والطائرات تغير علينا وعلى الفالوجة..

وفي الساعة ١١٠٠ عرفنا أن زكريا وصل الفالوجة..

فتوجهت مع صلاح..

وقد أطلق علينا العدو مدافع الماكينة في طريقنا إلى العربة..

ونفذنا بأعجوبة..

وعرفت أن زكريا أمضى الليلة في البئر الغربي من مواقعنا..

وصل العدو إلى البئر غرب عراق المنشية..

ولكن طرد من هناك..

عراق المنشية مكتسحة لنيران الأسلحة الصغيرة اليهودية..

الأربعاء ١٧ نوفمبر:

عقد مؤتمر من قادة الكتائب، وأركان حربها؛ للنظر في موقف التعيين..

وهل من الممكن الانسحاب إلى الخليل بعد تهديد الأسلحة الثقيلة...؟

كان الرأي الغالب، أن العملية صعبة جدًا..

وقد ترك قائد القوات الحرية لنا في هذا التصرف.. الذي لم نوافق عليه.

علمت من صلاح أن ستة مراقبين كانوا في طريقهم إلينا..

ولكن اليهود منعوهم وأسروا اثنين منهم..

غارات جوية طوال الليل على الفالوجة وعراق المنشية..

وضرب باستمرار بالمدفعية وقنابل محرقة..

عراق المنشية تضرب بالهاون باستمرار والأسلحة الصغيرة..

الخميس ١٨ نوفمبر:

احتلت كـ٢ موقعًا يشرف على التبة والخور حتى لا يصل العدو..

إشارة تنتظر معروف..

معروف يصل، ومعه لوكن وفورستاك الساعة (٢٢٠٠)..

ومعهم ثمانية خيول..

خمسة وعشرون جندي من شرق الأردن..

ومفرقعات..

الجمعة ١٩ نوفمبر:

توجهت مع معروف، ولكن لمقابلة السيد طه..

تعليمات عمليات من صبور..

السيد طه يعترض..

السبت ٢٠ نوفمبر:

قابلنا السي طه مع معروف ولوكن..

معروف ولوكن والجميع يعودون إلى الظاهرية..

ويتركون فورستاك..

في أخبار الساعة ٢٠٣٠ من مصر أن عبد الحكيم رُقي إلى رتبة صاغ..

وكذلك صلاح سالم..

استثنائي..

الاثنين ٢٢ نوفمبر:

العدو نشط جدًا..

عمل ستارة دخان صباحًا..

يضرب انفجار جوي على ستارة دخان الساعة (١٧٠٠)..

وتقدم باثنتي عشرة مصفحة، وفتح مدافع ماكينة..

فُتحت نيران عليه..

انسحب..

فورستاك يقرر الخروج مع دليل عربي..

يخرج الساعة (١٩٠٠)..

ويعود مرعوبًا بعد ساعتين..

الثلاثاء ٢٣ نوفمبر:

إشارة تنتظر معروف ما بين (٢٢٠٠ و١٠٠)..

العدو يتخذ مواقع جديدة..

ك١ تهاجم العدو أمام الكوبري..

معروف يصل الساعة (٢٢٣٠)..

الأربعاء ٢٤ نوفمبر:

توجهت مع معروف ونعمان إلى الفالوجة..

تناقشنا في موضوع الانسحاب..

معروف غادرنا مع (...) الساعة ١٩٣٠..

ومعه جرحى..

الخميس ٢٥ نوفمبر:

إشارة من الرئاسة أنها تتفاوض؛ لحل الموقف..

وسحبنا..

إشارة من بيت لحم: إن معروف هوجم في الطريق..

وأنه وصل سالمًا..

ولكن لم يصل الجمال ورياض والسروجي السيد..

وكلاً من باشكاتب ك١، ك٢..

الجمعة ٢٦ نوفمبر:

إشارة من بيت لحم أن الجميع وصلوا..

وأن السروجي فقط مفقود..

مطر شديد من الساعة (١٥٠٠)..

السبت ٢٧ نوفمبر:

في الليل دورية قتال معادية في القطاع الجنوبي الغربي..

أطلق السودانيون نيرانًا شديدة..

واستهلكوا عددًا كبيرًا من الذخيرة..

تكلمت مع قائد السرية في صباح اليوم..

وأفهمته: أن العدو ربما سيتخذ هذه الطريقة لاستهلاك الذخيرة..

فإذا وصلت دورية قتال فلا تردوا عليها..

الأحد ٢٨ نوفمبر:

وصلت دورية قتال في الليل كما تنبأنا..

وأُطلقت نيرانًا شديدة على مواقع السرية السودانية..

ولكن السرية لم تجب عليها بطلقة واحدة..

الاثنين ٢٩ نوفمبر:

وصلت دورية قتال كاليومين الماضيين..

لم ترد عليها السرية السودانية..

الثلاثاء ٣٠ نوفمبر:

كان الصول عوض بائتًا في الفالوجة لإحضار أخشاب..

وعاد صباح اليوم الساعة ١٠٠٠ في حمالة من ك١..

ولكن قوبلوا بمفرقعات في الطريق..

نُسفت الحمالة..

وتوفي الصول، وجُرح ٣ عساكر..

في الساعة ١٨٠٠ خرجت جماعة من فصيلة الاقتحام، لرفع الألغام الموجودة في الطريق..

فإن سلام بلغ أن الحمالة قابلة لغمًا..

وأن الطريق به ألغام.. ولكن لم نجد به ألغامًا..

بل وجدنا كيسًا به مفرقعات، وحفرة كبرى عند الحمالة المنسوفة..

وعرفنا أن العدو وضع كيسين..

واحد على كل جانب من الطريق.

وعادت الدورية..

وأخذت قطن بارود لنسف الكيس..

ولكن لما وصلت... وقعت في كمين دبره العدو..

فقتل شاويش الاقتحام وجرح اثنين..

خرجت دورية بعد ذلك، وأحضرت الجرحى..

صابون وسجائر وجبنة فلمنك.

الأربعاء ١ ديسمبر:

في الساعة ١٨٠٠ خرجت دورية ونسفت الكيسين..

بعثت دورية للمرور على الطريق يوميًا الساعة (٤٠٠)..

أخبار.. أن قافلة تموين ستصل الساعة ١١٠٠ اليوم..

وفي المساء علمنا أن اليهود استولوا على القافلة عند عراق سويدان بعد تفتيشها..

بحجة أنهم وجدوا بها صندوق كراستات..

وأن المأكولات التي بها مصادرة من سفينة من مصر باسم اليهود..

الخميس ٢ ديسمبر:

عند عودة دورية الساعة (٤٠٠)..

وجدت الشاويش رضوان قتيلاً..

فأحضرته..

السبت ٤ ديسمبر:

وصل ثلاث جوابات من الوالد..

وجواب من عز العرب..

أُذيعت إنعامات عن حملة فلسطين..

أنعم على البك بنجمة فؤاد الذهبية..

الأحد ٥ ديسمبر:

وصلني خطاب من العم يقول: إن تحية معتكفة في المنزل لا تخرج.. وأنهم بخير..

لقد تألمت جدًا..

فلا شيء يشغلني إلا لقاء الأولاد..

فإن حياتي ليس لها أي قيمة إلا لأجلهم..

الاثنين ٦ ديسمبر:

قُتل عسكري الساعة ١٧٠٠ وهو قائم بالمراقبة بفعل نيران العدو..

لا زال العدو يضرب البلدة بالأسلحة الصغيرة باستمرار..

حاول العدو التجمع الساعة ١١٠٠ جهة الجنوب..

ولكن ضربناه بالهاون ٤. ٢ بوصة والمدفعية..

فتشتت..

الثلاثاء ٧ ديسمبر:

وصل من الفالوجة سجاير للضباط والعساكر..

وصابون للضباط والعساكر..

وجبنة فلمنك وبسطرمة وظروف وجوابات..

ومبلغ مائة جنيه، وجرائد متفرقة حتى ٤ ديسمبر..

عدد الجرحى من الكتيبة من ٦ نوفمبر إلى اليوم ٤٢ جريحًا..

الجمعة ١٠ ديسمبر:

أذاع راديو لندن أن الحكومة اليهودية أرسلت إلى بانش: أنها مستعدة للموافقة على سحب القوات المصرية الموجودة في الفالوجة إلى مكان آخر..

كان خبرًا مفاجئًا..

ولو أنني لا آمن لكلام اليهود..

فإن اتفاقية إيقاف النار في أواخر أكتوبر... لم تنفذ عندنا حتى الآن..

فما زال إطلاق النار مستمرًا..

ولا يمر يوم بدون جرحى أو قتلى..

ولكن هذا الخبر كان له فرحة كبرى عند الجميع..

مطر طول الليل خفيف..

السبت ١١ ديسمبر:

أذاع راديو إسرائيل أن القوات المصرية هاجمت قرية (ين يم) الدنجور..

مطر طوال الليل غزير..

الأحد ١٢ ديسمبر:

أكلت اليوم (كوسة) لأول مرة منذ ١٦ أكتوبر ١٩٤٨..

و لا أعرف كيف عثروا عليها..

وصلت رسالة من نائب رئيس إدارة الجيش في الميدان يسأل..

هل أرغب في تحويل جزء من مرتبي ولمن...؟..

فهل معنى ذلك أن التحويل الذي أرسلته لم ينفذ؟..

أذاع راديو إسرائيل: أن اليهود سيعينون مندوبًا من طرفهم؛ للتباحث مع كبير المراقبين في الهدنة الدائمة مع مصر وسحب قوات الفالوجة..

مطر طول الليل غزير..

وكذلك طول النهار..

الأرض عبارة عن أوحال..

الشمس لم تظهر..

الاثنين ١٣ ديسمبر:

ما زال المطر مستمرًا..

الثلاثاء ١٤ ديسمبر:

فتحت قواتنا النار على قوة يهودية كانت تحاول نجدة القوات الموجودة حولنا..

ويعتقد أنها أُصيبت بخسائر..

وكان معها جمل؛ لأن الأرض لا تصلح لسير العربات..

وقد أصيب الجمل..

الأربعاء ١٥ ديسمبر:

عسكري جريح واثنين مدنيين أطفال في وقت الظهر..

الساعة ٢٠٠٠ فتح العدو نيران مدفع الماكينة فجأة على عراق المنشية بشدة من الجنوب والشرق..

وأطلق قنابل الهاون..

فقد انتظرنا أن يقوم بهجوم..

ولكن استمر ذلك حتى الساعة (٢٢٠٠)..

ثم هدأ إطلاق النيران..

لا خسائر رغم شدة النيران وتساقط الرصاص في كل مكان بكثرة.. وكان حوش المنزل الساكنين به، ميدان لسقوط

عدد كبير من الرصاص..

وصلني في الصباح جواب من تحية..

أول جواب منذ شهرين من قبل الحصار..

وفيه تقول: إن جوابي وصلها.. وأنها مطمئنة..

وجوابين من الوالد.. وجواب من العم..

أرسلت جوابين لتحية..

وجواب للوالد.. جواب للعم.. وجواب لعز العرب.. وجواب لحمدي به شيك بخمسين جنيهًا لتوصيلها للمنزل..

وصل لنا سجائر وشاي للجنود من الفالوجة..

وصلت جرائد الخميس والجمعة والسبت والأحد الماضية والمصور وأخبار اليوم..

الخميس ١٦ ديسمبر:

أذاع راديو إسرائيل أن رايلي ذهب إلى غزة للاتفاق مع المصريين..

ولكن لم يجد اهتمامًا بالمفاوضات من اليهود..

وأن موقف الإسرائيليين من قوات الفالوجة متوقف على قبول المصريين المفاوضة مع إسرائيل..

الجمعة ١٧ ديسمبر:

أصيبت امرأة برصاصة في بطنها..

وقد عمل لها الدكتور صفوت عملية استغرقت ٤ ساعات في ظروف عجيبة غير مناسبة..

ووجد في المصارين (١٦ خرم)..

ولكنها توفيت في الصباح بعد أن نجحت العملية نتيجة إهمال التمرجي الذي لم يبلغ الدكتور أن حالتها ساءت..

إذ أنه انتظر وبلغه أنها توفيت..

السبت ١٨ ديسمبر:

كلمت كمال بشارة.. وطلبت منه أن يطلب المنزل (السيد بك يوسف) ويبلغه أني بخير..

اتصلنا صدفة ببشير وقال: إنه قريب منا وسيفتح معنا الساعة ١٥٠٠ يوميًا..

عسكري جريح جرح غير ثاقب..

الاثنين ٢٠ ديسمبر:

أذاعت إسرائيل أن رايلي عاد من مصر بعد مقابلة حيدر باشا..

الثلاثاء ٢١ ديسمبر:

أذاعت إسرائيل أن رايلي قد أبلغ حكومة إسرائيل (المزعومة): أن الحكومة المصرية رفضت الكلام في شئون الهدنة الدائمة حسب قرار مجلس الأمن، بتاريخ ١٦ نوفمبر، قبل إخلاء اليهود للنقب حسب قرار مجلس الأمن السابق بتاريخ ٤ نوفمبر..

وقالت: إن الحكومة الإسرائيلية- كانت إظهارًا لحسن نيتها- قد وافقت على سحب القوات المصرية من الفالوجة على دفعات..

أذاعت أن رد وزارة الخارجية على ذلك سيقدم إلى رايلي باكر صباحًا..

الأربعاء ٢٢ ديسمبر:

حلقت أربع طائرات وضربت الفالوجة..

وقد أصابت البوفرز واحدة منها وأسقطت خلف الجسر..

ونزل الباقون في مطار بير توفيا..

أرسل بشير من أدنا يقول: إن عنده ثلاثة رجال من عراق المنشية..

وماذا نريد حتى يرسله معهم..

أرسلنا له: أننا نريد طلقات إشارة وذخيرة ألماني وأي مأكولات وفواكه..

والحقيقة أن الأكل الآن عبارة عن قمح ولحم..

القمح منه عيش ومنه دشيشة تُطبخ كالفريك ومنه بليلة..

وصلت إشارة من الرياسة أن العدو سيحاول الهجوم هذا المساء أو باكر..

أذاعت إسرائيل رد وزارة الخارجية على رايلي وهو: أن حكومة إسرائيل تعتبر نفسها حرة التصرف بعد أن رفض المصريون الهدنة للدفاع عن فلسطين وعن كيان إسرائيل..

وإن أرادت مصر السلام.. فلها السلام، وإن أرادت الحرب.. فلها الحرب.

السبت ٢٥ ديسمبر:

حلقت طائرة معادية الساعة ٥٠٠، وضربت الفالوجة بحوالي ٦٥ قنبلة..

وضـرب العدو عراق المنشية بالهاون والأسلحة الصغيرة..

ضرب شديد لمدة ساعة..

اتصل بي السيد بك طه وقال: إنه وصلته إشارة من الرياسة تقول الآتي:

قام العدو بالهجوم على البلح وخان يونس..

ونجح في احتلال موقع أمامي..

ولكن قواتنا قامت بهجوم مضاد..

واستطاعت طرد العدو من مواقعه بعد أن تكبد خسائر شديدة..

واستولت قواتنا على قافلة من ٤٠ عربة وأسلحة ثقيلة..

وجميع خطوطنا سليمة..

والكل متشوقون لملاقاة العدو..

وصل ابن المختارة الذي توجه إلى غزة لإحضار فلوس ثمن ما أخذ من الأهالي ١٥٠٠ جنيه..

وقد حكى عما قابله في غزة..

فالقوات كثيرة جدًا والعدو ضرب وغرقت إحدى سفنه الحربية وسقطت طائرتان..

والجميع يشيدون بذكر ما تبديه القوات في عراق المنشية والفالوجة..

شجاعة الرجال في أيام عصبية..

الأحد ٢٦ ديسمبر:

حلقت طائرة في المساء، وضربت عراق المنشية..

وحلقت طائرات وضربت الفالوجة..

والنشاط مزداد جدًا بالنسبة للعدو..

لا زلت أنام في الحجرة مع القائد..

ويظهر أنه لابد من الذهاب إلى الخندق..

الطائرات تمر طول الليل..

تحلق الطائرة مدة طويلة تضرب أثناءها عشر قنابل..

هي حرب أعصاب أكثر من تأثير القنابل..

ولو أن القنابل لا تؤثر..

سقطت قنبلتان هاون على مجموعة من الأهالي فجُرح ١٢ ومات ٣..

الدكتور كثرت أعماله وجرحاه..

الاثنين ٢٧ ديسمبر:

كان هذا اليوم يومًا عصيبًا جدًا..

وبدأت شدته في الساعة ٨٣٠، عندما حلقت فوقنا خمس طائرات معادية.. وضربت البلدة بالقنابل الثقيلة جدًا..

كانت الطائرات تعمل Dive، وتنزل القنبلة فتسمع لها صوت أثناء نزولها أشنع من صوت الطائرة..

يعقبه انفجار شنيع يهز كل البلدة الصغيرة..

والخندق أيضًا..

وفي الساعة ٩٠٠ بدأ العدو يضرب عراق المنشية بالمدفعية الثقيلة..

وكان الضرب شنيعًا حتى أننا فضلنا عليه ضرب الطائرات..

واستمر هذا الضرب طول النهار حتى الساعة ٢٢٠٠ ليلاً..

وكان المعدل طلقة كل دقيقة..

وقد سقطت قنبلة على منزل المنياوي فدمرته وجرح المنياوي جرحًا بسيطًا..

وخرج ومعه مدكور ليوصله إلى المستشفى..

فسقطت بجوارهم قنبلة أخرى..

جُرح فيها مدكور جرحًا بليغًا ونُقل إلى المستشفى..

وكان الدكتور في حالة عصبية وشنيعة..

فلم يتمكن تحت هذا الضرب من الوصول للمستشفى..

وسقطت قنابل على المستشفى..

فمات مدكور..

ومات عدد من الجرحى ومن الممرضين..

وكانت الحالة شنيعة جدًا..

وفي الساعة ١٦٠٠ حلقت ست طائرات معادية..

ضربت البلدة بقنابلها الثقيلة..

وكانت البلدة الصغيرة عبارة عن جحيم مطلق..

وكانت الهاونات تشترك في ذلك..

وفي الليل كانت جميع الخطوط التي تعمل بين الرئاسة

والسرايا قطعت بعد إصلاحها في النهار تحت الضرب الشديد..

وبذلك كان الاتصال مع المواقع الدفاعية عسيرًا..

وكانت الطريقة الوحيدة هي المراسلة..

وقد اتصلنا بالفالوجة باللاسلكي على شبكة رئاسة القوات..

الثلاثاء ٢٨ - الأربعاء ٢٩ ديسمبر:

في الساعة ٢٣٠ وصل عبد الله أفندي قائد السرية السودانية..

وبلغني أن العدو دخل عراق المنشية من الجهة الجنوبية الغربية..

وأن الفصيلة السودانية الثانية انسحبت بدون قتال..

وأن الخط من (الخور الموصل إلى الفالوجة) إلى مواقع الفكرز و٦ رطل قد احتلها العدو بدون قتال..

وكانت أكبر مفاجأة وكارثة قابلتني..

وأرسلت مراسلة إلى الإبراشي حيث أنه أول من سيقابل العدو..

وكانت جميع الخطوط مقطعة..

وأرسلت إلى خالد ليقوم بفصيلتي الاحتياط..

ويمنع تقدم العدو إلى البلدة..

وإلى حسن عثمان ليجهز فصيلة من سريته..

واتصلت بأبو سبع ليجهز فصيلة والهاون ٤. ٢ بوصة ليكون مستعدًا..

حيث أنه سيكون أول نقطة بعد الحملة..

وأرسلت للمعاونة لتثبت في مواقعها وتحمي جنبها الشمال..

وصارت المعركة كالآتي:

توجه خالد ومعه الفصيلتين إلى الحملة ليسد الثغرة..

ففوجئ بالعدو الذي قذفه بالقنابل اليدوية..

فقتل عشر وتفرق الباقون..

ودخل خالد إلى منزل الإبراشي..

تقدم اليهود ودخلوا المنزل المواجه للإبراشي..

وكانت الأخبار مائعة، والليل يوشك على الانتهاء..

أرسلت فصيلة السرية الثانية إلى محل الهاون ٤. ٢ بوصة..

وأرسلت فصيلة س٤ إلى الحملة عن طريق المعاونة..

وطلبت من الفالوجة أن تضرب الخط الذي احتله العدو في مواقعنا بالمدفعية..

وكذلك طلبت من الهاون ٤ . ٢ بوصة بضربه..

وطلبت من الفالوجة سرية وحمالات وهاون..

بدأ النهار في الظهور..

وبذلك بدأنا نلم بالموقف..

العدو محتل المنزل المواجه للحملة ومنزل المختار في أعلى البلد ومنزلاً آخر والتين الشوكي..

اندفعت حمالتين من الكتيبة (ولم يكن هناك بنزين لتشغيل غيرهما) في طريق المعاونة..

وتجمعت الجنود في ميدان الجامع..

ووصل عمر وقال: إن العساكر متفرقون..

فخرج معه خليل..

وعاد خليل..

ووصل عمر مرة أخرى..

وقال: إن العساكر لا زالوا متفرقين..

فخرج معه القائد..

وعاد..

ووصل عمر مرة أخرى..

وقال: إن مافيش فايدة.. فالعساكر ما زالت متفرقة..

فطلب منه القائد أن يجمعهم.. فقال أنا تعبان لما أستريح..

وكنت حتى ذلك الوقت موجودًا بالرئاسة حتى أَلَّم بالموقف أولاً بأول.. وحتى أستطيع التصرف في الحال..

ولكن على إثر كلام عمر قررت الخروج فخرجت معه..

وجدت عساكر في طريق الجامع، وفي شارع الرئاسة..

فأخذتهم معي، وتوجهت إلى ميدان الجامع..

وكان العدو ما زال محتلاً للمنزل المواجه للحملة التي يطل على الميدان فحاصرته قواتنا من جهة الحملة ومن جهة الجامع..

وضربوا المنزل بالقنابل اليدوية واقتحموه..

وقد قُتل في هذا المنزل حوالي خمسين يهوديًا..

وبلغت أن العدو ما زال في منزل المختار..

وقبل ذلك وصلات الساعة ٦٢٠ جماعة حمالات من الفالوجة ووصل فيها حالة فيها وحيد جودة وشديد وجماعة فكرز..

فتقدم إلى التين الشوكي عند الخور شمال المعاونة وفتح نيرانًا على العدو الموجود في التين الشوكي فقتل عددًا وفر الباقي..

ولكن نيران الفكرز لاحقتهم..

وحضر شكري في عربة هامر إلى الميدان وجماعة حمالات ك١ وحالتين من ك٦..

فطلبت منهم التقدم وتطهير التين الشوكي، وسد الثغرة في الخط الدفاعي..

فتقدموا وأدوا واجبهم كاملاً..

وقد كان منزل المختار منزلاً حجريًا فطلبت مدفع ٦ رطل لضربه..

ولكن لم أجد عربة بها بنزين لسحب المدفع..

وعليه أرسلت قوة للمنزل..

وتوجهت إليه مع كمال رؤوف الذي كان معي في كل العملية..

وقد فرّ العدو إلى التين الشوكي بعد أن قُتل منه عددًا كبيرًا..

وبذلك طُهرت البلدة..

وأرسلت لأبي سبع حتى ينشر سريته، ويشترك مع السودانية في سد الثغرة التي تركها السودانيون وذهبوا إلى مواقعنا الشرقية ورفضوا التقدم..

وقد انتهت المعركة حوالي الساعة ١٠٠٠ بعد أن طهرت البلدة جميعًا..

وكان القتلى في البلد (٨٤) والأسرى (٥)..

وفي الساعة ١١٠٠ وصلت السرية التي طلبت من الفالوجة فاحتلت الجزء الخالي الذي تركه السودانية..

وكانت الحمالات قفلته..

الخميس ٣٠ ديسمبر:

كان قتلانا ٥٠ والجرحى ٤٦..

وقد ارتفعت الروح المعنوية جدًا بعد المعركة..

أبلغني قائد السرية السودانية أن إحدى عشر عسكريًا من السرية قد هربوا من المواقع إلى الخليل..

وأن خمسة عشر آخرين يرفضون العمل ويريدون الذهاب إلى غزة..

وقد أرسلناهم إلى الفالوجة..

استجوبت الأسرى وعرفت منهم الخطة..

وهي أن القوة المهاجمة عبارة عن قوة جمعت من المستعمرات من الكتيبة ٣٣..

وقد وصلوا عراق سويدان، وقد مكثوا بها ٣ أيام..

ثم وصلوا خربة عطا الله، ومكثوا بها ٢٤ ساعة..

وتحركوا منها يوم ٢٨ الساعة ٢٠٠٠ لغرض احتلال عراق المنشية..

القوة كانت ست سرايا..

تتقدم ٣ سرايا في وادي العظاطة الساعة ٢٠٠ يوم ٢٩..

سرية تحتل الخط الدفاعي عند الوادي..

وسرية تتقدم لاحتلال البلدة..

وسرية تتقدم لاحتلال.....

انتهت يوميات الصاغ جمال عبد الناصر الشخصية عند هذه الكلمة كما وردت في النصوص الأصلية لدفتر يومياته عن حرب فلسطين.



فلسفة الثورة

فلسفة الثورة

الرئيس جمال عبد الناصر

مقـــدمة:

إن هذه الخواطر ليست محاولة لتأليف كتـاب، ولا هــي محاولة لشرح أهداف ثورة ٢٣ يوليـو وحوادثهـا... إنــما هــي شيء آخر تماما...

إنها أشبه ما تكون بدورية استكشاف.

إنها محاولة لاستكشاف نفوسنا لكي نعرف من نحن وما دورنا في تاريخ مصر المتصل الحلقات.

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا في الماضي والحاضر لكي نعرف في أي طريق نسير.

ومحاولة لاستكشاف أهدافنا والطاقة التي يجب أن نحشدها لنحقق هذه الأهداف.

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا، لنعرف أننا لا نعيش في جزيرة يعزلها الماء من جميع الجهات.

هذا هو الذي قصدت إليه.. مجرد دورية استكشاف في الميدان الذي نحارب فيه في معركتنا الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الأغلال.

الجــزء الأول:

قبل أن أمضي في هذا الحديث أريد أن أقف قليلاً عند كلمة «فلسفة» إن الكلمة ضخمة وكبيرة.. وأنا أحس وأنا واقف حيالها أني أمام عالم واسع ليس له حدود، وأشعر في نفسي برهبة خفية تمنعني من أن أخوض في بحر ليس له قاع، ولا أرى له على البعد من الشاطئ الذي أقف فيه شاطئاً آخر انتهى إليه والحق أني أريد أن أتجنب كلمة فلسفة في هذا الذي سأقوله ثم أنا أظن أنه من الصعب علي أن أتحدث على فلسفة الثورة.. من الصعب لسببين:

أولهما إن الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه أساتذة يتعمقون في البحث عن جذورها الضاربة في أعماق تاريخ شعبنا.

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدمات.

إن كفاح أي شعب، جيلاً من بعد جيل، بناء يرتفع حجر فوق حجر.

وكما إن كل حجر في البناء يتخذ من الحجر الذي تحته قاعدة يرتكز عليها، كذلك الأحداث في قصص كفاح الشعوب كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه، وهو في نفس الوقت مقدمة لحدث مازال في ضمير الغيب.

ولست أريد أن أدعي لنفسي مقعد أستاذ التاريخ.... ذلك أخر ما يجري به خيالي.

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدئ، في دراسة قصة كفاح شعبنا، فأنا سوف أقول مثلاً أن ثورة ٢٣ يوليو هي تحقيق للأمل الذي راود شعب مصر، منذ بدأ في العصر الحديث يفكر في أن يكون حكمه بأيدي أبنائه، وفي أن تكون له نفس الكلمة العليا في مصيره.

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذي تمناه، يوم تزعم السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد علي والياً على مصر، باسم شعبها.

وقام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذي تمناه، يوم حاول عرابي أن يطالب بالدستور.

وقام بمحاولات متعددة، لم تحقق له الأمل الذي تمناه في فترة الغليان الفكري التي عاشها بين الثورة العرابية وثورة

سنة ١٩١٩ وكانت هذه الثورة الأخيرة- ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول- محاولة أخرى لم تحقق له الأمل الذي تمناه.

وليس صحيحاً أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التي أسفرت عنها حرب فلسطين، وليس صحيحاً كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التي راح ضحيتها جنود وضباط وأبعد من ذلك عن الصحة ما يقال أن السبب كان أزمة انتخابات نادى ضباط الجيش، إنما الأمر في رأيي كان أبعد من هذا وأعمق أغواراً.

ولو كان ضباط الجيش حاولوا أ ن يثوروا لأنفسهم لأنه قد غرر بهم في فلسطين، أو لان الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم، أو لأن اعتداء وقع على كرامتهم في انتخابات نادى ضباط الجيش، لما كان الأمر يستحق أن يكون ثورة، ولكن أقرب الأشياء إلى وصفه أنه مجرد تمرد، حتى وإن كانت الأسباب التي أدت إليه منصفة عادلة في حد ذاتها.

لقد كانت هذه كلها أسبابا عارضة وربما كان أكبر تأثير لها أنها تستحثنا على الإسراع في طريق الثورة، ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق.

وأنا أحاول اليوم بعد كل ما مر بي من أحداث، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير في الثورة، أن أعود بذاكرتي وأتعقب اليوم الأول، الذي اكتشفت فيه بذورها في نفسي إن هذا اليوم أبعد في حياتي من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ أيام ابتداء أزمة نادي الضباط، ففي ذلك كان تنظيم الضباط الأحرار قائما يباشر عمله ونشاطه، بل أنا لا أغالي إذا قلت أن أزمة انتخابات النادي أثارها أكثر من أي شيء آخر في نشاط الضباط الأحرار، فقد شئنا في ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم.

وهذا اليوم- في حياتي أيضاً- أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة، فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجوداً قبلها، وكانت منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة، وكان نشاطهم وراء الضجة التي قامت حول الأسلحة الفاسدة. بل إن هذا اليوم في حياتي أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ذلك اليوم الذي كان بداية حياتي في حرب فلسطين وحين أحاول الآن أن أستعرض تفاصيل تجاربنا في فلسطين أجد شيئا غريباً فقد كنا نحارب في فلسطين، ولكن أحلامنا كلها في مصر، كان رصاصنا يتجه إلى العدو الرابض أمامنا في خنادقه،

ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للذئاب ترعاه، وفي فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز.

في فلسطين جاءني صلاح سالم وزكريا محيي الدين واخترقا الحصار إلى الفالوجة، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية، كان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعين أن نحاول إنقاذه وفي فلسطين جلس بجواري مرة كمال الدين حسين وقال لي وهو ساهم الفكر شارد النظرات هل تعلم ماذا قال لي أحمد عبد العزيز قبل أن يموت؟ قلت... ماذا قال؟ قال كما ل الدين حسين وفي صوته نبرة عميقة وفي عينيه نظرة أعمق: لقد قال لي: اسمع يا كمال، إن ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر... ولم التق في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من اجل مصر، وإنما التقيت أيضاً بالأفكار التي أنارت أمي السبيل. وأنا اذكر أيام كنت أجلس في الخنادق وأسرح بذهني إلى مشاكلنا.

كانت الفالوجة محاصرة، وكان تركيز العدو عليها ضربا بالمدفع والطيران تركيزا هائلاً مروعاً وكثيرا ما قلت لنفسي «ها نحن هنا في هذه الجحور محاصرين، لقد غرر بنا،

دفعنا إلى معركة لم نعد لها، ولقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات، وتركنا هنا تحت النيران بغير السلاح» وحين كنت أصل إلى هذا الحد من تفكيري كنت أجد خواطري تقفز فجأة عبر ميدان القتال، وعبر الحدود، إلى مصر، وأقول لنفسي: هذا هو وطننا هناك. إنه «فالوجة» أخرى على نطاق كبير. إن الذي يحدث لنا هنا صورة من الذي يحث هناك. صورة مصغرة. وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء، وغرر به ودفع إلى معركة لم يعد لها، ولعبت بأقدار مطامع ومؤامرات وشهوات، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح!

وأكثر من هذا، ولم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معي عن مستقبل وطننا في فلسطين ولم تكن التجارب هي التي قرعت أفكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره، بل أن الأعداء أيضاً لعبوا دورهم في تذكيرنا بالوطن ومشاكله ومنذ أشهر قليلة قرأت مقالات كتبتها عني ضابط إسرائيلي اسمه «يردهان كوهين» ونشرتها له جريدة «جويشن أوبزرفر» وفي هذه المقالات روى الضابط اليهودي كيف التقى بي أثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة وقال: «ولقد كان الموضوع

الذي يطرقه جمال عبد الناصر معي هو كفاح إسرائيل ضد إنجليز، وكيف نظمنا حركة مقاومتنا السرية لهم في فلسطين وكيف استطعنا أن نجد الرأي العام في العالم ورائنا في كفاحنا ضدهم».

ثم أن هذا اليوم- اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة في نفسي- أبعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذي كتبت بعده خطاباً إلى صديق قلت له فيه: «ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين؟» الحقيقة أني أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة في يده بقصد التهديد فقط، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأي امرأة من العاهرات.

وطبعاً هذا حاله أو تلك عادته. أما نحن، أما الجيش، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح المعنوية، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن الفساد واللهو أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة، أصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا- مع ضعفهم الظاهر- ويردوا للبلاد كرامتها،

ويغسلوها بالدماء، ولكن غداً لناظره قريب... لقد حاول بعضهم بعد الحادث أن يعملوا شيء بغية الانتقام، ولكن الوقت كان قد فات، أما القلوب فكلها نار وأسى.

والواقع أن هذه الحركة... إن هذه الطعنة ردت الروح إلى بعض الأجساد، وعرفتهم أن هذه كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها وكان درساً قاسياً. وكذلك فان هذا اليوم أبعد في حياتي من الفوران الذي عشت فيه أيام كنت طالبا أمشي مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣وقد عاد دستور ١٩٢٣ بالفعل في سنة ١٩٣٥.. وأيام كنت أسعى مع وفود الطلبة، إلى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر، وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على أثر هذه الجهود وأذكر أنني في فترة الفوران هذه كتبت خطاباً إلى صديق من أصدقائي قلت فيه، وكان التاريخ ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥: «أخي...خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس في التليفون وقد سألته عنك فأخبرني أنك موجود في المدرسة ...لذلك عولت على أن أكتب إليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونياً قال الله تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ فأين تلك القوة التي نستعد بها لهم؟ إن الموقف اليوم الدقيق،

ومصر في موقف أدق ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت، فان بناء اليأس عظيم الأركان، فأين من يدم هذا البناء؟

ثم مضيت في هذا الخطاب إلى آخره..

وإذن فمتى كان ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة في أعماقي؟

انه بعيد فإذا أضيف إلى هذا كله، أن تلك البذور لم تكن كامنة في أعماقي وحدي، وإنما وجدتها كذلك في أعماق كثيرين غيري هم الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها داخل كيانه، لا تضح إذن إن هذه البذور ولدت في أعماقنا حين ولدنا، وإنها كانت أملاً مكبوتاً خلقه في وجداننا جيل سبقنا.

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح السبب الأول الذي من أجله وجدت من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة وقلت إن هذا الحديث يلزمه أساتذة يتعمقو ن في البحث عن جذورها الضاربة في أعماق تاريخ شعبنا.

أما السبب الثاني: فهو أنني كنت بنفسي داخل الدوامة العنيفة للثورة، والذين يعيشون في أعماق الدوامة قد تخفى

عليهم بعض التفاصيل البعيدة عنها. وكذلك كنت بأيماني وعقلي وراء كل ما حدث، وبنفس الطريقة التي حدث بها، وإذن فهل أستطيع أن أتجرد من نفسي حين أتكلم عنه، وحين أتكلم عن المعاني المستترة وراءه؟ أنا من المؤمنين بأنه لا شيء يمكن أن يعيش في فراغ.. حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش في فراغ.. والحقيقة الكامنة في أعماقنا هي: ما نتصوره أنه الحقيقة أو بمعنى أصح: هو الحقيقة مضاف إليه نفوسنا..... نفوسنا هي الوعاء الذي يعيش فيه كل ما فينا وعلى كل هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه، حتى الحقائق.

وأنا أحاول بقدر ما تستطيع طاقتي البشرية أن أمنع نفسي من أن تغير كثيرا من شكل الحقيقة، ولكن إلى أي حد سوف يلازمني التوفيق؟ هذا سؤال..... وبعده أريد أن أكون منصفا لنفسي، ومنصفا لفلسفة الثورة، فأتركها لتاريخ يجمع شكلها في نفسي، وشكلها في نفوس غيري، وشكلها في الحوادث جميعاً، ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة... .

وإذن فما الذي أريد أن أتحدث عنه إذا كنت قد استبعدت كلمة «فلسفة»؟!

الواقع إن الذي أملكه في هذا الصدد شيئين:

أولهما: مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم، ثم شكل الفكرة المحددة، ثم شكل التدبير العملي، ثم وضع التنفيذ الفعلي في منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن..

وثانيهما : تجارب وضعت هذه المشاعر، بأملها المبهم، وفكرتها المحددة، وتدبيرها العملي، موضع التنفيذ الفعلي في منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الأن..

وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث.... لطالما ألح على خواطري سؤال:

هو «هل كان يجب أن يقوم، نحن الجيش، بالذي قمنا به في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢؟».

لقد قلت منذ سطور، إن ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيق لأمل كبير راود شعب مصر، منذ بدأ العصر الحديث يفكر أن يكون حكمه في أيدي أبنائه، وفي أن تكون له نفس الكلمة العليا في مصيره .

- لماذا كان تحرك الجيش لتحقيق الثورة حتمياً؟

وإذ كان الأمر كذلك، ولم يكن الذي حدث يوم ٢٣ يوليو تمرداً عسكرياً، وليس ثورة شعبية، فلماذا قدر للجيش، دون غيره من القوى، أن يحقق هذه الثورة؟

ولقد آمنت بالجندية طول عمري، والجندية تجعل للجيش واجباً واحداً، هو أن يموت على حدود وطنه، فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطراً للعمل في عاصمة الوطن، لا على حدوده؟ ومرة أخرى، دعوني أنبه إلى أن الهزيمة في فلسطين، والأسلحة الفاسدة، وأزمة نادي الضباط ...لم تكن المنابع الحقيقية التي تدفق منها السيل، لقد كانت كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق، ولكنها – كما سبق أن قلت- لا يمكن أبداً أن تكون هي الأصل والأساس.

وإذن لماذا وقع على الجيش هذا الواجب؟

قلت: إن هذا السؤال طالما ألح على خواطري ألح عليها ونحن في دور الأمل والتفكير والتدبير بعد ٢٣ يوليو وألح عليها في مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو ولقد كانت أمامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب أن نقوم بالذي قمنا به.

كنا نقول: إذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به؟ وكنا نقول: كنا نحن الشبح الذي يؤرق به الطاغية أحلام الشعب، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول إلى الطاغية فيبدد أحلامه هو.. وكنا نقول غير هذا كثيراً، ولكن الأهم من كل

ما كنا نقوله، إننا كنا نشعر شعوراً يمتد إلى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب واجبنا، وإننا إذا لم نقم به فإننا نكون كأننا قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها.

ولكني أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح في خيالي إلا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو... وكانت تفاصيل هذه التجربة، هي بعينها تفاصيل الصورة.

وأنا أشهد أنه مرت علي بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسي وزملائي وباقي الجيش بالحماقة والجنون بسبب الذي صنعناه في ٢٣ يوليو.

لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة، وإنها لا تنتظر إلا الطليعة تقتحم أمامها السور، فتندفع الأمة وراءها صفوفاً متراصة منتظمة تزحف زحفاً مقدساً إلى الهدف الكبير... وكنت أتصور دورنا على دور طليعة فدائيين، وكنت أظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات، ويأتي بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير، بل كان الخيال يشط بي أحيانا فيخيل إلي أني أسمع صليل الصفوف المتراصة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم إلى الهدف الكبير، أسمع

هذا كله ويبدو في سمعي من فرط إيماني به حقيقة مادية، وليس مجرد تصورات خيال.

ثم فاجأني الواقع بعد ٢٣ يوليو..

- الطليعة الثورية والجموع الشعبية:

قامت الطليعة بمهمتها، واقتحمت سور الطاغيان، وخلعت الطاغية، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير... وطال انتظارها.. لقد جاءتها جموع ليس لها آخر.. ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال! كانت الجموع التي جاءت أشياعاً متفرقة، وفلولاً متناثرة، وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر.. وساعتها أحسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة.

وإنما من هذه الساعة بدأت.. كنا في حاجة إلى النظام، فلم نجد وراءنا إلا الفوضى.. كنا في حاجة إلى الاتحاد، فلم نجد وراءنا إلا الخلاف.. وكنا في حاجة إلى العمل، فلم نجد وراءنا إلا الخنوع والتكاسل.. ومن هنا وليس من أي شيء آخر، أخذت الثورة شعارها.

ولم نكن على استعداد.. وذهبنا نلتمس الرأي من ذوي الرأي، والخبرة من أصحابها. ومن سوء حظنا لم نعثر على شيء كثير... كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر، وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلى هدم فكرة أخرى، ولو أطعنا كل ما سمعناه، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار، ولما كان لنا بعدها ما نعمله إلا أن نجلس بين الأشلاء الأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس.

وانهالت علينا الشكاوي والعرائض بالألوف ومئات الألوف، ولو كانت أن هذه الشكاوي والعرائض كانت تروي لنا حالات تستحق الأنصاف، أو مظالم يجب أن يعود إليها العدل، لكان الأمر منطقياً ومفهوماً، ولكن معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام... كأن الثورة قامت لتكون سلاحاً في يد الحاقدين والمبغضين! ولو أن أحد سألني في تلك الأيام، ما أعز أمانيك؟ لقلت له على الفور: أن أسمع مصرياً يقول كلمة إنصاف في حق مصري آخر. وأن أحس أن مصرياً قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لإخوانه المصريين. وأن أرى مصرياً يكرس وقته لتسفيه أراء مصري آخر.

وكانت هناك بعد ذلك كلمة أنانية فردية مستحكمة... كانت كلمة «أنا» على كل لسان... كانت هي الحل لكل مشكلة، وهي الدواء لكل داء ... وكثيراً ما كنت أقابل كبراء- أو هكذا تسميهم الصحف- من كل الاتجاهات والألوان، وكنت أسأل الواحد منهم عن مشكلة ألتمس عنده حلالها، فلم أكن أسمع إلا «أنا».. مشاكل الاقتصاد «هو» وحده يفهمها، أما الباقون جميعاً فهم في العلم أطفال يحبون. ومشاكل السياسة «هو» وحده الخبير، أما الباقون جميعاً فما زالوا في «ألف باء» لم يتقدموا بعدها حرفاً واحداً. وكنت أقابل الواحد من هؤلاء، ثم أعود إلى زملائي فأقول لهم في حسرة: لا فائدة.. هذا الرجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك في جزائر هاواي لما وجدنا عنده إلا كلمة «أنا»!

أذكر مرة كنت أزور فيها إحدى الجامعات ودعوت أساتذتها وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء. وتكلم أمامي منهم كثيرون... وتكلموا طويلا... ومن سوء الحظ أن أحد منهم لم يقدم لي أفكار، وإنما كل واحد منهم لم يزد على أن قدم لي نفسه، وكفاياته الخلقية وحدها تعمل المعجزات، ورمقني كل واحد منهم بنظرة الذي يؤثرني على

نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود!. وأذكر أني لم أتمالك نفسي فقمت بعدها أقول لهم: «إن كل فرد منا يستطيع في مكانه أن يصنع المعجزات، إن واجبه الأول أن يعطي كل جهده لعمله، ولو أنكم، كأساتذة جامعات، فكرتم في طلبتكم، وجعلتموهم- كما يجب- عملكم الأساسي، لاستطعتم أن تعطونا قوة هائلة لبناء الوطن. إن كل واحد منا يجب أن يبقى في مكانه ويبذل فيه كل جهده. لا تنظروا إلينا، لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا إلا في صفوف الجيش كجنود محترفين، وإذن لبقينا فيه». ولم أشأ ساعتها أن اضرب لهم المثل في أعضاء مجلس قيادة الثورة ولم أشأ أن أقول لهم أنهم قبل أن يدعوهم الطارئ الذي دعاهم إلى الواجب الأكبر كانوا يبذلون في عملهم كل جهدهم.

ولم أشأ أن أقول لهم إن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة في كلية أركان حرب، وهذا دليل امتياز من ناحيتهم كجنود محترفين. وكذلك لم أشأ أن أقول لهم أن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة، هم عبد الحكيم عامر،

وصلاح سالم، وكما الدين حسين، رقوا ترقيات استثنائية في ميدان القتال في فلسطين. لم أشأ أن أقول لهم شيئاً من هذا، لأني لا أريد أن أفاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم أخوتي وزملائي.

- أزمة نفسية:

وأعترف إن هذا الحال كله سبب لي أزمة نفسية كئيبة.

ولكن التجارب فيما بعد، وتأمل هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية، خففت وقع الأزمة في نفسي، وجعلتني ألتمس لهذا كله أعذار من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامي- إلى حد ما- الصورة الكاملة لحالة الوطن، وأكثر من هذا أعطتني الجواب على سؤال الذي قلت انه لطالما راودني، وهو: «هل كان يجب أن نقوم، نحن الجيش، بالذي قمنا به في ٢٣ يوليو؟» والجواب: نعم، ولم يكن هناك مهرب أو مفــر!

- ثورتان في وقت واحد :

وأنا الآن أستطيع أن أقول إننا نعيش في ثورتين وليس في ثورة واحدة. ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان ثورة سياسية: يسترد بها حقه في حكم نفسه بنفسه من يد

طاغية فرض عليها، أو من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه. ثورة اجتماعية: تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد.

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشري شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معاً. وإنما فصل بين الواحد والثانية مئات من السنين، أما فان التجربة الهائلة التي امتحن بها شعبنا هي أن تعيش الثورتان معاً في وقت واحد.

وهذه التجربة الهائلة مبعثاً أن لكل من الثورتين ظروفاً مختلفة تتنافر تنافراً عجيباً، وتتصادم تصادماً مروعاً. وأن الثورة السياسية تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة وترابطها وتساندها ونكرانها لذاتها في سبيل الوطن كله.

الثورة الاجتماعية، من أول مظاهرها، نزلزل القيم وتخلخل العقائد، وتصارع المواطنين مع أنفسهم أفراد وطبقات، وتحكم الفساد والشك والكراهية.. والأنانية.

وبين شقي الرحى هذين، قدر لنا أن نعيش اليوم في ثورتين: ثورة تحتم علينا أن نتحد، ونتحاب، ونتفانى في الهدف، وثورة تفرض علينا- برغم إرادتنا- أن نتفرق، وتســـود البغضاء ولا يفكر كل منا إلا في نفسه.

وبين شقي الرحى هذين- مثلاً- ضاعت ثورة ١٩١٩ ولم تستطع أن تحقق النتائج التي كان يجب أن تحققها. الصفوف التي تراصت في سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان، لم تلبث إلا قليلاً حتى شغلها الصراع فيما بينها أفراد وطبقات. وكانت النتيجة فشلاً كبيراً، فقد زاد الطغيان بعدها تحكماً فينا، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة، أو بصنائع الاحتلال المقنعة التي كان يتزعمها في ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق، ولم يحصد الشعب إلا الشكوك في نفسه والكراهية والبغضاء والأحقاد فيما بين أفراده وطبقات.

وشحب الأمل الذي كان ينتظر أن تحققه ثورة ١٩١٩... ولقد قلت لقد شحب الأمل ولم أقل تلاشى، ذلك لآن قوى المقاومة الطبيعية التي تدفعها الآمال الكبيرة التي تراود شعبنا، كانت لا تزال تعمل عملها وتستعد لمحاولة جديدة.

وكان ذلك هو الحال الذي ساد بعد ثورة ١٩١٩ والذي فرض على الجيش أن يكون وحده القوة القادرة على العمل. كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرب ما بين أفرادها إطار واحد، يبعد عنهم إلى حد ما صراع الأفراد والطبقات، وأن

تكون هذه القوة من صميم الشعب، وان يكون في استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض، وأن يكون في يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملاً شريفاً حاسماً، ولم تكن هذه الشروط تنطبق إلا على الجيش.

وهكذا لم يكن الجيش – كما قلت – هو الذي حدد دوره في الحوادث، وإنما العكس كان أقرب إلى الصحة، وكانت الحوادث وتطوراتها هي التي حددت للجيش دوره في الصراع الكبير لتحرير الوطن.

ولقد أدركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على إدراكنا الكامل لطبيعة الظروف التي نعيش فيها من تاريخ وطننا، فإننا لم نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرة قلم، وكذلك لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة أو نقدمها ونتحكم في الزمن .... وكذلك لم يكن في استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندي المرور فنوقف مرور ثورة حتى تمر ثورة أخرى، ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام، وإنما كان الشيء الوحيد الذي نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الإمكان وننجو من أن يطحننا شقا الرحى.

وكان لابد أن نسير في طريق الثورتين معاً. ويوم سرنا في طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروقاً عن عرشه سرنا خطوة مماثلة في طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد الملكية.

وما زلت أعتقد حتى اليوم انه ينبغي أن تظل ثورة ٢٣ يوليو محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة، لكي تستطيع أن تحقق معجزة السير في ثورتين في وقت واحد، ومهما يبدو في بعض الأحيان من التناقض في تصرفاتنا.

وحين جاءني واحد من أصدقائي يقول لي: «أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الإنجليز. وأنت في نفس الوقت تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر في عملها». استمعت إليه، وكانت في خيالي أزمتنا الكبيرة، أزمة شقي الرحى: أزمة تقتضينا أن نتحد صفاً واحداً وننسى الماضي.

وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الضائعة لقيم الأخلاق ولا ننسى الماضي! ولم أقل لهذا الصديق: إن منفذنا الوحيد إلى النجاة، أن نحتفظ- كما قلت – بسرعة الحركة والمبادأة، وبالقدر على أن نسير في طريقين في وقت واحد. ولم أشأ أنا ذلك، ولا شاءه كل الذين شاركوا في ٢٣ يوليو. ولكن القدر شاء، وتاريخ شعبنا، والمرحلة التي يمر بها اليوم.

الجـزء الثـاني:

ولكن ما الذي نريد أن نصنعه؟ وما الطريق إليه؟ الحق أني في معظم الأحيان كنت اعرف الإجابة عن السؤال الأول. وأخال أني لم أكن وحدي المنفرد بهذه المعرفة، وإنما كانت تلك المعرفة أملاً أنعقد عليه إجماع جيلنا كله. أما الإجابة عن السؤال الثاني «وما طريقنا إلى هذا الذي نريد؟» فأنا أعترف إنها تغيرت في خيالي كما لم يتغير شيء أخر، وأكاد أعتقد أنها موضوع الخلاف الأكبر في هذا الجيل.

ومما من شك في أننا نحلم بمصر المتحررة القوية.. ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصري ومصري. أما الطريق إلى التحرر والقوة.. فتلك عقدة العقد في حياتنا ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، وظللت أواجهها بعد ذلك كثيراً حتى اتضحت لي زوايا كثيرة كانت في الظلال تسقط عليها فتخفيها، وبدت أما بصيرتي أفاق كان الظلام الذي ساد وطننا قروناً طويلة يلفها فلا أراها.

ولقد أحسست منذ انبثق الوعي في وجداني، إن العمل الإيجابي وجب أن يكون طريقنا ولكن أي عمل! ولقد تبدو كلمة «العمل الإيجابي» على الورق كافية لتحل المشكلة.

ولكنها في الحياة وفي الظروف العسيرة التي عاشها جيلنا وفي المحن التي كانت تنشب أظفارها في مقدرات وطننا، لم تكن كافية.

وفي فترة من حياتي كانت الحماسة هي العمل الإيجابي في تقديري. ثم تغير مثلي الأعلى في العمل الإيجابي وأصبحت أرى أنه لا يكفي أن تضج أعصابي وحدي بالحماسة، وإنما على أن أنقل حاستي كي تضج بها أعصاب الآخرين.. وفي تلك الأيام قدت مظاهرات في مدرسة النهضة، وصرخت من أعماقي بطلب الاستقلال التام، وصرخ ورائي كثيرون.. ولكن صرخنا ضاع هباءً بددته الرياح أصداء واهنةً لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور. ثم أصبح العمل الإيجابي في رأي أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة ببيوتهم واحداً واحداً تطلب إليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة.. ولكن اتحادهم على كلمة واحدة كان فجيعة لإيماني. فإن الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦.

وجاءت الحرب العالمية الثانية وما سبقها بقليل على شبابنا فألهبته وأشاعت النار في خلجاتهم فبدأ اتجاهنا، اتجاه

جيل بأكمله يسير إلى العنف. وأعترف- ولعل النائب العام لا يؤاخذني بهذا الاعتراف- إن الاغتيالات السياسية توهجت في خيالي المشتعل في تلك الفترة على أنها العمل الإيجابي الذي لا مفر من الإقدام عليه إذ كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا.

وفكرت في اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التي تقف بين وطننا وبين مستقبله، ورحت أفند جرائمهم، وأضع نفسي موضع الحكم على أعمالهم، وعلى الأضرار التي ألحقها بهذا الوطن، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذي يجب أن يصدر عليهم. وفكرت في اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا. ولم أكن وحدي في هذا التفكير. ولما جلست مع غيري انتقل بنا التفكير إلى التدبير. وما أكثر الخطط التي رسمتها في تلك الأيام، وما أكثر الليالي التي سهرتها، أعد العدة للأعمال الإيجابية المنتظرة.

كانت حياتنا في تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة. كانت لنا أسرار هائلة، وكانت لنا رموز، وكنا نتستر بالظلام، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل، وكانت طلقات الرصاص هي الأمل الذي نحلم به !. وقمنا بمحاولات

كثيرة على هذا الاتجاه، ومازالت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع في الطريق إلى نهايته.

- طريق العنف لن يحقق الثورة:

والحق أنني لم أكن في أعماقي مستريحاً إلى تصور العنف على أنه العمل الإيجابي الذي يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا. كانت في نفسي حيرة، تمتزج فيها عوامل متشابكة، عوامل من الوطنية ومن الدين، ومن الرحمة ومن القسوة، ومن الإيمان ولم ومن الشك، ومن العلم ومن الجهل.. ورويداً رويداً وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التي توهجت في خيالي، تخبو جذوتها وتفقد قيمتها في قلبي كتحقيق للعمل الإيجابي المنتظر.. وأذكر ليلة حاسمة في مجرى أفكاري وأحلامي في هذا الاتجاه، كنا قد أعددنا العدة للعمل واخترنا واحداً قلنا أنه يجب أن يزول من الطريق. ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل. وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد إلى بيته في الليل.

ورتبنا فرقة الهجوم التي تتولى إطلاق النار، ورتبنا فرقة الحراسة التي تحمي فرقة الهجوم، ورتبنا فرقة تنظيم الإفلات إلى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح. وجاءت الليلة الموعودة.

وخرجت بنفسي مع جماعة التنفيذ وسار كل شيء طبقاً لما تصورناه.. كان المسرح خالياً كما توقعنا، وكمنت الفرق في أماكنها التي حددت لها، اقبل الواحد الذي كان يجب أن يزول، وانطلق نحوه الرصاص.. وانسحبت فرقة التنفيذ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة، وبدأت عملية الإفلات إلى النجاة، وأدرت محرك سيارتي وانطلقت أغادر المسرح الذي شهد عملنا الإيجابي الذي رتبناه. وفجأة دوت في سمعي أصوات صراخ وعويل، ولوعة امرأة ورعب طفل، ثم استغاثة متصلة محمومة وكنت غارقاً في مجموعة من الانفعالات الثائرة، والسيارة تندفع بي مسرعة. ثم أدركت شيئاً عجيباً. كانت الأصوات مازالت تمزق سمعي. الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة.. لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسري الصوت، ومع ذلك بدأ ذلك كله يلاحقني ويطاردني. ووصلت إلى بيتي، واستلقيت على فراشي، وفي عقلي حمى وفي قلبي وضميري غليان متصل. وكانت أصوات الصريخ والعويل والولولة والاستغاثة مازالت تطرق سمعي.

ولم أنم طوال الليل... بقيت مستلقياً على فراشي في

الظلام، أشعل سيجارة وراء سيجارة، وأسرح مع الخواطر الثائرة، ثم تتبدد كل خواطري على الأصوات التي تلاحقني:

• أكنت على حق؟. وأقول لنفسي في يقين: دوافعي كانت من أجل وطني.

• أكانت تلك وسيلة لا مفر منها؟. وأقول لنفسي في شك: ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل؟.

• أيمكن حقاً أن يتغير مستقبل بلدنا إذا خلصناه من هذا الواحد أو من غيره، أم المسألة أعمق من هذا وأقول لنفسي في حيرة: أكاد أحس أن المسألة أعمق.

• إننا نحلم بمجد أمة، فما هو الأهم: أيمضي من يجب أن يمضي، أم يجئ من يجب أن يجئ؟ وأقول لنفسي وإشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر المزدحمة. بل المهم أن يجئ من يجب أن يجئ ...إننا نحلم بمجد أمة ... ويجب أن يبنى هذا المجـد.

وأقول لنفسي وما زلت أتقلب في فراشي في الغرفة التي ملأها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات:- وإذن؟- أسمع. هاتفاً يرد علي:- وإذن ماذا؟- وأقول لنفسي في يقين هذه المرة:- إذن يجب أن يتغير طريقنا... ليس ذلك هو العمل

الإيجابي الذي يجب أن نتجه إليه.. المسألة أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغوارا.

وأحس براحة نفسية صافية، ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة، تلك التي مازالت أصدائها ترن في أعماقي؟ ووجدت نفسي أقول فجأة: ليته لا يموت!. وكان غريباً أن يطلع علي الفجر وأنا أتمنى الحياة للواحد الذي تمنيت له الموت في المساء! وهرعت في لهفة إلى إحدى صحف الصباح... وأسعدني أن الرجل الذي دبرت اغتياله... قد كتبت له النجاة. ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية. وإنما المشكل الأساسية..... هي العثور عن العمل الإيجـــابي.

ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقي في شيء أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغواراً. وبدأنا نرسم الخطوة الأولى في الصورة التي تحققت مساء ٢٣ يوليو، ثورة منبعثة من قلب الشعب، حاملة لأمانيه، مكملة لنفس الخطوات التي خطاها من قبل على طريق مستقبله. ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين: أولهما: ما الذي نريد أن نصنعه!؟والثاني: وما طريقنا إليه؟.

وقلت أن الإجابة عن السؤال الأول أمل أنعقد عليه الاجتماع. أما السؤال الثاني: ما طريقنا إلى الذي نريد أن نصنعه؟ فهو الذي أطلت فيه الكلام حتى وصلت إلى ٢٣ يوليو؟ ولكن أكان الذي حدث يوم ٢٣ يوليو هو كل ما نريد أن نصنعه؟.

والمؤكد أن الجواب بالنفي، فإن تلك لم تكن إلا الخطوة الأولى على الطريق. والحق إن فرحة النجاح يوم ٢٣ يوليو لم تخدعني، ولم تصور لي أن الآمال قد تحققت، وأن الربيع قد جاء... بل لعل العكس هو الصحيح...لقد كانت كل دقيقة تحمل إلي انتصار جديداً للثورة. تحمل إلي في نفس الوقت عبئاً ضخماً ثقيلاً تلقيه بلا مبالاة فوق كتفي. ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث: «إني كنت أتصور فبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة، وأنها لا تنتظر إلا الطليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة ورائها صفوف متراصة منتظمة زاحفة». وقلت: أنني تصورت أن دورنا دور الطليعة، وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المنتظمة. ورسمت أيضاً في ذلك الجزء صورة للخلاف والفوضى والأحقاد والشهوات التي

انطلقت من عقالها في تلك اللحظات، كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها.

ولقد قلت وسأظل أقول أن تلك كانت أقسى مفاجأة في حياتي. ولكن أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذي حدث. لم يكن يمكن أن نضغط على زر كهربائي فتتحقق أحلامنا. ولم يكن يمكن في غمضة عين أن تزول رواسب قرون ومخلفات أجيال. ولقد كان من السهل وقتها- ومازال سهلاً حتى الآن- أن نريق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها وأهوائها.

- جذور التاريخ المصري:

ولكن أي نتيجة كان يمكن أن يؤدي إليها مثل هذا العمل؟ ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة مشكلة من المشاكل هو ردها إلى أصلها ومحاولة تتبع الينبوع الذي بدأت منه. وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعاً تلك الآثار وصنعت منا ما نحن عليه الآن... ولقد قلت مرة أني لا أريد أن أدعي لنفسي مقعد أستاذ

التاريخ، فذلك آخر ما يجري إليه خيالي، وقلت أني سأحاول محاولات تلميذ مبتدئ في التاريخ.

ولقد شاء لنا القدر أن نكون على مفترق طرق الدنيا.

وكثيراً ما كنا معبراً للغزاة، مطمعاً للمغامرين، ومرت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة في نفوس شعبنا إلا إذا وضعناها موضع الاعتبار. وفي رأيي أنه لا يمكن إغفال تاريخ مصر الفرعوني، ثم تفاعل الروح اليوناني مع روحنا، ثم غزو الرومان، والفتح الإسلامي وموجات الهجرة العربية التي أعقبته. وفي رأيي أيضاً أنه يجب التوقف طويلاً عند الظروف التي مرت علينا في العصور الوسطى، فإن تلك الظروف هي التي وصلت بنا إلى ما نحن عليه الآن. وإذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة في أوروبا، فقد كانت بداية عهود الظلام على وطننا. فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية، وخرج بعدها فقيراً، معدماً، منهوك القوى.

وفي نفس الوقت الذي هدته المعركة فيه، شاءت له الظروف أن يعاني الذل تحت سنابك خيول الطغاة القادمين

من المغول والشركس كانوا يجيئون إلى مصر عبيداً فيفتكون بأمرائهم ويصبحون هم الأمراء.

وكانوا يساقون إليها مماليك فلا تمضي عليهم فترة في البلد الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكا. وأصبح الطغيان والظلم والخراب، طابع الحكم في مصر على عهدهم الذي عاشت مصر في مجاهله قرون طويلة. في تلك الفترة تحول وطننا إلى غابة تحكمها وحوش ضارية.

كان المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة، وكان الصراع الرهيب بينهم على نصيب كل منهم في الغنيمة. وكانت أرواحنا، وثرواتنا، وأراضينا، هي الغنيمة. وأحياناً حينما أعود إلى تقليب صفحات من تاريخنا، أحس بالأسى يمزق نفسي إزاء تلك الفترة التي تكون فيها إقطاع طاغ لم يجعل له من عمل إلا مص دماء الحياة من عروقنا، وأكثر من هذا سحب بقايا الإحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق، وترك في أعماق نفوسنا تأثيراً يتعين علينا أن نكافح طويلاً لكي نتغلب عليه... والواقع أن تصوري لهذا التأثير يعطيني في كثير من الأحيان تفسيراً لبعض المظاهر في حياتنا السياسية.

- الشعب هو سيد بلاده وهو القائد والمعلم:

أحياناً مثلاً يخيل إلى أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر إلا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيهما علاقة. وأحياناً أثور على هذا الوضع، وأحياناً أقول لنفسي ولبعض من زملائي: لماذا لا يقدمون، ولماذا لا يخرجون من المكامن التي وضعوا فيها أنفسهم، ليتكلموا ويتحركوا؟. ولا أجد تفسيراً لهذا إلا رواسب حكم المماليك. كان الأمراء يتصارعون، ويتطاحن فرسانهم في الشوارع ويهرع الناس إلى بيوتهم يغلقونها عليم بعيدين عن هذا الصراع الذي لا دخل لهم فيه. وأحياناً يخيل إلى أننا نلجأ إلى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا في إطار الوهم ما نريد، ونستمتع نحن بهذا الوهم ونعقد به عن محاولة تحقيقه. ولم نتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد، ولم يهضموا أن البلد بلدهم وأنهم سادته وأصحاب الأمر فيه.

ولقد ظللت مرة أحاول أن أفهم عبارة كثيراً ما هتفت بها طفلة صغيرة حينما كنت أرى الطائرات في السماء. «يا ربنا يا عزيز.. داهية تأخذ الإنكليز». ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك، ولم تكن

يومها منصبة على الإنكليز وإنما حورناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتي لم تتغير وإن تغير اسم الظالم، فقد كان أجدادنا يقولون: «يا رب يا متجلي.. أهلك العثملي!». وبنفس الروح التي لم يتغير جرى المعنى على لساننا وان تغير اسم «الإنكليز» باسم العثمانيين طبقاً للتغيرات السياسية التي توالت على مصر بين العهدين! ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك؟ جاءت الحملة الفرنسية، وتحطم الستار الحديدي الذي فرضه المغول علينا، وتدفقت علينا أفكار جديدة، وتفتحت لنا أفاق لم يكن لنا بها عهد. وورثت أسرة محمد علي كل ظروف المماليك، وإن حاولت أن تضع عليها من الملابس ما يناسب زي القرن التاسع عشر. وبدأ اتصالنا بأوروبا والعالم كله من جديد. وبدأت اليقظة الحديثة! وبدأت اليقظة بأزمة جديدة.

- عواصف التغيير الثوري.

لقد كنا- في رأيي- أشبه بمريض قضى زمناً في غرفة مغلقة، واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض تختنق.. وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب، وتدافعت تيارات الهواء البارد تلسع جلد المريض

الذي مازال يتصبب عرقاً لقد كان في حاجة إلى نسمة هواء. فانطلق عليه إعصار عات وانشبت الحمى أظافرها في الجسد المنهوك القوى. هذا ما حدث لمجتمعنا تماماً، وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر!. كان المجتمع الأوروبي قد سار في تطوره بانتظام، واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر خطوة خطوة، وتلاحقت مراحل التطور واحدة أثر أخرى. أما نحن فقد كان كل شيء مفاجئاً لنا. كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجأة. كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله، خصوصاً بعد تحول التجارة مع الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح، فإذا نحن نصبح مطمع دول أوروبا ومعبراً إلى مستعمرتها في الشرق والجنوب. وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التي وصلنا إليها في تطورنا تؤهلنا لقبولها. كانت أرواحنا مازالت تعيش في آثار القرن الثالث عشر، وان سرت في نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين.

وكانت عقولنا، تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التي تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد، وكان الشوط ماضياً

والسباق مروعاً مخيفاً. وما من شك في أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود رأي عام متحد قوي في البلاد، فان الفارق بين الفرد والفرد كبير، والفارق بين الجيل والجيل شاسع. ولقد جاء علي وقت كنت أشكو فيه من أن الناس لا يعرفون ماذا يردون، وان اجتماعهم لا ينعقد على طريق واحد يسيرون فيه، ثم أدركت بعدها إنني أطلب المستحيل، وإنني أسقط من حسابي ظروف مجتمعنا... أننا نعيش في مجتمع لم يتبلور بعد، ومازال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجي بعد مع باقي الشعوب التي سبقتنا على الطريق. وأنا أعتقد، دون أن أكون في ذلك متملقاً لعواطف الناس، أن شعبنا صنع معجزة، ولقد كان يمكن أن يضيع أي مجتمع تعرض لهذه الظروف التي تعرض لها مجتمعنا، وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التي تدفقت علينا.. ولكننا صمدنا في للزلزال العنيف.

صحيح أننا نفقد توازننا في بعض الظروف، ولكن بصفة عامة، لم نقع على الأرض.

وأنا أنظر أحياناً إلى أسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التي تعيش في العاصمة.

الأب مثلاً فلاح معمم من صميم الريف. والأم سيدة منحدرة من أصل تركي. وأبناء الأسرة في مدارس على النظام الإنكليزي. وفتياتها في مدارس على النظام الفرنسي. كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين. أنظر إلى هذا وأحس في أعماقي بفهم للحيرة التي نقاسيها والتخبط الذي يفترسنا، ثم أقول لنفسي: سوف يتبلور هذا المجتمع، وسوف يتماسك، وسوف يكون وحدة قوية متجانسة، إنما ينبغي أن نشد أعصابنا ونتحمل فترة الانتقال.

تلك إذاً هي الأصول التي انحدرت منها أحوالنا اليوم، وهذه هي الينابيع التي تجري منها أزمتنا، فإذا أضفت إلى هذه الجذور الاجتماعية، ظروفاً من أجلها طردنا «فاروق»، ومن أجلها نريد تحرير بلادنا من أي جندي غريب – إذا أضفت هذا كله، لخرجنا إلى الأفق الواسع الذي نعمل فيه، والذي تهب عليه الرياح من كل ناحية. وتزمجر في جنباته العواطف الهوج، وتتوهج البروق وتهدر الرعود، والذي قلت أنه من

الظلم أن يفرض فيه علينا حكم الدم، مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات.

وإذاً ما هو الطريق؟ وما هو دورنا على هذا الطريق؟ إما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية. وإما دورنا فيه فدور الحارس فقط؟ لا يزيد ولا ينقص ...الحارس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل.

وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقاً معيناً، وطال عليها الطريق، وقابلتها المصاعب، وانبرى لها اللصوص وقطاع الطرق، وضللها السراب، فتبعثرت القافلة. كل جماعة منها شردت في ناحية، وكل فرد مضى في اتجاه.

وما أشبه مهمتنا في هذا الوضع بدور الذي يمضي فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير. هذا هو دورنا ولا أتصور لنا دور سواه.

ولو خطر لي أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت واهماً، وأنا لا أحب أن أتعلق بالأوهام. أننا لا نملك القدرة على ذلك، ولا نملك الخبرة لنقوم به. إنما كل عملنا

أن نحدد معالم الطريق كما قلت وأن نجري وراء الشاردين فنردهم إلى حيث ينبغي أن يبدؤوا المسير، وان نلحـــــق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذي يجرون ورائه.

لقد كنت مدركاً منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة، وكنت أعلم مقدماً إنها ستكلفنا الكثير من شعبيتنا، لقد كان يجب أن نتكلم بصراحة، وأن نخاطب عقول الناس، وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطوا الوهم، وأن يقوا للناس ما يرد الناس أن يسمعوه!. وما أسهل الحديث إلى غرائز الناس وما أصعب الحديث إلى عقولهم! وغرائزنا جميعاً واحدة، أما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت وكان ساسة مصر في الماضي من الذكاء من حيث أدركوا هذه الحقيقة فاتجهوا إلى الغريزة يخاطبونها. أما العقل فتركوه هائماً على وجهه في الصحراء. وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشيء. كنا نستطيع أن نملأ أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التي لا تخرج عن حد الوهم والخيال، أو تدفعهم وراء أعمال غير منظمة لم تعد لها العدة ولم تتخذ لها أهبةً، أو كنا نستطيع ترك أصواتهم تبح من كثرة هتافهم: «يا ربنا يا عزيز. داهية تأخذ

الإنكليز». تماماً كما كان أجدادنا تبح أصواتهم أيام المماليك من كثرة هتافهم: «يا رب يا متجلي.. أهلك العثملي». وبعدها لا شيء!. لكن كانت تلك مهمتنا التي شاءها لنا القدر.

وما الذي كنا نستطيع أن نحققه فعلا إذا سرنا في هذا السبيل؟ ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث إن نجاح الثورة يتوقف على إدراكها لحقيقة الظروف التي تواجهها وقدرتها على الحركة السريعة. وأضيف الآن إلى ذلك أنها يجب أن نتحرر من أثار الألفاظ البراقة وأن نقدم على ما تتصور أنه واجبها مهما كان الثمن خصماً من شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها! وإلا فإننا نكون قد تخلينا عن أمانة الثورة وعن واجباته.

وكثيراً ما يجيئني من يقول لي: لقد أغضبتم كل الناس.

وعلى مثل هذه الملاحظة أرد دائماً: ليس غضب الناس هو العامل المؤثر في الموقف، وإنما السؤال هل كان الذي أغضبهم يعمل لصالح الوطن أو لغيره؟ أنا أدرك إننا أغضبنا كبار الملاك. لكن، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة وطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم

الحكم؟.. وفينا من يملك من عشرات الألوف من الأفدنة وفينا من لا يملك قطعة يدفن فيها بعد أن يموت.

وأنا أدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء!. ولكن هل يمكن أن نغضبهم ونترك وطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم الحكم؟. وأنا أدرك أننا أغضبنا عدد كبير من الموظفين. ولكن هل يمكن أن نعطي أكثر من نصف ميزانية الدولة مرتبات للموظفين ولا نستطيع- كما صنعنا بالفعل- أن نخصص أربعين مليوناً من الجنيهات للمشروعات الإنتاجية؟ ماذا علينا لو كنا فتحنا – كما فعل غيرنا – خزائن الدولة ووزعنا ما فيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان، وليكن– أيضاً- أن يجئ العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع المرتبات موظفيها أصلاً وأساساً. وما كان أسهل أن نرضي هؤلاء جميعاً وغيرهم... ولكن ما الثمن الذي كان وطننا سيدفعه من أماله ومستقبله في مقابل هذا الرضى.

ذلك دورنا الذي حدده لنا تاريخ وطننا، ولا مفر أمامنا من أن نقوم به، مهما كان الثمن الذي ندفعه. ولم نخطئ أبداً في فهم هذا الدور، ولا في إدراك طبيعة الواجبات التي نلقيها

علينا. تلك خطوات لإصلاح أثار الماضي ورواسبه مضينا فيها وتحملنا من أجلها كل شيء. فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا أننا لا نملك هذا وحدنا.

فمن أجل ضمان الحياة السياسية في المستقبل ذهبنا إلى عدد من قادة الرأي من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم. ضعوا للبلد دستور يصون مقدساته. وكانت لجنة وضع الدستور. ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية في المستقبل ذهبنا إلى أكبر الأساتذة في مختلف نواحي الخبرة وقلنا لهم: نظموا للبلد رخائه وضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه. وكان مجلس الإنتـــاج.

تلك حدودنا لم نتعداها. إزالة الصخور والعقبات من الطريق، مهما يكن الثمن. والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوي الرأي والخبرة، فرض لازم عليهم وليس لنا أن نستأثر به دونهم، بل أن مهمتنا تقتضي أن نسعى لجمعهم من أجل مستقبل مصر... مصر القوية المتحررة.

الجـزء الثالث:

مرة ثالثة أعود إلى فلسفة الثورة.. أعود إليها بعد غيبة طويلة امتدت إلى أكثر من ثلاثة شهور حافلة بالأحداث والتطورات السريعة المتلاحقة. ثلاثة شهور حاولت من خلالها أكثر من مرة أن أجد ساعات التي أسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة، فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحولات وبعثرتها في الفضاء. ولكن الرياح التي عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر نفسها وصحيح أن هذه الخواطر لم تجر على ورق، ولكنها ظلت تدور في تفكيري وتتفاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أخرى سواء في ذاكرتي أو في الأيام، تضيفها إليها لتكمل بها صورة صحيحة واضحة.

ولكن ما الصورة الصحيحة الواضحة التي أريد أن أرسمها هذه المرة؟ وما علاقتها بالمحاولات التي قمت بها قبل ذلك، في الجزء الأول ثم في الجزء الثاني من هذه الخواطر عن فلسفة الثورة؟ لقد تحدثت في الجزء الأول عن بداية الثورة في نفوسنا كأفراد وفي نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا، و عن الثورة في تاريخ أمتنا، وعن يوم ٢٣ يوليو في

هذه الثورة. وفي الجزء الثاني تحدثت عن محاولات على طريق الثورة، وكيف حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق، سواء في نظرتنا المليئة بالعبر إلى الماضي أو في تطلعنا المفعم بالأمل إلى المستقبل.

وإذاً فقد كان حديثي عن الجزأين السابقين عن الزمان ومن هنا أشعر بأن المكان يطالب بحقه، وإذا فليكن الحديث في هذه المرة عنه. وليس هدفي أن أدخل في بحث فلسفي معقد عن الزمان والمكان. وإنما الذي لا شك فيه هو أن العالم كله، لا وطننا فحسب، هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان وإذا كنت أقول أننا في تصويرنا لأحوال وطننا لا نستطيع أن ننسى عنصر الزمن، فإننا أيضاً وبنسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عنصر المكان. وبعبارة أبسط: نحن الآن لا نستطيع أن نعود إلى القرن العاشر، نرتدي ملابسه التي تبدو لعيوننا غريبة مضحكة، ونتوه في أفكاره التي تظهر أمامنا اليوم أطباقاً من الظلام خلت من كل شعاع.

وكذلك نحن الآن لا نستطيع أن نتصرف على أننا قطعة من ألاسكا الموجودة بأقصى أصقاع الشمال، أو على أننا

جزيرة «ويك» النائية المهجورة في تيه الباسفيك. الزمان إذاً يفرض علينا تطوره. والمكان أيضاً يفرض علينا حقيقته.

ولقد حاولت مرتين أن أمضي مع الزمان، وهذه المرة أحاول أن أتجول في عالم المكان.

وثمة شيء يجب أن نتفق عليه أولاً وقبل أن نمضي في هذا الحديث ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا. إن قال لي أحد أن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التي نعيش فيها فأني أختلف معه. وإن قال لي أحد أن المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فإني أيضاً أختلف معه. ولو كان الأمر كله محصوراً في حدود عاصمتنا. أو في حدود بلادنا السياسية لهان الأمر، ولأقفلنا على أنفسنا كل الأبواب وعشنا في البرج العاجي نحاول أن نبتعد به بقدر ما نستطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وأزماته تلك التي تقتحم علينا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب.

ولقد مضى عهد العزلة. وذهبت الأيام التي كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التي تخطط حدود الدول تفصل وتعزل. ولم يعد مفر أمام كل بلد أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التي تؤثر فيه،

وكيف يمكن أن يعيش مع غيره وكيف.. وكيف.. ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها في المكان، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه وما هو مجالها الحيوي وميدان نشاطها ودورها الإيجابي في هذا العالم المضطرب.

وأنا أجلس أحياناً في غرفة مكتبي وأسرح بخواطري في نفس هذا الموضوع أسأل نفسي: ما هو دورنا الإيجابي في هذا العالم المضطرب، وأين هو المكان الذي يجب أن نقوم فيه في هذا الدور؟. وأستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا أن يدور عليها نشاطنا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا.

- نظرية الدوائر الثلاثة الحاكمة للسياسة المصرية:

أن القدر لا يهزل، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة ولا وجود يصنعه الهباء. ولن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان. أيمكن أن تتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا، وإن هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تاريخنا بتاريخها، وارتبطت مصالحنا بمصالحها، حقيقة وفعلاً

لا مجرد كلام؟ أيمكن أن تتجاهل أن هناك قارة أفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها، وشاء أيضاً أن يكون فيها صراع مروع حول مستقبلها، وهو صراع سوف تكون أثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد؟ أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب وإنما تشهدها حقائق التاريخ؟ وكما قلت مرة: أن القدر لا يهزل.

فليس عبثاً أن بلدنا في جنوب غرب أسيا يلاصق الدول العربية تشتبك حياته بحياتها.

وليس عبثاً أن بلدنا يقع في شمال شرق أفريقيا، ويطل من أعلى القارة السوداء التي يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التي لا تُحـد.

وليس عبثاً أن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي الذي أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة – تراجع إلى مصر وأوى إليها فحمته مصر وأنقذته عندما ردت غزوا المغول على أعقابه في عين جالوت. كل هذه

حقائق أصيلة ذات جذور عميقة في حياتنا، لا نستطيع مهما نحاول أن ننسها أو نفر منها.

- دور يبحث عن بطل.

ولست أدري لماذا أذكر دائماً عندما أصل إلى هذه المرحلة من أفكاري وأنا جالس وحدي في غرفتي شارداً مع الأفكار، مسرحية مشهورة للشاعر الإيطالي الكبير «لويدجي بيراندلو» أسماها: ست شخصيات تبحث عن ممثلين! إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها في ظروف حاسمة على مسرحه. إن ظروف التاريخ أيضاً مليئة بأدوار البطولة المجيدة التي لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه، ولست أدري لماذا يخيل لي دائماً إن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً هاماً على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به، ثم لست أدري لماذا يخيل لي إن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا، قد أستقر به المطاف متعباً منهوك القوي على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك، وأن ننهض بالدور ونرتدي ملابسه فإن أحد غيرنا لا يستطيع القيام به.

- دور مصر الإقليمي:

وأبادر هنا وأقول أن الدور ليس دور زعامة. وإنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور إيجابي في بناء مستقبل البشر. وما من شك إن الدائرة العربية هي من أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا. فلقد امتزجت معنا في التاريخ وعنبنا معها نفس المحن، وعشنا نفس الأزمات، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك. وامتزجت هذه الدوائر معنا أيضاً بالدين، فنقلت مراكز الإشعاع الديني من حدود عواصمها، من مكة إلى الكوفة، ثم إلى القاهرة ثم جمعها الجوار في إطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية. وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي أن طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل إلى تفكيري وأنا طلاب في المدرسة الثانوية أخرج مع زملائي في إضراب عام في الثاني من شهر ديسمبر من كل سنة احتاجا على وعد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطنناً قومياً في

فلسطين، واغتصبته ظلماً من أصحابه الشرعيين. وحين كنت أسائل نفسي في ذلك الوقت: لماذا أخرج في حماسة، ولماذا أغضب لهذه الأرض التي لم أراها؟ ولم أكن أجد بنفسي سوى أصداء العاطفة. ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع لما أصبحت طالباً في الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها في القرن الأخير فريسة سهلة يتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة!. ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الأعمدة التي تتركز عليها حقائقه لم بدأت أدرس وأنا طالب في كلية أركان الحرب حملة فلسطينية ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل. ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعاً في أعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالاً في أرض عربية. وهو ليس انسياقا وراء عاطفة وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس.

وأذكر يوماً عقب صدور قرار تقسيم فلسطين في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعا واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين وذهبت في اليوم التالي أطرق بيت الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وكان لا يزال

يعيش في الزيتون، وأقول له: إنكم في حاجة إلى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين.

وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريدون التطوع وهم تحت أمرك في أي وقت تشاء!

وقال لي الحاج أمين الحسيني أنه سعيد بهذه الروح، ولكنه لا يستطيع إعطائي رداً قبل أن يستأذن من الحكومة المصرية .

وعدت إليه بعد عدة أيام، وكان الرد الذي حصل عليه من الحكومة هو الرفض!.

ولم نسكت.

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبي القدس، وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التي تحولت إلى مجلس قيادة الثورة. أذكر سراً آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار. كان حسن إبراهيم قد سافر إلى دمشق، واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجي.

كان القاوقجي يقود قوات التحرير العربية ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة في المنطقة الشمالية من فلسطين. ووضع

حسن إبراهيم وعبد اللطيف بغدادي خطة جريئة للقيام بعمل حاسم في المعركة التي تستعد لها قوات التحرير.

كانت الخطوط البارزة في تلك الخطة هي أن قوات التحرير العربية لا تملك طيران يساعدها في المعركة ويرجح النصر إلى كفتها، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فوق ميدان العملية، لكان ذلك عملاً فاصلاً، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين، ولكن جو الرقابة على قوات المسلحة- بما فيها سلاح الطيران- كان حذراً متيقظاً!

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها إلى تفاصيل الخطة وبدأت في سلاح الطيران حركة عجيبة، وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح الطائرات وإعدادها، وجهود واضحة في التدريب سرت كالحمى في نفوس عدد من الطيارين.. ولم يكن هنا إلا قلائل يعرفون السر ... يعرفون إن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجيء فيه من سوريا إشارة سرية، فينطلقون بعدها إلى الجو ليشتركوا بكل قواتهم في معركة

حاسمة على الأرض المقدسة. ثم يتجهون بعد ذلك إلى مطار قرب دمشق، ينزلون فيه ويترقبون الأحوال في مصر، ويتعرفون صدى هذه الحركة التي أقدموا عليها، ثم يقررون ماذا يتصرفون بعدها وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك في هذه العملية وأذكر أن كثيرون رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة إلى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد...

وكان شعورنا في اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار. والمؤكد أن نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين في السر الكبير إن هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حباً في المخاطرة، ولا كانت رد فعل للعاطفة في نفوسنا، إنما كانت وعياً ظاهراً لإيماننا بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا، وان نطلق سلامتنا يقضي علينا أن ندافع عن حدود إخواننا الذي شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم في منطقة واحدة. ولم تتم الخطة يومها...لأننا لم نتلق الإشارة السرية من سوريا. و قضت الظروف بعضها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب في فلسطين.

-حصارنا في الفالوجة كان صورة مصغرة لمصر المُحاصرة بأعدائها من الداخل ومن الخارج:

ولست أريد أن أدخل في حرب فلسطين- الآن- فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث، وإنما يعنيني من حرب فلسطين درس عجيب.

لقد دخلتها الشعوب العربية كلها بدرجة واحدة من الحماسة، وإذن فهذه الشعوب كلها تتشارك في شعورها وفي تقديرها لحدود سلامتها، ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة، وإذن فهي جميعاً، كل منها في بلاده، قد تعرض لنفس العوامل وحكمتها نفس القوى التي ساقتها إلى الهزيمة ونكست رأسها بالذل والعار.

ولقد خلوت إلى نفسي مرات كثيرة في خنادق عراق المنشية وفي جحورها، وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت تقف في ذلك القطاع وتدافع عنه أحياناً وتهاجم في أكثر الأحيان، وكنت أخرج إلى الأطلال المحطمة من حولي بفعل نيران العدو ثم أسبح بعيداً مع الخيال.

وأحياناً كانت الرحلة مع الخيال تمضي بي بعيداً إلى آفاق النجوم، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة بأكملها.

وكانت الصورة تبدو في ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتي.

هذا هو المكان الذين نقبع محاصرين فيه، هذه موقع كتيبتنا، وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على خط المواجهة، وهذه قوات العدو تحيط بنا. وهذه قوات أخرى لنا وهي أيضاً محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وان بقى لها مجال للمناورة المحدودة.

إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التي نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار، وتلحق بها عجزا أكثر من الذي تصنعه بنا نحن القابعين في منطقة الفالوجة. ثم هذه قوات إخواننا في السلاح وفي الوطن الكبير وفي المصلحة المشتركة وفي الدفاع الذي جعلنا نهرول إلى أرض فلسطين. هذه هي جيوش إخواننا... جيشاً جيشاً ...كلها هي أيضا محاصرة بفعل الظروف التي تحيط بها والتي كانت تحيط بحكوماتها.. لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا إرادة إلا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين.

وكانت شعوبنا جميعاً تبدو في مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرات محبوكة أخفت عنها عمداً ما يجري، وضللتها حتى عن وجودها نفسه.

وأحيانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم إلى سطح الأرض، فأحس أنني أدافع عن بيتي وأولادي، ولا تعنيني أحلامي الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ. وكان ذلك عندما ألتقي في تجوالي فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا في براثن الحصار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون، واذكر بينهم طفلة صغيرة كانت في مثل عمر ابنتي، وكنت أراها وقد خرجت إلى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش. وكنت أقول لنفسي: قد يحدث هذا لابنتي! وكنت مؤمنا أن الذي يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث– ومازال احتمال حدوثه قائماً– لأي بلد في هذه المنطقة مادام مستسلماً للعوامل والعناصر والقوى التي تحكمه الآن.

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك في فلسطين وعدت إلى الوطن، وكانت المنطقة العربية كلها في تصوري قد

أصبحت كلاً واحداً. وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي.

كنت أتابع تطورات المواقف فيها فأجد أصداء يتجاوب بعضها مع بعض. كان الحادث يقع في القاهرة فيقع مثيل له في دمشق غدا، وفي بيروت وفي عمان، وفي بغداد، وغيرها. وكان ذلك كله طبيعياً مع الصورة التي رسمتها التجارب في نفسي.

منطقة واحدة، ونفس الظروف، ونفس العوامل، بل نفس القوى المتألبة عليها جميعا.

وكان واضحا أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى. حتى إسرائيل نفسها لم تكن إلا أثرا من آثار الاستعمار. فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطاني لما استطاعت الصهيونية أن تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومي في فلسطين... ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنونا ليس له أي أمل في الواقع.

وأنا أكتب هذه المذكرات أمامي مذكرات حاييم وايزمان رئيس جمهورية إسرائيل ومنشئها الحقيقي، وهي المذكرات التي نشرها في كتابه المشهور «التجربة والخطأ»

وثمة عبارات معينة ذات طابع خاص تستوقفني فيه. يستوقفني قول وايزمان: «لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى، وكانت في العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا ألمانيا وبريطانيا. أما ألمانيا فقد أثرت أن تبتعد عن كل تدخل. وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف».

ويستوقفني بعد ذلك قول وايزمان: ولقد حدث في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقدناه في سويسرا أن وقف هرتزل يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى، وبريطـانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل، ومنفصل عن غيرها. وإننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن، وبأن تكون لنا دولة، وقرأ هرتزل خطابا من اللورد لا ترسون نائباً عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى. وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطنا قومياً. وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض. ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه في المهد ودفناه دون ضجة. وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا. وعلى أثر هذا العرض ألفنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا إلى مصر لدراسة منطقة سيناء، وقابلوا في القاهرة اللورد

كرومر المعتمد البريطاني في مصر الذي أظهر كل العطف على أمانينا في الوطن القومي. ولكن اللجنة لم تجد في منطقة سيناء ما يفي بالغرض الذي كنا من أجله نريد الوطن القومي. ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير الخارجية بريطانيا الذي بادر بسؤالي على الفور: لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومي في أوغندا؟.

وقلت لبلفور: إن الصهيونية حركة سياسية قومية، هذا صحيح، ولكن الجانب الروحي منها لا يمكن إغفاله، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحي فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسي القومي. ثم قلت لبلفور: «ماذا تقول لو أن أحداً قال لك خذ باريس بدلا من لندن هل تقبل؟».

ويستوقفني أيضاً قول وايزمان، وعدت إلى لندن في خريف سنة ١٩٢١ وكان الغرض من رجوعي إنني دعيت إلى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطاني في فلسطين. وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها القرار بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها. وكان لورد كيرزون قد تولى وزارة

الخارجية محل بلفور، وكان هو المسئول عن وضع مشروع الوثيقة. وكان معنا في لندن القانوني الشهير ابن كوهين، وهو من أقدر واضعي الصيغ القانونية في العالم، وكان إيريك فوريس أدم سكرتير كيرزون يتعاون معنا.

ووقع بيننا وبين كيرزون خلاف أول وأخير: كتبنا نحن في مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن نقيد بريطانيا فيها بوعد بلفور، وبأن تكون خطتها في فلسطين قائمة على أساس الوطن القومي لليهود، وكان نص العبارة التي كتبناها نحن «والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية في فلسطين»، وقال كيرزون: «أنه يقترح تخفيف العبارة» والاعتراف بصلات اليهود حتى لا يهيج العرب عند قراءتها، وقال أن تكون كما يلي: "والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية في فلسطين".

وكنت أود أن أستطرد طويلاً مع وايزمان في «التجربة والخطأ» ولكننا جميعا نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجراثيم الأولى للمضاعفات التي مزقت كيان فلسطين ودمرت وجودها.

وأعود إلى الذى كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلاً غير مرئي، أقوى وأقصى مائة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقنا في «الفالوجة» وبجيوشنا جميعاً وبحكوماتنا في العواصم التي كنا نتلقى منها الأوامر.

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي أؤمن بكفاح واحد مشترك.

وأقول لنفسي: مادامت المنطقة واحدة، وأحوالها واحدة، ومشاكلها واحدة، ومستقبلها واحد والعدو واحد مهما يحاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة

فلماذا تشتت جهودنا؟!

ثم زادتني تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو إيماناً بهذا الكفاح الواحد وضرورته، فقد بدأت خبايا الصورة تتكشف، والظلام الذي كان يحيط بتفاصيلها ينقشع، وأعترف أني كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التي تسد طريق الكفاح الواحد، ولكني بدأت أؤمن بأن هذه العقبات نفسها ينبغي أن تزول، لأنها من صنع ذلك العدو الواحد نفسه.

ولقد بدأت أخيراً في اتصالات سياسية من أجل توحيد الكفاح مهما تكن وسيلته، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة، هي أن العقبة الأولى في طريقنا هي «الشك» وكان واضحاً أن بذور الشك قد بذرها في نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه ليحول بيننا وبين الكفاح الواحد.

وأذكر أني جلست في الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من ساسة العرب، وكان معنا زميل له، وبدأت أتكلم، وبدأ هو يرد على الذي أقوله، وكان يقول العبارة ثم يلتفت لزميله ليرى أثر الذي يقوله في وجهه بدل أن يحاول استكشاف أثره في أنا.

وبدأت أقول له: تغلب على كل ما في نفسك من شكوك، وقل لي كل ما في قلبك، وانظر إلى و في عيني ولا تدر وجهك!.

ولست أريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التي تحول بيننا وبين توحيد الكفاح، فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله إلى طبيعة البيئة والظروف شعوبها التاريخية والجغرافية، ولكن المؤكد أنه يمكن مع شيء من المرونة القائمة على بعد النظر، لا على التفريط، إيجاد الخط الذي

يستطيع الجميع أن يقفوا فيه، بلا تحرج، وبلا عنت، لمواجهة الكفاح الواحد.

- الدائرة العربية:

ولست أشك دقيقة في أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود إلينا وعلى شعوبنا بكل الذي نريده لها ونتمناه. ولسوف أظل دائما أقول إننا أقوياء ولكن الكارثة الكبرى، إننا لا ندرك مدى قـــوتنا!

إننا نخطئ في تعريف القوة، فليست القوة أن تصرخ بصوت عالي، إنما القوة أن تتصرف إيجابياً وبكل ما تملك من مقوماتها.

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل في الحساب.

- المصدر الأول:

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة، المترابطة بكل رباط مادي ومعنوي يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت في جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة، ولا يمكن

قط إغفالها في محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام. هذا هو المصدر الأول.

- المصدر الثاني:

أما المصدر الثاني فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم، ذلك الموقع الاستراتيجي الهام الذي يعتبر بحق ملتقى طرق العالم، ومعبر تجارته، وممر جيوشه.

- المصدر الثالث:

ويبقى المصدر الثالث وهو البترول الذي يعتبر عصب الحضارة المادية، والذي بدونه تستحيل كل أدواتها - المصانع الهائلة الكبيرة لكافة أنواع الإنتاج، وسائل المواصلات في البر والبحر والجو، أسلحة الحرب سواء في ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب أو الغواصة المستترة تحت أطباق الموج- تستحيل كلها قطع من الحديد يعلوها الصدأ لا تنبعث منها حركة.. أو حياة.

وبودي لو وقفت قليلاً عند البترول، فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الإحصائيات والأرقام يصلح لأن يكون نموذج للمناقشة في أهمية مصادر القوة في بلادنا. ولقد قرأت أخيراً رسالة طبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف

البترول وبودي لو كان لكل فرد من أفراد شعوبنا أن يقرأها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره في المعنى الكبير الكامن وراء أرقامها وإحصائياتها: تقرر هذه الرسالة أن العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يتكلف كثيراً من المال. «لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليون من الدولارات في كولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت إلا في سنة ١٩٣٦. وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليوناً من الدولارات في فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت إلا بعد مرور ١٥ سنة. وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليونا من الدولارات في جزر الهند الهولندية وأخيراً عثرت على الزيت».

وكانت النتيجة الأخيرة التي قررتها هذه الرسالة في هذا الموضوع: إن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في أمريكا هو ٧٨ سنتا. إن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في أمريكا الجنوبية هو ٧٨ سنتا.

إن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في البلاد العربية هو ١٠ سنتات.

إن عاصمة إنتاج البترول قد انتقلت من الولايات المتحدة التي استنزفت أبارها وارتفع سعر الأرض فيها

وزادت أجور الأيدي العاملة لأبنائها إلى المنطقة العربية التي مازالت آبارها بكراً، والتي مازالت أراضيها الشاسعة بلا ثمن، والتي مازالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف.

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت أرض المنطقة، والنصف الباقي موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبي وغيرها من بلاد العالم.

وثبت أيضا أن متوسط إنتاج البئر الواحد في اليوم من الزيت هو:

١١ برميلا في الولايات المتحدة.

٢٣٠ برميلاً في فنزويلا.

٤٠٠ برميل في المنطقة العربية.

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة؟

أرجو أن أكون قد وفقت.

إذن فنحن أقوياء.

أقوياء ليس في علو صوتنا حين نولول، ولا حين

نصرخ، ولا حين نستغيث، إنما أقوياء حين نهدأ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل، وفهمنا الحقيقي لقوة الرابطة بيننا، هذه الرابطة التي تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها على كلها، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة.

هذا عن الدائرة الأولى التي لا مفر من أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا، وهي الدائرة العربية.

- الدائرة الأفريقية:

فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية، وهي دائرة القارة الإفريقية قلت دون استفاضة أو إسهاب. إننا لن نستطيع بحال من الأحوال - حتى لو أردنا - أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الأفريقيين.

لا نستطيع لسبب مهم وبديهي هو إننا أفارقة.

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا، نحن الذين نحرس الباب الشمالي للقارة، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجي كله.

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا في المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء.

ويبقى بعد ذلك سبب هام، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة.

ويبقى أن السودان – الشقيق الحبيب – تمتد حدوده إلى أعماق أفريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة في وسطها.

والمؤكد أن أفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير، وأن الرجل الأبيض الذي يمثل عدة دول أوروبية يحاول الآن إعادة تقسيم خريطتها ولن نستطيع بحال من الأحوال إن نقف أمام الذي يجري في أفريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا.

ولسوف أظل أحلم باليوم الذي أجد فيه القاهرة معهدا ضخما لإفريقيا يسعى لكشف نواحي القارة أمام عيوننا ويخلق في عقولنا وعيا أفريقيا مستنيرا ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها.

- الدائرة الإسلامية:

ثم تبقى الدائرة الثالثة... الدائرة التي تمتد عبر قارات ومحيطات والتي قلت أنها دائرة إخواننا في العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات.

ولقد ازداد إيماني بمدى الفاعلية الإيجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامي بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية لتقديم العزاء في وفاة عاهلها الراحل الكبير.

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطري تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام ثم وجدتني أقول لنفسي: يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج، لا يجب أن يصبح محاولة الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة. يجب أن يكون للحج قوة سياسية ضخمة، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً لقراء الصحف وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية، ورجال الرأي فيها، وعلمائها في

كافة أنحاء المعرفة، وكتابها وملوك الصناعة فيها، وتجارها، وشبابها ليصنعوا في هذا البرلمان الإسلامي العالمي خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معاً حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام. يجتمعون خاشعين.. ولكن أقوياء..

متجردين من المطامع.. ولكن عاملين.

مستضعفين لله.. ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم.

حالمين بحياة أخرى .. ولكن مؤمنين إن لهم مكان تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله في هذه الحياة.

وأذكر أني قلت بعض خواطري هذه لجلالة الملك سعود، فقال لي الملك: أن هذه هي فعلاً، الحكمة الحقيقية من الحج.

وفي الحق أني لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى.

وحين يسرح بي خيالي إلى ثمانين مليونا من المسلمين في إندونيسيا، وخمسين مليونا في الصين، وبضعة ملايين في الملايو وسيام وبورما، وما يقرب من مائة مليون في الباكستان وأكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الأوسط، وأربعين

مليونا داخل الاتحاد السوفيتي، وملايين غيرهم في أرجاء الأرض المتباعدة- حين أسرح بخيالي إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة، أخرج بإحساسي الكبير بالإمكانيات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة.

ثم أعود إلى الدور التائه الذي يبحث عن بطل يقوم بـه..

ذلك هو الدور، وتلك هي ملامحه، وهذا هو مسرحه.

ونحن وحدنا بحكم «المكان» نستطيع القيام به.



الميثـــــــاق

أيها المواطنون..

أيها المواطنون أعضاء المؤتمر الوطني للقوى الشعبية :

النهارده بنبتدي مرحلة هامة وشاقة في كفاحنا من أجل تحقيق الأماني التي نتمناها، وأنتم بالذات نيابة عن القوى الشعبية التي انتخبتكم؛ أمامكم مسئولية كبيرة في هذه المناقشة الكبيرة والتي تبدأ اليوم، مشروع الميثاق طويل لسبب؛ وهو أنى أردت أن أضع فيه حصيلة التجربة الوطنية، من الماضي اللي عشناه إلى المستقبل الذى نريده.

الميثاق عشرة أبواب:

الباب الأول : نظرة عامة.

الثاني : في ضرورة الثورة.

الثالث : جذور النضال المصري.

الرابع : درس النكسة.

الخامس : عن الديمقراطية السليمة.

السادس: في حتمية الحل الاشتراكي.

السابع : الإنتاج والمجتمع.

الثامن : مع التطبيق الاشتراكي ومشاكله.

التاسع : الوحدة العربية.

العاشر : السياسة الخارجية.

الباب الأول
نظـرة عـامـة

إن يوم الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ كان بداية مرحلة جديدة، ومجيدة في تاريخ النضال المتواصل للشعب العربي في مصر.

إن هذا الشعب في ذلك اليوم المجيد بدأ تجربة ثورية رائدة في جميع المجالات؛ وسط ظروف متناهية في صعوبتها، وظلامها، وأخطارها، وتمكن هذا الشعب بصدقه الثوري، وبإرادة الثورة العنيدة فيه؛ أن يغير حياته تغييراً أساسياً وعميقاً باتجاه آماله الإنسانية الواسعة.

إن إخلاص الشعب المصري لقضية الثورة، ووضوح الرؤية أمامه، واستمراره الدائب في مصارعة جميع أنواع التحديات، قد مكنه- دون أدنى شك- من تحقيق نموذج رائع للثورة الوطنية وهى الاستمرار المعاصر لنضال الإنسان الحر عبر التاريخ؛ من أجل حياة أفضل، طليقة من قيود الاستغلال والتخلف في جميع صورها المادية والمعنوية.

إن الشعب المصري في يوم بدء ثورته المجيدة في٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ أدار ظهره نهائياً لكل الاعتبارات البالية

التي كانت تبدد قواه الإيجابية، وداس بأقدامه على كل الرواسب المتخلفة من بقايا قرون الاستبداد والظلم، وأسقط إلى غير ما رجعة جميع السلبيات التي كانت تحد من إرادته في إعادة تشكيل حياته من جديد.

إن طاقة التغيير الثوري التي فجرها الشعب المصري يوم ٢٣ يوليو تتجلى بكل القوى العظيمة الكامنة فيها؛ إذا ما عادت إلى الذاكرة كل جحافل الشر والظلام؛ التي كانت تتربص بكل عود أخضر للأمل ينبت على وادى النيل العظيم. لقد كان الغزاة الأجانب يحتلون على أرضه، وبالقرب منها القواعد المدججة بالسلاح؛ ترهب الوطن المصري وتحطم مقاومته، وكانت الأسرة المالكة الدخيلة تحكم بالمصلحة والهوى، وتفرض المذلة والخنوع.

وكان الإقطاع يملك حقوله، ويحتكر لنفسه خيراتها، ولا يترك لملايين الفلاحين العاملين عليها غير الهشيم الجاف المتخلف بعد الحصاد.

وكان رأس المال يمارس ألواناً من الاستغلال للثروة المصرية؛ بعدما استطاع السيطرة على الحكم وترويضه لخدمته، ولقد ضاعف من خطورة المواجهة الثورية لهذه

القوى المتحالفة مع بعضها وضد الشعب؛ أن القيادات السياسية المنظمة لنضال الجماهير قد استسلمت واحدة بعد واحدة، واجتذبتها الامتيازات الطبقية، وامتصت منها كل قدرة على الصمود، بل واستعملتها بعد ذلك في خداع جماهير الشعب؛ تحت وهم الديمقراطية المزيفة، وحدث نفس الشيء مع الجيش الذى حاولت القوى المسيطرة المعادية لمصالح الشعب أن تضعفه من ناحية، وأن تصرفه- من ناحية أخرى- عن تأييد النضال الوطني، بل وكادت أن تصل إلى استخدامه في تهديد هذا النضال وقمعه.

وفى مواجهة هذه الاحتمالات صباح يوم الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ رفع الشعب المصري رأسه بالإيمان والعزة، ومضى في طريق الثورة مصمماً على مجابهة الصعاب والأخطار والظلام، عاقداً العزم في غير تردد على إحراز النصر؛ توكيداً لحقه في الحياة مهما كانت الأعباء والتضحيات.

إن قوة الإرادة الثورية لدى الشعب المصري تظهر في أبعادها الحقيقية الهائلة، إذا ما ذكرنا أن هذا الشعب البطل بدأ زحفه الثوري من غير تنظيم سياسي يواجه مشاكل المعركة؛

كذلك فإن هذا الزحف الثوري بدأ من غير نظرية كاملة للتغيير الثوري.

إن إرادة الثورة في تلك الظروف الحافلة لم تكن تملك من دليل العمل غير المبادئ الستة المشهورة؛ التي نحتتها إرادة الثورة من مطالب النضال الشعبي واحتياجاته، ولقد كان مجرد إعلانها في حد ذاته في جو المصاعب والخطر والظلام؛ دليلاً على صلابة إرادة التغيير الثوري، وعنادها الذى لا يلين في مواجهة جيوش الاحتلال البريطاني الرابضة في منطقة قناة السويس، كان المبدأ الأول هو القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين؛ في مواجهة تحكم الإقطاع الذى كان يستبد بالأرض ومن عليها.

كان المبدأ الثاني هو القضاء على الإقطاع؛ في مواجهة تسخير موارد الثروة لخدمة مصالح مجموعة من الرأسماليين.

كان المبدأ الثالث هو القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم؛ في مواجهة الاستغلال والاستبداد الذى كان نتيجة محتمة لهذا كله. كان المبدأ الرابع هو إقامة عدالة اجتماعية؛ في مواجهة المؤامرات لإضعاف الجيش،

واستخدام ما تبقى من قوته لتهديد الجبهة الداخلية المتحفزة للثورة.

كان الهدف الخامس هو إقامة جيش وطني قوى؛ وفى مواجهة التزييف السياسي الذى حاول أن يطمس معالم الحقيقة الوطنية؛ كان الهدف السادس هو إقامة حياة ديمقراطية سليمة.

إن هذه المبادئ الستة التي أسلمها النضال الشعبي المتواصل إلى الطلائع الثورية؛ التي جندها لخدمته من داخل الجيش، والطلائع الثورية التي تجاوبت معها تلقائياً، وطبيعياً من خارجه؛ لم تكن نظرية عمل ثوري كاملة، ولكنها كانت- في تلك الظروف- دليلاً للعمل، يمثل عمق هذه الإرادة الثورية، ويلبى احتياجاتها، ويبرز تصميمها على بلوغ الشوط إلى مداه.. إن الشعب العظيم الذى كتب المبادئ الستة بدم شهدائه، وبنور الأمل الذى أعطوا حياتهم من أجله، والذى دفع بالطلائع الثورية من أبنائه داخل الجيش وخارجه إلى التصدي لمسئولية العمل الثوري؛ على هدى من هذه المبادئ الستة التي تسلمتها أمانة من كفاح الأجيال.. هذا الشعب العظيم مضى بعد ذلك في تعميق نضاله، وفى توسيع

مضمونه.. لقد كان هذا الشعب العظيم هو المعلم الأكبر الذى تحمل على عاتقه - في أعقاب بدء العمل الثوري في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ - عمليتين تاريخيتين لهما آثارهما الضخمة.

إن هذا الشعب المعلم راح أولاً يطور المبادئ الستة، ويحركها بالتجربة والممارسة، وبالتفاعل الحى مع التاريخ القومي؛ تأثراً به وتأثيراً فيه، نحو برنامج تفصيلي يفتح طريق الثورة إلى أهدافها اللامتناهية، ثم إن هذا الشعب المعلم راح ثانياً يلقن طلائعه الثورية أسرار آماله الكبرى، ويربطها دائماً بهذه الآمال، ويوسع دائرتها بأن يمنحها مع كل يوم عناصر جديدة قادرة على المشاركة في صنع مستقبله.

إن هذا الشعب العظيم لم يكتف بأن يقوم بدور المعلم لطلائعه الثورية؛ وإنما هو فوق ذلك أقام من وعيه حفاظاً عليها، يحميها من شرور الغير، ومن شرور النفس كذلك.

إن الشعب لم يكتف بأن يهزم كل محاولة من أعدائه للنيل من طلائعه الثورية، وإنما قاوم كل الانحرافات التي قد تأتى من النسيان أو الغرور، وظل دائماً يرشد طلائعه الثورية إلى طريق واجبها. إن إرادة الثورة لدى الشعب العربي المصري، والصدق الذى سلحت نفسها به، حققت مقاييس

جديدة للعمل الوطني، لقد أكدت هذه الإرادة وصدقها أنه لا يمكن أن تقوم عوائق أو قيود على إمكانية التغيير؛ إلا احتياجات الجماهير ومطالبها العادلة. إن المنطق التقليدي في مثل الظروف التي واجهها نضال الشعب المصري كان يغرى بطريق المساومات والحلول الوسط، والتفكير الإصلاحي الصادر عن العطاء، والتبرع. لقد كان ذلك بالمنطق التقليدي هو الممكن الوحيد في مواجهة السيطرة الخارجية المعتدية، والسيطرة الداخلية المستغلة، وفى غيبة تنظيم سياسي مستعد، وبدون نظرية كاملة للعمل؛ لكن إرادة الثورة في الشعب المصري وصدقها تحدت هذا المنطق التقليدي، وجابهته بتفجير طاقات مليئة بإمكانيات العمل المبدع الرائد.

إن يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ كان موعد هذا التفجير الثوري، وفيه استطاع الشعب المصري أن يعيد اكتشاف نفسه، وأن يفتح بصره على إمكانيات هائلة كامنة فيه. إن هذه الإمكانيات الهائلة حققت تجربة جديدة في تاريخ الثورات، وإن السنوات التي مضت حتى الآن منذ يوم ٢٣ يوليو سنة ٥٢ سوف تثبت أنها ذخيرة قيمة بالنسبة لنضال شعوب كثيرة. إن هذه التجربة أثبتت أن الشعوب المغلوبة على أمرها

قادرة على الثورة، وأكثر من ذلك أنها قادرة على الثورة الشاملة.

إن الشعب المصري خاض خلال هذه التجربة غمار ثورات كثيرة، تشابكت معاركها وتداخلت مراحلها؛ ثم استطاع في حقبة قصيرة من الزمان أن يقهر جميع أعداء ثوراته المتعددة، وأن يخرج بقوة اندفاع متزايدة إلى مرحلة الانطلاق نحو التقدم. إن الشعب المصري في نضاله ضد الاستعمار استطاع أن يشل فاعليات طبقات من المجتمع القديم؛ كانت قادرة على خداعه بالتظاهر باشتراكها معه في ضرب الاستعمار، بينما هي في الواقع متصلة في مصالحها به.

إن حرب التحرير التي كان يمكن بالمفهوم التقليدي أن تحتاج إلى وحدة جميع الطبقات في الوطن؛ حققت انتصارها في الواقع حين حمت نفسها من أي ضربة خائنة في الظهر.

إن الشعب المصري خاض معركة التحرير ضد الاستعمار، ولم تخدعه المظاهر، وحرص طول المعركة على أن يعزل عن صفوفه كل الذين ترتبط مع الاستعمار مصالحهم في مواصلة الاستغلال، وفى نفس الوقت فإن الشعب المصري وهو يجابه الثورة من أجل التطوير، ويحاول تجميع المدخرات

وتشجيعها، وتحريكها في اتجاه التنمية؛ لم يغب عن باله أن الرأسمالية المحلية الكبيرة، استطاعت في ظروف ثورات وطنية عديدة أن تحول نتائج الثورة إلى أرباح لها؛ لأنها بامتلاكها للمدخرات القادرة على العمل في التنمية تستطيع أن تحتل لنفسها مواقع الاحتكار التي تحصل منها على كل فوائد هذه التنمية.

إن الشعب المصري في ثوريته الأصيلة ضرب جميع الاحتكارات المحلية، في نفس الوقت التي تتصور أن حاجته إليها بسبب ضرورات التطوير ماسة وشديدة. إن هذه الثورية الأصيلة هي التي مكنت الشعب المصري وهو يتجه بكل جهوده إلى الإنتاج أن يتأكد أولاً من سيطرته الكاملة على كل أدوات الإنتاج، وفى نفس الوقت أيضاً فإن الشعب المصري إبان نضاله ضد الاستعمار.. كذلك إبان نضاله ضد محاولات الرأسمالية أن تستغل الاستقلال الوطني لخدمة مصالحها؛ تحت ضغط احتياجات التنمية.. في نفس هذا الوقت فإن الشعب المصري رفض ديكتاتورية أي طبقة من الطبقات، وصمم على أن يكون تذويب الفوارق بين الطبقات هو طريقه إلى الديمقراطية الكاملة لجميع قوى الشعب العاملة،

وفى نفس الوقت أيضاً فإن الشعب المصري تحت ظروف هذه المعارك الثورية المتشابكة المتداخلة كان مصراً على أن يستخلص للمجتمع الجديد الذى يتطلع إليه علاقات اجتماعية جديدة؛ تقوم عليها قيم أخلاقية جديدة، وتعبر عنها ثقافة وطنية جديدة.

لقد عبر الشعب المصري مراحل التطور بحيوية وشباب؛ مجتازاً المسافة الشاسعة من رواسب مجتمع إقطاعي بدأ فيه عصر الرأسمالية إلى المرحلة التي بدأ فيها التحول الاشتراكي بدون إراقة دماء.

إن هذه الصور من الثورة الشاملة تكاد في الواقع أن تكون سلسلة من الثورات، وفى المنطق التقليدي حتى لحركات ذات طابع ثوري سبقت في التاريخ؛ فإن هذه الثورات كان لابد لها أن تتم في مراحل مستقلة، يستجمع الجهد الوطني قواه بعد كل واحدة منها؛ ليواجه المرحلة التالية.. لكن العمل العظيم الذى تمكن الشعب المصري من إنجازه بالثورة الشاملة، ذات الاتجاهات المتعددة؛ يصنع حتى بمقاييس الثورات العالمية تجربة ثورية جديدة.

إن هذا العمل العظيم تحقق بفضل عدة ضمانات تمكن

النضال الشعبي من توفيرها:

أولاً: إرادة تغيير ثوري ترفض أي قيد أو حد إلا حقوق الجماهير ومطالبها.

ثانياً: طليعة ثورية مكنتها إرادة التغيير الثوري من سلطة الدولة؛ لتحويلها من خدمة المصالح القائمة إلى خدمة المصالح صاحبة الحق الطبيعي والشرعي؛ وهى مصالح الجماهير.

ثالثاً: وعى عميق بالتاريخ، وأثره على الإنسان المعاصر من ناحية، ومن ناحية أخرى لقدرة هذا الإنسان بدوره على التأثير في التاريخ.

رابعاً: فكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية؛ يأخذ منها ويعطيها، لا يصدها عنه بالتعصب، ولا يصد نفسه عنها بالعقد.

خامساً: إيمان لا يتزعزع بالله وبرسله، ورسالاته القدسية التي بعثها بالحق والهدى إلى الإنسان في كل زمان ومكان. وإن أعظم تقدير لنضال الشعب العربي في مصر، ولتجربته الرائدة؛ هو الدور الذى استطاع أن يؤثر به في حياة أمته العربية، وخارج حدود وطنه الصغير إلى آفاق وطنه الأكبر، إن تجربة الشعب المصري أحدثت أصداءً بعيدة المدى

في نضال أمته العربية. إن ثورة الشعب المصري حركت احتمالات الثورة في الأرض العربية كلها، وليس من شك أن هذه الحركة كانت أحد الدوافع القوية التي مكنت من النجاح الثوري في مصر. إن الأصداء القوية التي أحدثتها ثورة الشعب المصري في الأفق العربي كله.. عادت إليه مرة أخرى على شكل قوة محركة تدفع نشاطه، وتمنحه شباباً متجدداً. إن ذلك التفاعل المتبادل يؤكد في حد ذاته وحدة شعوب الأمة العربية؛ وإذا كانت التجربة الثورية الشاملة قد ألقيت مسئوليتها الأولى على الشعب العربي في مصر؛ فإن تجاوب بقية شعوب الأمة العربية مع التجربة كان من الأسباب القوية التي مكنت الشعب المصري أن ينتصر، وليس من شك أن الشعب المصري مطالب اليوم بأن يجعل انتصاره في خدمة قضية الثورة الشاملة في بقية شعوب أمته العربية.

إن أصداء النصر الذى حققه الشعب العربي في مصر لم تقتصر على آفاق المنطقة العربية؛ وإنما كانت للتجربة الجديدة الرائدة آثارها البعيدة على حركة التحرير في إفريقيا، وفى آسيا، وفى أمريكا اللاتينية.

إن معركة السويس التي كانت إحدى الذرى البارزة في التجربة الثورية المصرية لم تكن لحظة اكتشف فيها الشعب المصري نفسه، أو اكتشفت فيها الأمة العربية إمكانياتها فقط، وإنما كانت هذه اللحظة عالمية الأثر، رأت فيها كل الشعوب المغلوبة على أمرها أن في نفسها طاقات كامنة لا حدود لها، وأنها تقدر على الثورة، بل إن الثورة هي طريقها الوحيد.

الباب الثاني
في ضرورة الثورة

لقد أثبتت التجربة، وهى مازالت تؤكد كل يوم، أن الثورة هي الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال العربي أن يعبر عليه من الماضي إلى المستقبل، فالثورة هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الأمة العربية أن تخلص نفسها من الأغلال التي كبلتها، ومن الرواسب التي أثقلت كاهلها؛ فإن عوامل القهر والاستغلال التي تحكمت فيها طويلاً، ونهبت ثرواتها، لن تستسلم بالرضا، وإنما لابد على القوى الوطنية أن تصرعها، وأن تحقق عليها انتصاراً حاسماً ونهائياً، والثورة هي الوسيلة الوحيدة لمغالبة التخلف الذى أرغمت عليه الأمة العربية؛ كنتيجة طبيعية للقهر والاستغلال؛ فإن وسائل العمل التقليدية لم تعد قادرة على أن تطوى مسافة التخلف الذى طال مداه بين الأمة العربية وبين غيرها من الأمم السابقة في التقدم، ولابد والأمر كذلك من مواجهة جذرية للأمور؛ تكفل تعبئة جميع الطاقات المعنوية والمادية للأمة لتحمل هذه المسئولية.

والثورة بعد ذلك هي الوسيلة الوحيدة لمقابلة التحدي الكبير الذى ينتظر الأمة العربية، وغيرها من الأمم التي لم تستكمل نموها، ذلك التحدي الذى تسببه الاكتشافات العلمية الهائلة، التي تساعد على مضاعفة الفوارق ما بين التقدم والتخلف؛ فإنها بما توصلت إليه من المعارف تيسر للمتقدمين أن يكونوا أكثر تقدماً، وتفرض على الذين تخلفوا أن يكونوا بالنسبة إليهم أكثر تخلفاً؛ برغم كل ما قد يبذلونه من جهود طيبة لتعويض ما فاتهم.

إن الطريق الثوري هو الجسر الوحيد الذى تتمكن به الأمة العربية من الانتقال بين ما كانت فيه وبين ما تتطلع إليه.

والثورة العربية أداة النضال العربي الآن، وصورته المعاصرة تحتاج إلى أن تسلح نفسها بقدرات ثلاث تستطيع بواسطتها أن تصمد لمعركة المصير التي تخوض غمارها اليوم، وأن تنتزع النصر محققة أهدافها من جانب، ومحطمة جميع الأعداء الذين يعترضون طريقها من جانب آخر، وهذه القدرات الثلاث هي:

أولاً: الوعى القائم على الاقتناع العلمي؛ النابع من الفكر المستنير، والناتج من المناقشة الحرة التي تتمرد على سياط التعصب أو الإرهاب.

ثانياً: الحركة السريعة الطليقة التي تستجيب للظروف المتغيرة التي يجابهها النضال العربي؛ على أن تلتزم هذه الحركة بأهداف النضال وبمثله الأخلاقية.

ثالثاً: الوضوح في رؤية الأهداف، ومتابعتها باستمرار، وتجنب الانسياق الانفعالي إلى الدروب الفرعية التي تبتعد بالنضال الوطني عن طريقه، وتهدر جزءاً كبيراً من طاقته.

وإن الحاجة إلى هذه الأسلحة الثلاثة تستمد قيمها الحيوية من الظروف التي تعيشها التجربة الثورية العربية، وتباشر تحت تأثيراتها دورها في توجيه التاريخ العربي.

إن الثورة العربية مطالبة اليوم بأن تشق طريقاً جديداً أمام أهداف النضال العربي. إن عهوداً طويلة من العذاب والأمل بلورت - في نهاية المطاف - أهداف النضال العربي ظاهرة واضحة، صادقة في تعبيرها عن الضمير الوطني للأمة؛ وهى الحرية والاشتراكية والوحدة، بل إن طول المعاناة من أجل هذه الأهداف كاد أن يفصل مضمونها ويرسم حدودها.

لقد أصبحت الحرية الآن حرية الوطن وحرية المواطن، وأصبحت الاشتراكية وسيلة وغاية.. هي الكفاية، والعدل،

وأصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الأمر الطبيعي لأمة واحدة مزقها أعداؤها ضد إرادتها وضد مصالحها، والعمل السلمى من أجل تقريب يوم هذه الوحدة، ثم الإجماع على قبولها تتويجاً للدعوة والعمل معاً.

لقد كانت هذه الأهداف نداءات مستمرة للنضال العربي، ولكن الثورة العربية الآن تواجه مسئولية شق طريق جديداً أمام هذه الأهداف، والحاجة إلى طريق جديد لا تصدر عن رغبة في التجديد لذاته، ولا تصدر بدافع الكرامة الوطنية، وإنما لأن الثورة العربية تواجه ظروفاً جديدة، ولابد لها في مواجهة هذه الظروف الجديدة أن تجد الحلول الملائمة لها؛ ومن ثم فإن التجربة الثورية العربية لا تستطيع أن تنقل ما توصل إليه غيرها، ومع أن خصائص الشعوب، ومقومات الشخصية الوطنية؛ تفرض خلافاً في منهاج كل منها لحل مشاكله، إلا أن الخلاف الأكبر هو ما تفرضه الظروف المتغيرة التي تسود العالم كله وتحكمه؛ خصوصاً هذه التغييرات البعيدة المدى التي طرأت على العالم بعد الحرب العالمية الثانية من سنة ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥، إن هذه الظروف تأتى بتغييرات شاملة وعميقة على الجو الذى يجرى

فيه النضال الوطني لكل الأمم، وليس معنى ذلك أن النضال الوطني للشعوب، وللأمم مطالب اليوم بأن يخترع مفاهيم جديدة لأهدافه الكبرى؛ ولكن معناه أنه مطالب اليوم بأن يجد الأساليب المسايرة لاتجاه التطور العام، والمتفقة مع طبيعة العالم المتغير.

إن أبرز التغييرات التي طرأت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يمكن تلخيصها فيما يلى:

أولاً: تعاظم قوة الحركات الوطنية في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية؛ حتى استطاعت هذه الحركات أن تخوض معارك عديدة ومنتصرة ضد القوى الاستعمارية، ومن ثم أصبح لهذه الحركات الوطنية تأثير عالمي فعال.

ثانياً: ظهور المعسكر الشيوعي كقوة كبيرة يتزايد وزنها المادي والمعنوي يوماً بعد يوم في مواجهة المعسكر الرأسمالي.

ثالثاً: التقدم العلمي الهائل الذى حقق طفرة في وسائل الإنتاج؛ فتحت آفاقاً غير محدودة أمام محاولات التطوير، كما أنه حقق طفرة في أسلحة الحرب؛ بلغت خطورتها إلى حد أنها أصبحت رادعاً يحول دون نشوبها؛ بسبب ما تقدر على إلحاقه من الأهوال بجميع الأطراف في أي معركة، هذا فضلاً عن

التغيير الأساسي المذهل الذى حققه هذا التقدم العلمي في وسائل المواصلات؛ لدرجة أن تلاشت المسافات وسقطت الحواجز، التي كانت تفصل ما بين الأمم فعلياً وفكرياً.

رابعاً: نتائج هذا كله في محيط العلاقات الدولية، وأهمها زيادة تأثير القوى المعنوية في العالم؛ كالأمم المتحدة والدول غير المنحازة، وقوة الرأي العام العالمي، وفى نفس الوقت اضطرار الاستعمار تحت هذه الظروف إلى الاتجاه نحو وسائل العمل غير المباشر؛ عن طريق غزو الشعوب، والسيطرة عليها من الداخل، وعن طريق التكتلات الاقتصادية الاحتكارية، وعن طريق الحرب الباردة التي تدخل في نطاقها محاولة تشكيك الأمم الصغيرة في قدرتها على تطوير نفسها، وعلى الإسهام الإيجابي المتكافئ في خدمة المجتمع الإنساني.

إن هذه التغييرات الضخمة في العالم تأتى معها بظروف جديدة تؤثر تأثيراً لا جدال فيه على العمل من أجل أهداف النضال الوطني لكل الأمم؛ بما في ذلك أهداف الأمة العربية، وإذا كانت أهداف النضال العربي هي الحرية والاشتراكية والوحدة؛ فإن التغييرات العالمية حملت تأثيرها إلى وسائل العمل من أجلها، بتفاعل هذه التغييرات العالمية مع إرادة

الثورة الوطنية.. لم يعد أسلوب المصالحة مع الاستعمار ومساومته هو طريق الحرية؛ فإن الشعب العربي في مصر تمكن من أن يحمل السلاح بنجاح في بورسعيد؛ دفاعاً عن الحرية، واستطاع أن يحقق سنة ١٩٥٦ انتصاراً حاسماً مازالت تتردد أصداؤه.

كما تمكن الشعب العربي في الجزائر من مواصلة الحرب المسلحة أكثر من سبع سنوات؛ إصراراً على الحرية؛ كذلك فإن العمل الاشتراكي لم يعد حتماً عليه أن يلتزم التزاماً حرفياً بقوانين جرت صياغتها في القرن التاسع عشر.

إن تقدم وسائل الإنتاج، ونمو الحركات الوطنية والعمالية في مواجهة سيطرة الاستعمار، والاحتكارات، وازدياد فرص السلام في العالم بتأثير القوى المعنوية، وبتأثير ميزان الرعب الذرى في نفس الوقت؛ يخلق ظروفاً جديدة أمام التجارب الاشتراكية تختلف تماماً عن الظروف السابقة، بل إنها تستوجب هذا الاختلاف وتحتمه كضرورة؛ والأمر كذلك في تجربة الوحدة، فإن النماذج السابقة لها في القرن التاسع عشر، وأبرزها تجربة الوحدة الألمانية، وتجربة الوحدة الإيطالية، لم تعد تقبل التكرار.

وإن اشتراط الدعوة السلمية واشتراط الإجماع الشعبي ليسا مجرد تمسك بأسلوب مثالي في العمل الوطني، وإنما هو فوق كل ذلك ومعه ضرورة لازمة للحفاظ على الوحدة الوطنية للشعوب العربية في ظروف العمل من أجل الوحدة القومية للأمة العربية كلها، وضد أعدائها الذين مازالت قواعدهم على الأرض العربية ذاتها؛ سواء أكانت هذه القواعد في قصور الرجعية المتعاونة مع الاستعمار لضمان مصالحها، أو كانت في مستعمرات الحركة العنصرية الصهيونية التي يستخدمها الاستعمار مراكز للتهديد العسكري.

والثورة العربية وهى تواجه هذا العالم لابد لها أن تواجهه بفكر جديد لا يحبس نفسه في نظريات مغلقة؛ يقيد بها طاقته، وإن كان في نفس الوقت لا ينعزل عن التجارب الغنية التي حصلت عليها الشعوب المناضلة بكفاحها. إن التجارب الاجتماعية لا تعيش في عزلة عن بعضها، وإنما التجارب الاجتماعية كجزء من الحضارة الإنسانية تعيش بالانتقال الخصب وبالتفاعل الخلاق. إن مشعل الحضارة انتقل من بلد إلى بلد، لكنه في كل بلد جديد كان يحصل على

زيت جديد يقوى به ضوءه على امتداد الزمان، وكذلك التجارب الاجتماعية.. إنها قابلة للانتقال، لكنها ليست قابلة لمجرد النقل، قابلة للدراسة المفيدة، لكنها ليست قابلة لمجرد الحفظ عن طريق التكرار، وهذه أولى مسئوليات القيادات الشعبية الثورية للأمة العربية، ومعنى ذلك أن هذا العمل الثوري الطليعي لابد أن تتحمل القسط الأكبر منه القيادات الشعبية الثورية في الجمهورية العربية المتحدة؛ التي فرضت عليها الظروف الطبيعية والتاريخية مسئولية أن تكون الدولة النواة في طلب الحرية والاشتراكية والوحدة للأمة العربية.

إن هذه القيادات الشعبية مطالبة الآن أن تتأمل تاريخها، وأن تنظر إلى واقع عالمها، ثم تقدم على صنع مستقبلها واقفة في ثبات على أرضها.

الباب الثالث
جذور النضال المصري

منذ زمان بعيد في الماضي لم تكن هناك سدود بين بلاد المنطقة التي تعيش فيها الأمة العربية الآن، وكانت تيارات التاريخ التي تهب عليها واحدة؛ كما كانت مساهمتها الإيجابية في التأثير على هذا التاريخ مشتركة، ومصر بالذات لم تعش حياتها في عزلة عن المنطقة المحيطة بها، بل كانت دائماً بالوعى- وباللاوعي في بعض الأحيان - تؤثر فيما حولها، وتتأثر به كما يتفاعل الجزء مع الكل، وتلك حقيقة ثابتة تظهرها دراسة التاريخ الفرعوني صانع الحضارة المصرية والإنسانية الأولى، كما تؤكدها بعد ذلك وقائع عصور السيطرة الرومـانية والإغريقية.

وكان الفتح الإسلامي ضوءً أبرز هذه الحقيقة، وأنار معالمها، وصنع لها ثوباً جديداً من الفكر والوجدان الروحي، وفى إطار التاريخ الإسلامي، وعلى هدى من رسالة محمد- صلى الله عليه وسلم- قام الشعب المصري بأعظم الأدوار دفاعاً عن الحضارة والإنسانية، وقبل أن ينزل ظلام الغزو العثماني على المنطقة بأسرها كان شعب مصر قد تحمل ببسالة

منقطعة النظير مسئوليات حاسمة لصالح المنطقة كلها؛ كان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية في صد أول موجات الاستعمار الأوروبي التي جاءت متسترة وراء صليب المسيح؛ وهى أبعد ما تكون عن دعوة هذا المعلم العظيم، وكان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية في رد غزوات التتار، الذين اجتاحوا سهول الشرق واجتازوا جباله؛ حاملين الخراب معهم والدمار، ثم كان قد تحمل المسئولية الأدبية في حفظ التراث الحضاري العربي وذخائره الحافلة، وجعل من أزهره الشريف حصناً للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت؛ التي فرضتها الخلافة العثمانية استعماراً ورجعية باسم الدين، والدين منها براء.

ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر - مع مطلع القرن التاسع عشر - هي التي صنعت اليقظة المصرية في ذلك الوقت، كما يقول بعض المؤرخين؛ فإن الحملة الفرنسية حينما جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه إلى الحياة في مصر كلها؛ كما وجدت أن الشعب المصري يرفض الاستعمار العثماني المقنع باسم الخلافة، والذى كان يفرض عليه- دونما مبرر حقيقي-

تصادماً بين الإيمان الديني الأصيل في هذا الشعب، وبين إرادة الحياة التي ترفض الاستبداد.. ولقد وجدت هذه الحملة مقاومة عنيفة لسيطرة المماليك، وتمرداً مستمراً على محاولاتهم لفرض الظلم على الشعب المصري، وبرغم أن هذه المقاومة العنيفة والتمرد المستمر قد كلفا شعب مصر غالياً في ثروته الوطنية وفى حيويته؛ فإن الشعب المصري كان صامداً ثابت الإيمان. على أن الحملة الفرنسية جاءت معها بزاد جديد لطاقة الشعب الثورية في مصر ذلك الوقت؛ جاءت ومعها لمحات من العلوم الحديثة التي طورتها الحضارة الأوروبية، بعد أن أخذتها من غيرها من الحضارات؛ والحضارة الفرعونية والعربية في مقدمتها؛ كذلك جاءت معها بالأساتذة الكبار الذين قاموا بدراسة أحوال مصر والكشف عن أسرار تاريخها القديم، وكان هذا الزاد يحمل في طياته ثقة بالنفس، كما كان يحمل آفاقاً جديدة تشد خيال الحركة المتحفزة للشعب المصري.

ولقد كانت هذه اليقظة الشعبية هي القوة الدافعة وراء عهد محمد على، وإذا كان هناك شبه إجماع على أن محمد على هو مؤسس الدولة الحديثة في مصر؛ فإن المأساة في هذا العهد

هي أن محمد على لم يؤمن بالحركة الشعبية التي مهدت له حكم مصر، إلا بوصفها نقطة وثوب إلى مطامعه، ولقد ساق مصر وراءه إلى مغامرات عقيمة استهدفت مصالح الفرد؛ متجاهلة مصالح الشعب.

إن اليابان الحديثة بدأت تقدمها في نفس هذا الوقت الذى بدأت فيه حركة اليقظة المصرية، وبينما استطاع التقدم الياباني أن يمضى ثابت الخطى؛ فإن المغامرات الفردية عرقلت حركة اليقظة المصرية، وأصابتها بنكسة ألحقت بها أفدح الأضرار. إن هذه النكسة فتحت الباب للتدخل الأجنبي في مصر على مصراعيه، بينما كان الشعب قبلها قد رد - بتصميم ونجاح - محاولات غزو متوالية، كانت أقربها في ذلك الوقت حملة "فريزر" ضد رشيد.

ومن سوء الحظ أن النكسة وقعت في مرحلة هامة من مراحل تطور الاستعمار؛ فإن الاستعمار كان قد تطور في ذلك الوقت من مجرد احتلال المستعمرات واستنزاف مواردها إلى مرحلة الاحتكارات المالية لاستثمار رءوس الأموال المنهوبة من المستعمرات، وكانت النكسة في مصر باباً مفتوحاً لقوى السيطرة العالمية. وبدأت الاحتكارات المالية الدولية دورها

الخطير في مصر، وركزت نشاطها في اتجاهين واضحين، هما: حفر قناة السويس، وتحويل أرض مصر إلى حقل كبير لزراعة القطن؛ لتعويض الصناعة البريطانية عن أقطان أمريكا التي قل ورودها إلى بريطانيا بسبب انتهاء سيطرتها على أمريكا، ثم انقطع وصولها تماماً بسبب ظروف الحرب الأهلية الأمريكية، ولقد عاشت مصر في هذه الفترة تجربة مروعة؛ استنزفت فيها كل إمكانيات الثروة الوطنية لصالح القوى الأجنبية، ولمصلحة عدد من المغامرين الأجانب؛ الذين تمكنوا من السيطرة على أمراء أسرة محمد على، وساعدهم على ذلك فداحة النكسة التي أصيبت بها حركة اليقظة المصرية.

على أن روح هذا الشعب لم تستسلم، وإنما استطاعت تحت المحن العصيبة في هذه الفترة أن تختزن طاقات تحفزت لإطلاقها في اللحظة المناسبة، وكانت هذه الطاقة هي العلم الذى حصل عليه آلاف من شباب مصر الرواد ممن أرسلوا – أيام الصحوة التي سبقت النكسة من حكم محمد على– إلى أوروبا ليتمكنوا من العلم الحديث؛ فإن هؤلاء استطاعوا بعد عودتهم إلى الوطن أن يجلبوا معهم بذوراً صالحة، ما لبثت التربة الثورية الخصبة لمصر أن احتضنتها؛ لتخرج منها بشائر نبت ثقافي جديد راح ينشر ألواناً رائعة من الأزهار على

ضفاف النيل الخالد، وليس صدفة أن هذه الزهور المتفتحة على ضفاف وادى النيل كانت بمثابة الومضات اللامعة التي لفتت أنظار العناصر المتطلعة إلى التقدم في المنطقة كلها نحو مصر، وجعلت منها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر منبراً للفكر العربي كله، ومسرحاً لفنونه، وملتقى لكل الثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة والموهومة، ولقد أحست الاحتكارات الاستعمارية الطامعة في المنطقة بالأمل الجديد يستجمع قواه ويتحفز، وكانت بريطانيا بالذات لا تحول أنظارها عن مصر؛ بحكم اهتمامها بالطريق إلى الهند، ومن ثم ألقت بثقلها كله في المعركة الثورية التي لاحت مقدماتها بين القوى الشعبية وبين أسرة محمد على الدخيلة المغامرة، وكانت ثورة عرابي هي قمة رد الفعل الثوري ضد النكسة، وكان الاحتلال البريطاني العسكري لمصر سنة ١٨٨٢؛ ضماناً لمصالح الاحتكارات المالية الأجنبية وتأييداً لسلطة الخديوي ضد الشعب، هو التعبير عن إرادة الاستعمار في استمرار بقاء النكسة، ومواصلة القهر والاستغلال ضد شعب مصر.

إن قوة الاحتلال البريطاني العسكرية، ومؤامرات المصالح الاحتكارية الاستعمارية، والإقطاع الذى أقامته أسرة

محمد على باحتكارها للأرض أو اقتسام جزء منها بين أصدقائها أو أصدقاء المستغلين الأجانب.. ذلك كله لم يستطع أن يطفئ شعلة الثورة على الأرض المصرية.

إن وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية.. في مواجهة هذا الإرهاب المتحكم؛ الذى تسنده قوى الاحتلال الأجنبي، والمصالح الدولية الاستعمارية.

إن أصداء المدافع التي ضربت الإسكندرية، وأصداء القتال الباسل الذى طعن من الخلف في التل الكبير؛ لم تكد تخفت حتى انطلقت أصوات جديدة تعبر عن إرادة الحياة التي لا تموت لهذا الشعب الباسل، وعن حركة اليقظة التي لم تقهرها المصائب والمصاعب.

لقد سكت أحمد عرابي لكن صوت مصطفى كامل بدأ يجلجل في آفاق مصر. ومن عجب أن هذه الفترة التي ظن فيها الاستعمار والمتعاونون معه أنها فترة الخمود كانت من أخصب الفترات في تاريخ مصر؛ بحثاً في أعماق النفس، وتجميعاً لطاقات الانطلاق من جديد.

لقد ارتفع صوت محمد عبده في هذه الفترة ينادى بالإصلاح الديني.

وارتفع صوت لطفى السيد ينادى بأن تكون مصر للمصريين.

وارتفع صوت قاسم أمين ينادى بتحرير المرأة.

وكانت تلك كلها مقدمة موجة ثورية جديدة؛ ما لبثت أن تفجرت سنة ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وبعد خيبة الأمل في الوعود البراقة التي قطعها الحلفاء على أنفسهم خلال الحرب، وفى مقدمتها وعود "ويلسون" الذى ما لبث هو نفسه أن تنكر لها واعترف بالحماية البريطانية على مصر. وركب سعد زغلول قمة الموجة الثورية الجديدة؛ يقود النضال الشعبي العنيد الذى وجهت إليه الضربات المتلاحقة أكثر من مائة عام متواصلة، دون أن يستسلم أو ينهزم.

إن ثورة الشعب المصري سنة ١٩١٩ تستحق الدراسة الطويلة؛ فإن الأسباب التي أدت إلى فشلها هي نفس الأسباب التي حركت حوافز الثورة في سنة ١٩٥٢.

إن هناك ثلاثة أسباب واضحة أدت إلى فشل هذه الثورة، ولابد من تقييمها في هذه المرحلة تقييماً أميناً ومنصفاً.

أولاً: إن القيادات الثورية أغفلت إغفالاً يكاد أن يكون تاماً مطالب التغيير الاجتماعي؛ على أن تبرير ذلك واضح في

طبيعة المرحلة التاريخية التي جعلت من طبقة ملاك الأراضي أساساً للأحزاب السياسية التي تصدت لقيادة الثورة، ومع أن اندفاع الشعب إلى الثورة كان واضحاً في مفهومه الاجتماعي إلا أن قيادات الثورة لم تتنبه لذلك بوعى؛ حتى لقد ساد تحليل خاطئ في هذه الظروف ردده بعض المؤرخين؛ مؤداه أن الشعب المصري ينفرد عن بقية شعوب العالم بأنه لا يثور إلا في حالة الرخاء. ولقد استدلوا على ذلك بأن الثورة وقعت في ظروف الرخاء الذى صاحب ارتفاع أسعار القطن في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الأولى، وذلك استدلال سطحي؛ فإن هذا الرخاء كان محصوراً في طبقة ملاك الأراضي، وطبقة التجار والمصدرين الأجانب، الذين استفادوا من ارتفاع الأسعار؛ وبذلك زاد التناقض بينهم وبين الكادحين من الفلاحين، الذين كانوا يروون حقول القطن بعرقهم ودمائهم؛ دون أن تتغير أحوالهم بارتفاع أسعاره، وكان هذا الحرمان في القاعدة بتناقضه مع الرخاء في القمة من أسباب الاحتكاك الذى أشعل شرارة الثورة.

إن المحرومين كانوا هم وقود الثورة وضحاياها، لكن القيادات التي تصدت في مقدمة الموجه الثورية سنة ١٩١٩،

بإغفالها للجوانب الاجتماعية من محركات الانفجار الثوري لم تستطع أن تتبين بوضوح أن الثورة لا تحقق غاياتها بالنسبة للشعب إلا إذا مدت اندفاعها إلى ما بعد المواجهة السياسية الظاهرة من طلب الاستقلال؛ ووصلت إلى أعماق المشكلة الاقتصادية والاجتماعية. ولقد كانت الدعوة إلى تمصير بعض أوجه النشاط المالي هي قصارى الجهد في ذلك الوقت، في حين أن الدعوة إلى إعادة توزيع الثروة الوطنية أصلاً وأساساً كانت هي المطلب الحيوي الذى يتحتم البدء فيه من غير تأخير أو إبطاء.

ثانياً: إن القيادات الثورية في ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء، وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية، ولم تستطع أن تستشف – من خلال التاريخ – أنه ليس هناك صدام على الإطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية.

لقد فشلت هذه القيادات في أن تتعلم من التاريخ، وفشلت أيضاً في أن تتعلم من عدوها الذى تحاربه، والذى كان يعامل الأمة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقاً لمخطط واحد.

ومن هنا فإن قيادات الثورة لم تنتبه إلى خطورة وعد "بلفور" الذى أنشأ إسرائيل لتكون فاصلاً يمزق امتداد الأرض العربية، وقاعدة لتهديدها؛ وبهذا الفشل فإن النضال العربي في ساعة من أخطر ساعات الأزمة حرم من الطاقة الثورية المصرية، وتمكنت القوى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمة عربية ممزقة الأوصال مفتتة الجهد.

واختصت إدارة الهند البريطانية بالتعامل مع شبه الجزيرة العربية ومع العراق، وانفردت فرنسا بسوريا ولبنان، بل وصل الهوان بالأمة العربية في ذلك الوقت إلى حد أن جواسيس الاستعمار تصدروا قيادة حركات ثورية عربية، وكانت بأمرهم وبمشورتهم تقام العروش للذين خانوا النضال العربي، وانحرفوا عن أهدافه.

كل هذا والحركة الثورية الوطنية في مصر تتصور أن هذه الأحداث لا تعنيها، وأنها لا ترتبط مصيرياً بكل هذه التطورات الخطيرة.

ثالثاً: إن القيادات الثورية لم تستطع أن تلائم بين أساليب نضالها وبين الأساليب التي واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب في ذلك الوقت.

إن الاستعمار اكتشف أن القوة العسكرية تزيد ثورات الشعوب اشتعالاً؛ ومن ثم انتقل من السيف إلى الخديعة، وقدم تنازلات شكلية لم تلبث القيادات الثورية أن خلطت بينها وبين الجوهر الحقيقي، وكان منطق الأوضاع الطبقية يزين لها هذا الخلط.

إن الاستعمار في هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه وسلب مضمونه، ومنح من الحرية شعارها واغتصب حقيقتها.

وهكذا انتهت الثورة بإعلان استقلال لا مضمون له، وبحريه جريحة تحت حراب الاحتلال، وزادت المضاعفات خطورة بسبب الحكم الذاتي الذى منحه الاستعمار، والذى أوقع الوطن باسم الدستور في محنة الخلاف على الغنائم دون نصر.

وكانت النتيجة أن أصبح الصراع الحزبي في مصر ملهاة تشغل الناس، وتحرق الطاقة الثورية في هباء لا نتيجة له. وكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ التي عقدت بين مصر وبريطانيا، والتي اشتركت في توقيعها جبهة وطنية تضم كل الأحزاب السياسية العاملة في ذلك الوقت؛ بمثابة صك الاستسلام

للخديعة الكبرى الذى وقعت فيها ثورة سنة ١٩١٩، فقد كانت مقدمتها تنص على استقلال مصر؛ بينما صلبها في كل عبارة من عباراته يسلب هذا الاستقلال كل قيمة له وكل معــنى.

الباب الرابع
درس النكسة

لقد كانت فترة الخطر الحقيقي على نضال الشعب المصري الطويل؛ هي هذه الفترة الحافلة بالخديعة، ما بين انتكاسة سنة ١٩١٩ إلى حين تنبهت القوى الشعبية للخطر الذى يتهددها من منطق المساومة والاستسلام؛ ومن ثم بدأ التأهب النفسي لثورة يوليو سنة ١٩٥٢.

إن هذه الفترة كانت قادرة؛ لولا صلابة الشعب، ومعدنه الأصيل، أن تحمل البلاد إلى حالة من اليأس، تخنق كل حوافز الرغبة في التغيير، أو تلحق بها الشلل الذى يمنعها من الحركة.

إن هذه الفترة التي يمكن أن ننظر إليها الآن باعتبارها فترة الأزمة الكبرى كانت حافلة بالواجهات المضللة التي تخفى وراءها الأطلال المتهاوية من بقايا ثورة سنة ١٩١٩.

لقد كانت القيادات الباقية من ذكريات الثورة مازالت واقفة في المقدمة، ولكن هذه القيادات فقدت كل طاقاتها الثورية، وأسلمت كل الشعارات التي رفعها الشعب سنة ١٩١٩ إلى كبار ملاك الأرض الذين كانوا دعامة التنظيمات

الحزبية القائمة، وأشركوا فيها بعض الانتهازيين الذين اجتذبتهم عملية تقسيم الغنائم بعد انتكاسة الثورة، ولقد ظهرت في هذا الجو فئات طفيلية.. لقد استطاع هذا الانحراف أن يجذب إلى الجو الحزبي الفاسد جماعات من المثقفين كان في قدرتهم أن يكونوا حراساً على أماني الثورة الحقيقية، لكن الإغراء كان أقوى من مقاومتهم.

كذلك استطاع هذا الانحراف أن يمهد لفئة من الرأسماليين ورثوا - في حقيقة الأمر - نفس دور المغامرين الأجانب في القرن التاسع عشر، بكل سطحيته التي لا تهتم بتطوير الوطن ذاته قدر اهتمامها باستغلال أكبر جزء من ثروته، ونزحها في أقل وقت ممكن.

ثم انتهى المطاف بهذه الأحزاب جميعاً إلى الحد الذى دفعها للارتماء في أحضان القصر تارة، وفى أحضان الاستعمار تارة أخرى. وفى الواقع كان القصر والاستعمار بحكم مصالحهما في صف واحد؛ وإن بدت الخلافات السطحية بينهما في بعض الظروف، لكن الحقيقة الكبرى أن كليهما كان يقف في الصف المعادي لمصالح الشعب، والمضاد لاتجاه التقدم.

إن سلطة الشعب كانت خطراً على أوضاعهما الدخيلة، واتجاه التقدم كان محققاً أن يجرفهما معاً إلى نفس المصير، وفى ذلك الوقت أيضاً كانت هناك واجهة ديمقراطية مضللة؛ استعانت بها الفلول المنهزمة من ثورة ١٩١٩ لتخدع بها الشعب عن حقيقة مطالبه.

إن الديمقراطية بالطريقة التي جرت بها ممارستها في مصر تلك الفترة كانت ملهاة مهينة. إن الشعب لم يعد صاحب السلطة؛ وإنما أصبح الشعب أداة في يد السلطة، أو بمعنى أصح ضحية لها. ولم تعد أصوات الجماهير هي التي تقرر خط السير الوطني؛ وإنما أصبحت أصوات الجماهير تساق وفقاً لإرادة السلطات الحاكمة وأصدقائها.

ولقد كان ذلك نتيجة طبيعية لإغفال الجانب الاجتماعي من أسباب ثورة الشعب سنة ١٩. إن الذى يحتكر رزق الفلاحين والعمال، ويسيطر عليه؛ يقدر بالتبعية أن يحتكر أصواتهم، وأن يسيطر عليهم، ويملى فوقهم إرادته.

إن حرية رغيف الخبز ضمان لابد منه لحرية تذكرة الانتخابات. إن هذه الأزمة العنيفة فتحت أمام سلطات الأسرة المالكة أبواباً جاهد النضال الشعبي طويلاً لكى

يسدها، لكن انتكاسة الثورة شجعت الأسرة المالكة على تجاوز كل الحدود، وفى جو الأزمة لم يعد الدستور، الذى رضيت به القيادات الثورية منحة من الدخيل ومنة؛ إلا مجرد قصاصة ورق بهتت عليها الحقوق الشكلية التي كانت قد ألقيت للشعب لينشغل بها ويتلهى.

ولقد استسلمت القيادات التي تصدت للنضال الشعبي أمام سلطة القصر المتزايدة؛ بسبب ضعفها المتزايد، وركعت جميعاً تلتمس الرضا الذى يصل بها إلى مقاعد الحكم، وتخلت بذلك عن الشعب، وأهدرت كل قيمة له؛ ناسية بذلك أنها تتخلى طواعية عن مصدر قوتها الوحيد، ومنبعها الأصلي، وانتهى الأمر إلى حد أنهم هانوا على الشيطان الذين باعوه أرواحهم، فوصل بهم الهوان إلى حد أن تغيير الوزارات أصبح له ثمن معلوم يدفع للقصر ولوسطائه. إن القيادات الوطنية حين تخلع جذورها من التربة الشعبية تحكم على نفسها بالذبول وبالموت.

ولسوف يبقى الوطن زماناً طويلاً يشعر في حلقه بمرارة الذل الذى أحسه في هذه الفترة المتأزمة؛ من جراء استهانة الاستعمار بنضاله استهانة فاقت كل حدود الاحتمال البشرى.

إن الثورة على الاستعمار حق طبيعي لكل الشعوب المستعمرة، لكن الكراهية المرة التي يشعر بها شعبنا تجاه المستعمرين، والتي مازال يشعر بها حتى الآن رغم بعد أسبابها؛ تستمد مبرراتها من هذه الفترة.

إن الاستعمار في هذه الفترة لم يكتف بإرهاب شعوب الأمة العربية كلها؛ وإنما استهان بنضالها وبحقها في الحياة.

إن الاستعمار تنكر لكل عهوده التي قطعها على نفسه خلال الحرب العالمية الأولى، وكانت الأمة العربية تتصور أنها قريبة من يوم الاستقلال ويوم الوحدة.

إن الأمل في الاستقلال تلقى ضربات قاسية؛ فإن البلاد العربية قسمت بين الدول الاستعمارية وفق مطامعها، بل وفق نزواتها، واخترع ساسة الاستعمار كلمات مهينة لتغطية الجريمة التي أقدموا عليها ككلمات الانتداب، والوصاية.

إن قطعة من الأرض العربية في فلسطين قد أعطيت من غير سند من الطبيعة أو التاريخ لحركة عنصرية عدوانية؛ أرادها المستعمر لتكون سوطاً في يده؛ يلهب به ظهر النضال العربي إذا استطاع يوماً أن يتخلص من المهانة، وأن يخرج من الأزمة الطاحنة كما أرادها المستعمر فاصلاً يعوق امتداد

الأرض العربية، ويحجز المشرق عن المغرب، ثم أرادها عملية امتصاص مستمرة للجهد الذاتي للأمة العربية؛ تشغلها عن حركة البناء الإيجابي.

إن ذلك كله تم بطريقة تحمل طابعاً استفزازياً؛ لا تقيم وزناً لوجود الأمة العربية أو لكرامتها. إن سخرية القدر من الأمة العربية وصلت إلى حد أن جيوشها التي دخلت فلسطين لتحافظ على الحق العربي فيها؛ كانت تحت القيادة العليا لأحد العملاء الذين اشتراهم الاستعمار بالثمن البخس، بل إن العمليات العسكرية تحت هذه القيادة العليا كانت في يد ضابط إنجليزي؛ يتلقى أوامره من نفس الساسة الذين أعطوا للحركة الصهيونية وعد "بلفور"؛ الذى قامت على أساسه الدولة اليهودية في فلسطين.

إن سنوات طويلة سوف تمضى قبل أن تنسى الأمة العربية مرارة التجربة التي عاشتها في هذه الفترة، محصورة بين الإرهاب والإهانة. إن الأمة العربية خرجت من هذه التجربة بإصرار عميق على كراهية الاستعمار وعلى هزيمته.. إنها خرجت بدرس عظيم الفائدة عن حقيقة أن الاستعمار

ليس مجرد نهب لموارد الشعوب؛ وإنما هو عدوان على كرامتها وعلى كبريائها.

إن الشعب المصري بدأ يتأهب لاستئناف دوره التاريخي؛ حتى قبل أن تنتهى الحرب العالمية الثانية، وقبل أن تنزاح الأشباح الكئيبة لدبابات الاحتلال عن مدنه الكبرى.

ولقد عبر الشعب المصري عن نفسه؛ برفضه العنيد أن يشترك في الحرب التي لم تكن في نظره إلا صراعاً على المستعمرات والأسواق، بين العنصرية النازية وبين الاستعمار البريطاني- الفرنسي؛ جرت على البشرية كلها ويلات لا حدود لها من القتل بالجملة والدمار الشامل.

لقد رفض الشعب المصري كل الشعارات التي رفعها المتحاربون أعلاماً فوق رءوسهم ليخدعوا بها الشعوب، وسحب الشعب المصري كله البقايا الباقية من تأييده للذين تعاونوا مع سلطة الاحتلال؛ طمعاً في مكاسب السوق السوداء التي فرضتها الحرب وظلالها القاتمة، وعمت الشباب المصري موجة من السخط والغضب على كل الذين مدوا أيديهم للاحتلال وقبلوا وجوده. ولقد ترددت في مصر ذلك الوقت أصداء طلقات الرصاص، وتجاوبت أصداء انفجارات

القنابل، وكثرت التنظيمات السرية بمختلف اتجاهاتها وأساليبها، ولم تكن تلك هي الثورة؛ وإنما كان ذلك هو التمهيد لها.. كانت تلك هي مرحلة الغضب التي تمهد لاحتمالات الثورة.

إن الغضب مرحلة سلبية. إن الثورة عمل إيجابي يستهدف إقامة أوضاع جديدة. إن غضب الشعب المصري الممهد للتغيير بدأ يجاوز النطاق الفردي إلى النطاق الجماعي. إن ثورات الفلاحين ضد استبداد الإقطاع وصلت إلى حد الاشتباك المسلح بين الذين ثاروا على عبودية الأرض وبين سادة الأرض المتحكمين فيها، وفى أقدار الذين ارتبطت حياتهم بها منذ أقدم العصور؛ وإن كانوا منذ أقدم العصور قد حرموا منها. وحريق القاهرة مهما يكن وراءه من تدبير المدبرين كان يمكن إطفاؤه لكن ثورة السخط الشعبي زادته اشتعالاً. إن الفئة المتحكمة في العاصمة لم تكن تشعر باحتياجات الشعب، وكانت غارقة في حياتها المترفة؛ لا تشعر بعذاب الجوع أو آلامه.

إن شرار الغضب أشعل من الحرائق في القاهرة أكثر مما أشعلت يد التدبير الخفية التي بدأت عملية الحريق.

إن الجماهير في القرية وفى المدينة كانت قد عبرت بما فيه الكفاية عن إرادتها الحقيقية مع مطلع السنة الحاسمة في تاريخ مصر؛ سنة ١٩٥٢.

إن أعظم ما في ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ أن القوات التي خرجت من الجيش لتنفيذها لم تكن هي صانعة الثورة؛ وإنما كانت أداة شعبية لها.

لقد كانت المهمة الكبرى للطلائع الثورية التي تحركت في الجيش تلك الليلة الخالدة؛ هي أنها استولت على الأمور فيه، واختارت له المكان الذى لا مكان له غيره، وهو جانب النضال الشعبي. إنها قامت بعملية تصحيح للأوضاع بالغة الأهمية والخطر في تلك الظروف؛ متحدية بذلك إرادة كل القوى الحاكمة التي أرادت عزل الجيش عن النضال الشعبي.

إن الثورة تفجرت تلك الليلة العظيمة من انضمام الجيش إلى مكانه الطبيعي تحت قيادة الشعب وفى خدمة أمانيه.

إن الجيش في تلك الليلة أعلن ولاءه للنضال الشعبي، ومن ثم فتح الطريق أمام إرادة التغيير. إن انضمام الجيش إلى النضال الشعبي صنع أثرين هائلين في نفس الليلة؛ لقد سلب

قوى الاستغلال الداخلي أداتها التي كانت تهدد بها ثورة الشعب؛ كذلك فإنه سلح النضال الشعبي في مواجهة قوى السيطرة الأجنبية المحتلة بدرع من الصلب قادر أن يصد عنه ضربات الخيانة والغدر.

إن الثورة لم تحدث ليلة ٢٣ يوليو؛ ولكن الطريق إليها قد فتح على مصراعيه تلك الليلة العظيمة، ولقد أثبت الوعى الثوري في مصر قدرته على تحمل المسئولية الكبرى التي ألقتها تطورات الظروف عليه.

إن الوعى الثوري استمد من حسه الوطني الصافي قدرته على الرؤية الواضحة البعيدة المدى؛ وبذلك أمكن اجتياز العقبات التي كان يمكن أن تعترض طريق التغيير الثوري في مثل ظروف التجربة التي عاشتها مصر تلك الأيام.

لقد كان يمكن أن يتحول الحدث الكبير الذى جرى ليلة ٢٣ يوليو إلى مجرد تغيير للوزارة القائمة أو لنظام الحكم، وكان يمكن أن يتحول من ناحية أخرى إلى ديكتاتورية عسكرية تضيف إلى التجارب الفاشية تجربة أخرى فاشلة؛ لكن أصالة الوعى الثوري وقوته سيطرت على اتجاهات

الأمور، ومنحت جميع العناصر الوطنية إدراكاً لدورها في توجيه النضال الوطني.

إن أصالة هذا الوعى وقوته هي التي فرضت أن يكون الحدث الكبير ليلة ٢٣ يوليو خطوة على طريق تغيير جذري شامل؛ يعيد الأماني الوطنية إلى مجراها الثوري السليم الذى ضاع منها بسبب انتكاسة ثورة سنة ١٩١٩؛ كما أن أصالة هذا الوعى وقوته هي التي رفضت تماماً كل احتمالات قيام ديكتاتورية عسكرية، ووضعت القوى الشعبية - وفى طليعتها قوى الفلاحين والعمال - موضع القيادة الفعلية.

كذلك ففي هذه الفترة الدقيقة تمرد الوعى الثوري الأصيل على منطق دعاة الإصلاح، واختار طريق الثورة الشاملة. إن احتياجات الوطن لم تكن تكتفى بترميم البناء القديم المتداعي وصلبه بالقوائم تسنده وإعادة طلائه؛ وإنما كانت احتياجات الوطن تتطلب بناءً جديداً ثابت الأساس، صلباً، شامخاً.

ولقد كانت أكبر حجة ضد منطق دعاة الإصلاح أن البناء القديم انهار أنقاضاً وركاماً في مواجهة التجربة الجديدة. إن سقوط النظام الذى كان سائداً قبل الثورة هذا

السقوط الكامل السريع كان يقطع بعدم جدوى محاولات الترميم، لكن سقوط النظام القديم لم يكن هدف التطلع الثوري. إن التطلع الثوري بكل آماله ومثله العليا يهتم بالبناء الجديد أكثر من اهتمامه بالأنقاض التي تداعت.

إن الباب الذى انفتح على مصراعيه ليلة ٢٣ يوليو ظل مفتوحاً لفترة طويلة؛ قبل أن يدخل منه التغيير الحتمي الذى طال انتظاره.

لقد كانت هناك أنقاض النظام القديم وحطامه تسد الطريق، كما كانت هناك رواسب متعفنة من مطامعه البالية المهزومة، وفى نفس الوقت فإن القيادات السياسية التي كانت تتصدر الحياة العامة سقطت كلها تحت أنقاض النظام القديم؛ الذى شاركت فيه جميعها في انحرافاتها عن الأهداف الأصلية التي كان يجب التزامها في ثورة سنة ١٩.

لقد كانت جميعها شريكة في سياسة ساوم واستسلم التي صاحبت فترة الأزمة؛ فطبعتها بهذا الطابع المهين، وكانت الأوضاع الطبقية قد أبعدت عناصر كثيرة صالحة للقيادة الفكرية عن صفوف القوى الشعبية المتطلعة للثورة والمطالبة بها. وفى نفس الوقت فإن الطلائع الثورية التي صنعت

أحداث ليلة ٢٣ يوليو لم تكن قد أعدت نفسها لتتحمل مسئولية التغيير الثوري الذى تصدت لمقدماته.

لقد فتحت الباب للثورة تحت راية المبادئ الستة المشهورة؛ ولكن هذه المبادئ كانت أعلاماً للثورة وليست أسلوب عمل ثوري ومنهاج تغيير جذري، ولقد كان الأمر من الصعوبة بمكان؛ خصوصاً في جو التغيير العالمي البعيد المدى والعظيم الأثر، لكن الشعب المعلم صانع الحضارة راح يلقن طلائعه أسرار آماله الكبرى، ومضى يحرك المبادئ الستة بالتجربة والخطأ؛ نحو وضوح فكرى يصنع التصميم الهندسي لبناء المجتمع الجديد الذى يريده، وراح الشعب الكادح يكدس مواد البناء، ويكتل جميع القوى الثورية القادرة على الإسهام فيه من صفوف الجماهير الواسعة.

إن الشعب المعلم أراد لطلائعه الثورية أن تنضم إلى صفوف العمل الجماهيري، وأوكل إلى جيشه الوطني مهمة حماية عملية البناء، ثم راح يشرف بوعى وجدارة على التحول الرائد الخلاق نحو الاشتراكية الديمقراطية التعاونية.

الباب الخامس
عن الديمقراطية السليمة

إن الثورة بالطبيعة عمل شعبي وتقدمي؛ إنها حركة شعب بأسره يستجمع قواه ليقوم باقتحام عنيد لكل العوائق والموانع التي تعترض طريق حياته كما يتصورها، وكما يريدها؛ كما أنها قفزة عبر مسافة التخلف الاقتصادي والاجتماعي؛ تعويضاً لما فات، ووصولاً إلى الآمال الكبرى؛ التي تبدو خلال المثل الأعلى لما يريده للأجيال القادمة منه.

من هنا فإن العمل الثوري الصادق لا يمكن بغير سمتين أساسيتين:

أولاهما: شعبيته.

والثانية: تقدميته.

إن الثورة ليست عمل فرد؛ وإلا كانت انفعالاً شخصياً يائساً ضد مجتمع بحاله. والثورة ليست عمل فئة واحدة؛ وإلا كانت تصادماً مع الأغلبية، وإنما قيمة الثورة الحقيقية بمدى شعبيتها، بمدى ما تعبر به عن الجماهير الواسعة، وبمدى ما تعبئه من قوى هذه الجماهير لإعادة صنع المستقبل،

وبمدى ما يمكن أن توفره لهذه الجماهير من قدرة على فرض إرادتها على الحياة.. والثورة تقدم بالطبيعة.

إن الجماهير لا تطالب بالتغيير ولا تسعى إليه وتفرضه لمجرد التغيير نفسه خلاصاً من الملل؛ وإنما تطلبه وتسعى إليه وتفرضه تحقيقاً لحياة أفضل، تحاول بها أن ترتفع بواقعها إلى مستوى أمانيها.

إن التقدم هو غاية الثورة، والتخلف المادي والاجتماعي هو المفجر الحقيقي لإرادة التغيير، والانتقال بكل قوة وتصميم مما كان قائماً بالفعل إلى ما ينبغي أن يقوم بالأمل.

إن الديمقراطية هي الترجمة الصحيحة لكون الثورة عملاً شعبياً. إن الديمقراطية هي توكيد السيادة للشعب، ووضع السلطة كلها في يده، وتكريسها لتحقيق أهدافه؛ كذلك فإن الاشتراكية هي الترجمة الصحيحة لكون الثورة عملاً تقدمياً.. فإن الاشتراكية هي إقامة مجتمع الكفاية والعدل، مجتمع العمل وتكافؤ الفرصة، مجتمع الإنتاج ومجتمع الخدمات.

إن الديمقراطية والاشتراكية من هذا التصور تصبحان امتداداً واحداً للعمل الثوري. إن الديمقراطية هي الحرية

السياسية، والاشتراكية هي الحرية الاجتماعية، ولا يمكن الفصل بين الاثنين.. إنهما جناحا الحرية الحقيقية وبدونهما أو بدون أي منهما لا تستطيع الحرية أن تحلق إلى آفاق الغد المرتقب.

إن عمق الوعى الثوري للشعب المصري، ووضوح الرؤية أمامه بفعل الصدق مع النفس؛ قد مكنه غداة النصر العظيم في معركة السويس من أن يحسن تقدير موقفه.

إن الشعب المصري استطاع وسط مهرجان النصر العظيم أن يدرك أنه لم يحصل على الحرية في معركة السويس؛ وإنما هو في معركة السويس استخلص إرادته لكى يصنع بها الحرية ثورياً.

إن المعركة المجيدة مكنته من أن يكتشف قدراته وإمكانياته؛ وبالتالي أن يوجه هذه القدرات والإمكانيات ثورياً لتحقيق الحرية.

إن النصر ضد الاستعمار بالنسبة لهذا الشعب العظيم لم يكن نهاية المطاف؛ وإنما كان بداية العمل الحقيقي، وكان مجرد مركز أكثر ملاءمة لمواصلة الحرب من أجل الحرية الحقيقية، وضمانها مزدهرة على أرضه إلى الأبد.

إن السؤال الذى طرح نفسه تلقائياً غداة النصر العظيم في السويس؛ هو لمن هذه الإرادة الحرة التي استخلصها الشعب المصري من قلب المعركة الرهيبة؟ وكان الرد التاريخي الذى لا رد غيره؛ هو أن هذه الإرادة لا يمكن أن تكون لغير الشعب، ولا يمكن أن تعمل لغير تحقيق أهدافه.

إن الشعوب لا تستخلص إرادتها من قبضة الغاصب لكى تضعها في متاحف التاريخ؛ وإنما تستخلص الشعوب إرادتها وتدعمها بكل طاقاتها الوطنية لتجعل منها السلطة القادرة على تحقيق مطالبها.

إن هذه المرحلة من النضال هي أخطر المراحل في تجارب الأمم.. إنها النقطة التي انتكست بعدها حركات شعبية كانت تبشر بالأمل في نتائج باهرة، ولكنها نسيت نفسها بعد أول انتصار لها ضد الضغط الخارجي، وتوهمت خطأً أن أهدافها الثورية تحققت؛ ومن ثم تركت الواقع كما هو دون تغيير.. ناسية أن عناصر الاستغلال الداخلي متصلة عن قرب مع قوى الضغط الخارجي؛ فإن الصلة بينهما والتعاون تفرضهما ظروف تبادل المنافع والمصالح على حساب الجماهير.

إن هذه الحركات الشعبية تسلم نفسها بعد ذلك للواجهات الدستورية المخادعة، وتتصور بذلك أن الحرية استوفت حقوقها، لكن هذه الحركات الشعبية تكشف دائماً - وبعد فوات الأوان في كثير من الأحيان - أنها بقصورها عن التغيير الثوري في معناه الاقتصادي سلبت الحرية السياسية ضمانها الحقيقي، ولم تترك لنفسها منها غير مجرد واجهة هشة؛ لا تلبث أن تتحطم وتنهار بفعل التناقض بينها وبين الحقيقة الوطنية.

كذلك ففي هذه المرحلة الخطيرة من النضال الوطني تنتكس حركات شعبية أخرى؛ حين تنهج للتغيير الداخلي نظريات لا تنبع من التجربة الوطنية.

إن التسليم بوجود قوانين طبيعية للعمل الاجتماعي، ليس معناه القبول بالنظريات الجاهزة، والاستغناء بها عن التجربة الوطنية. إن الحلول الحقيقية لمشاكل أي شعب لا يمكن استيرادها من تجارب شعوب غيره، ولا تملك أي حركة شعبية في تصديها لمسئولية العمل الاجتماعي أن تستغنى عن التجربة. إن التجربة الوطنية لا تفترض مقدماً بتخطئة جميع النظريات السابقة عليها، أو تقطع برفض

الحلول التي توصل إليها غيرها؛ فإن ذلك تعصب لا تقدر أن تتحمل تبعاته؛ خصوصاً وأن إرادة التغيير الاجتماعي في بداية ممارستها لمسئولياتها تجتاز فترة أشبه بالمراهقة الفكرية؛ تحتاج خلالها إلى كل زاد فكرى، لكنها في حاجة إلى أن تهضم كل زاد تحصل عليه، وأن تمزجه بالعصارات الناتجة من خلاياها الحية.

إنها تحتاج إلى معرفة بما يجرى من حولها لكن حاجتها الكبرى هي إلى ممارسة الحياة على أرضها، وإن تجربة الصواب والخطأ هي في حياة الأمم كشأنها في حياة الأفراد؛ طريق النضوج والوضوح.

ومن ثم فإن الحرية السياسية؛ أي الديمقراطية، ليست هي نقل واجهات دستورية شكلية، كذلك فإن الحرية الاجتماعية؛ أي الاشتراكية، ليست التزاماً بنظريات جامدة لم تخرج من صميم الممارسة والتجربة الوطنية.

إن مصر وقعت بعد الحركة الشعبية الثورية سنة ١٩١٩ في الخديعة الكبرى للديمقراطية المزيفة، واستسلمت القيادات الثورية- بعد أول اعتراف من الاستعمار باستقلال

مصر- إلى ديمقراطية الواجهات الدستورية التي لا تحتوى على أي مضمون اقتصادي.

إن ذلك لم يكن ضربة شديدة ضد الحرية في صورتها الاجتماعية فقط؛ وإنما ما لبثت الضربة أن وصلت إلى هذه الواجهة السياسية الخارجية ذاتها؛ فإن الاستعمار لم يقم وزناً لكلمة الاستقلال المكتوبة على الورق، ولم يتورع عن تمزيقها في أي وقت وفقاً لمصالحه.. إن ذلك كان أمراً طبيعياً.

إن واجهة الديمقراطية المزيفة لم تكن تمثل إلا ديمقراطية الرجعية؛ والرجعية ليست على استعداد لأن تقطع صلتها بالاستعمار، أو توقف تعاونها معه؛ ولذلك فلقد كان المنطق الطبيعي- بصرف النظر عن الواجهات الخارجية المزيفة- أن نجد الوزارات في عهد ديمقراطية الرجعية، وفى ظل ما كان يسمى بالاستقلال الوطني؛ لا تستطيع أن تعمل إلا بوحى من ممثل الاستعمار الرسمي في مصر، بل إنها في بعض الأحيان لم توجد إلا بمشورته وبأمره، بل وصل الحال في إحدى المرات أنها جاءت إلى الحكم بدباباته.

إن ذلك كله يمزق القناع عن الواجهة المزيفة، ويفضح الخديعة الكبرى في ديمقراطية الرجعية، ويؤكد عن يقين أنه

لا معنى للديمقراطية السياسية، أو للحرية في صورتها السياسية، من غير الديمقراطية الاقتصادية أو الحرية في صورتها الاجتماعية.

إنه من الحقائق البديهية التي لا تقبل الجدل أن النظام السياسي في بلد من البلدان ليس إلا انعكاساً مباشراً للأوضاع الاقتصادية السائدة فيه، وتعبيراً دقيقاً للمصالح المتحكمة في هذه الأوضاع الاقتصادية، فإذا كان الإقطاع هو القوة الاقتصادية التي تسود بلداً من البلدان؛ فمن المحقق أن الحرية السياسية في هذا البلد لا يمكن أن تكون غير حرية الإقطاع إنه يتحكم في المصالح الاقتصادية، ويملى الشكل السياسي للدولة ويفرضه خدمة لمصالحه؛ وكذلك الحال عندما تكون القوة الاقتصادية لرأس المال المستغل.

ولقد كانت القوة الاقتصادية في مصر قبل الثورة في يد تحالف بين الإقطاع وبين رأس المال المستغل، وكان محتماً أن تكون الأشكال السياسية بما فيها الأحزاب تعبيراً عن هذه القوة، وواجهة ظاهرة لهذا التحالف بين الإقطاع وبين رأس المال المستغل.

إنه مما يلفت النظر أن بعض الأحزاب في تلك الظروف؛ لم تتورع عن أن ترفع - من غير مواربة - شعار أن الحكم يجب أن يكون لأصحاب المصالح الحقيقية، ولما كان الإقطاع ورأس المال المستغل هما أصحاب المصالح الحقيقية في البلاد وقتها؛ فلقد كان هذا الشعار أكثر من اعتراف ضمني بالمهزلة التي فرضتها القوى المسيطرة على الشعب المصري باسم الديمقراطية.

إن هذا الشعار - على أي حال - مهما بلغت درجة الإيلام فيه؛ كان اعترافاً صريحاً وصادقاً بالحقيقة المرة. إن سيادة الإقطاع المتحالف مع رأس المال المستغل على اقتصاديات الوطن؛ كانت لابد أن تمكن لهما طبيعياً وحتمياً من السيطرة على العمل السياسي فيه، وعلى أشكاله، وعلى ضمان توجيهها لخدمة التحالف بينهما على حساب الجماهير، وإخضاع هذه الجماهير بالخديعة أو بالإرهاب حتى تقبل أو تستسلم.

إن الديمقراطية على هذا الأساس لم تكن إلا ديكتاتورية الرجعية. إن فقدان الحرية الاجتماعية لجماهير الشعب سلب كل قيمة لشكل الحرية السياسية التي كانت

تفضلت بها عليها الرجعية المتحكمة؛ حتى لقد صدر دستور سنة ١٩٢٣ منحة من الملك ومنة منه وتفضلاً. إن البرلمان الذى أقامه هذا الدستور لم يكن حامياً لمصالح الشعب؛ وإنما كان بالطبيعة حارساً للمصالح التي منحت هذا الدستور. وليس من شك أن أصواتاً كثيرة ارتفعت داخل البرلمان تنادى بحقوق الشعب، ولكن هذه النداءات تبددت هباء دون تأثير حقيقي، بل إن الرجعية لم يكن يضيرها أن تفتح متنفساً للسخط الشعبي؛ مادامت تملك جميع صمامات التوجيه، ومادامت بيدها- تحت كل الظروف- أغلبيتها التي تمكن لديكتاتوريتها الطبقية وتحمى امتيازاتها.

إن حق التصويت فقد قيمته حين فقد اتصاله المؤكد بالحق في لقمة العيش. إن حرية التصويت من غير حرية لقمة العيش وضمانها فقدت كل قيمة فيها، وأصبحت خديعة مضللة للشعب. تحت هذه الظروف أصبح حق التصويت أمام ثلاثة احتمالات ليس لها بديل:

في الريف.. كان التصويت إجباراً للفلاح لا يقبل المناقشة، فلم يكن يملك إلا أن يعطى صوته للإقطاعي صاحب الأرض، أو وفق مشيئته، أو يواجه تبعات العصيان؛

وأولاهما: أن يطرد من الأرض التي يعمل فيها بما لا يكاد أن يكفى لسد جوعه.

في الريف والمدينة كان شراء الأصوات يمكن رأس المال المستغل من أن يأتي بأعوانه، أو بمن يضمن ولاءهم لمصالحه.

في الريف والمدينة لم تتورع المصالح الحاكمة في عديد من الظروف أن تلجأ إلى التزوير المكشوف إذا ما أحست بوجود تيارات متعارضة مع إرادتها.

وكانت الشروط التي تجرى تحتها عمليات الانتخاب، وفى مقدمتها اشتراط تأمين نقدى باهظ، تصد جماهير الشعب العامل حتى عن مجرد الاقتراب من لعبة الانتخابات، ولم تكن إلا لعبة في تلك الظروف.

وفى نفس الوقت فإن الجهل الذى فرض على الأغلبية العظمى من الشعب، تحت ضغط الفقر؛ جعل من سرية الاقتراع - وهى أولى الضمانات لحريته - أمراً مستحيلاً أو شبه مستحيل.

إن حرية التنظيم الشعبي التي تسند حرية التمثيل الشعبي فقدت هي الأخرى- بتأثير هذه الظروف- فاعليتها،

وعجزت عن التأثير إيجابياً على الأوضاع المفروضة داخل الوطن.

إن ملايين الفلاحين حتى من ملاك الأرض الصغار طحنتهم الإقطاعيات الكبيرة لسادة الأرض المتحكمين في مصيرها، ولم يتمكنوا على الإطلاق من تنظيم أنفسهم داخل تعاونيات تمكنهم من المحافظة على إنتاجية أراضيهم. وبالتالي تعطيهم القدرة على الصمود وعلى إسماع صوتهم للأجهزة المحلية؛ فضلاً عن قصور الحكم في العاصمة؛ كذلك فإن الملايين من العمال الزراعيين عاشوا في ظروف أقرب ما تكون إلى السخرة؛ تحت مستوى من الأجور يهبط كثيراً ليقرب من حد الجوع؛ كما أن عملهم كان يجرى من غير أي ضمان للمستقبل، ولم يكن في طاقتهم إلا أن يعيشوا سنوات حياتهم خلال بؤس الساعات وقسوتها الرهيبة.

كذلك فإن مئات الألوف من عمال الصناعة والتجارة لم تكن في قدرتهم أية طاقة على تحدى إرادة الرأسمالية المتحكمة؛ المتحالفة مع الإقطاع، والمسيطرة على جهاز الدولة وعلى سلطة التشريع، وأصبح العمل سلعة من السلع في عملية الإنتاج، يشتريها رأس المال المستغل تحت أحسن

الشروط موافقة لمصالحه. ولقد واجهت الحركة النقابية التي كان في يدها قيادة هذه الطبقة المناضلة من العمال صعوبات شديدة، حاولت عرقلة طريقها كما حاولت إفسادها.

إن حرية النقد ضاعت في هذه الفترة بضياع حرية الصحافة، ولم يكن الأمر هو مجرد القوانين الصارمة التي وقفت بالمرصاد لحرية النشر، وفرضت بالتشريع محظورات ترتفع على النقد، وتوسعت في هذه المحظورات إلى حد كاد أن يجعل الظلام دامساً وشاملاً. وإنما طبيعة التقدم الآلي في مهنة الصحافة نفسها أحدثت أثراً لا يقل في ضرره عما أحدثته قوانين القمع والكبت.

لقد كان من أثر التقدم الآلي في مهنة الصحافة، واحتياجاتها المتزايدة إلى الآلات الحديثة، وإلى الكميات الهائلة من الورق؛ أن تحولت هذه المهنة العظيمة من كونها عملية رأى إلى أن أصبحت عملية رأسمالية معقدة.

إن الصحافة في هذه الفترة – ومع هذا التطور – لم تكن قادرة على الحياة إلا إذا ساندتها الأحزاب الحاكمة؛ الممثلة لمصالح الإقطاع ورأس المال، أو إذا اعتمدت اعتماداً كلياً على

رأس المال المستغل الذى كان يملك الإعلان بحكم ملكيته للصناعة والتجارة.

إن سلطة الدولة والتشريع استعملت أولاً في إخضاع الصحافة للمصالح الحاكمة؛ وذلك عن طريق قوانين النشر الظالمة، وعن طريق الرقابة التي وقفت سداً حائلاً دون الحقيقة؛ كذلك تزايد الخطر على ما تبقى من حرية الصحافة ثانياً بتزايد احتياجات المهنة نفسها لمعدات التقدم الآلي.. ولم يعد في قدرتها إلا أن تخضع لإرادة رأس المال المستغل، وأن تتلقى منه وليس من جماهير الشعب وحيها، واتجاهاتها السياسية والاجتماعية.

إن حرية العلم التي كان في مقدورها أن تفتح طاقات جديدة للأمل؛ تعرضت هي الأخرى لنفس العبث تحت حكم الديمقراطية الرجعية؛ فإن الرجعية الحاكمة كان لابد لها أن تطمئن إلى سيطرة المفاهيم المعبرة عن مصالحها؛ ومن ثم انعكست آثار ذلك على نظم العلم ومناهجه، وأصبحت لا تسمح إلا بشعارات الاستسلام والخضوع.

إن أجيالاً متعاقبة من شباب مصر لقنت أن بلادها لا تصلح للصناعة، ولا تقدر عليها. إن أجيالاً متعاقبة من

شباب مصر قرأت تاريخها الوطني على غير حقيقته، وصور لها الأبطال في تاريخها تائهين وراء سحب من الشك والغموض؛ بينما وضعت هالات التمجيد والإكبار من حول الذين خانوا كفاحها. إن أجيالاً متعاقبة من شباب مصر انتظمت في سلك المدارس والجامعات، والهدف من التعليم كله لا يزيد عن إخراج موظفين يعملون للأنظمة القائمة، وتحت قوانينها ولوائحها التي لا تأبه بمصالح الشعب؛ دون أي وعى لضرورة تغييرها من جذورها، وتمزيقها أصلاً وأساساً.

إن تحالف الإقطاع والرجعية الحاكمة لم يكتف بذلك كله، وإنما باشر ضغطه على جماعات كثيرة من المثقفين؛ كان في استطاعتها أن تكون ضمن الطلائع الثائرة؛ فكسر مقاومتها، وفرض عليها إما أن تستسلم لإغراء ما يلقيه إليها من فتات الامتيازات الطبقية، وإما أن تذهب إلى الانزواء والنسيان.

إن عمق الوعى الثوري، وأصالة إرادة الثورة للشعب المصري؛ قد فضحت التزييف المروع في ديمقراطية الرجعية التي حكمت باسم التحالف بين الإقطاع وبين رأس المال المستغل.

إن عمق الوعى وأصالة إرادة الثورة وضعا بنجاح شعار الديمقراطية السليمة ضمن المبادئ الستة، ورسماً من الواقع وبالتجربة، وتطلعا إلى الأمل؛ معالم ديمقراطية الشعب.. ديمقراطية الشعب العامل كله.

أولاً: إن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تنفصل عن الديمقراطية الاجتماعية. إن المواطن لا تكون له حرية التصويت في الانتخابات إلا إذا توفرت له ضمانات ثلاث:

١- أن يتحرر من الاستغلال في جميع صوره.

٢- أن تكون له الفرصة المتكافئة في نصيب عادل من الثروة الوطنية.

٣- أن يتخلص من كل قلق يبدد أمن المستقبل في حياته.

بهذه الضمانات الثلاث يملك المواطن حريته السياسية، ويقدر أن يشارك بصوته في تشكيل سلطة الدولة التي يرتضى حكمها.

ثانياً: إن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تتحقق في ظل سيطرة طبقة من الطبقات. إن الديمقراطية حتى بمعناها الحرفي هي سلطة الشعب؛ سلطة مجموع الشعب وسيادته،

والصراع الحتمي والطبيعي بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو إنكاره، وإنما ينبغي أن يكون حله سلمياً في إطار الوحدة الوطنية، وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات. ولقد أثبتت التجربة التي صاحبت بدء العمل الثوري المنظم أنه من المحتم أن تأخذ الثورة على عاتقها تصفية الرجعية، وتجريدها من جميع أسلحتها، ومنعها من أي محاولة للعودة إلى السيطرة على الحكم، وتسخير جهاز الدولة لخدمة مصالحها.

إن ضراوة الصراع الطبقي ودمويته، والأخطار الهائلة التي يمكن أن تحدث نتيجة لذلك؛ هي في الواقع من صنع الرجعية التي لا تريد التنازل عن احتكاراتها، وعن مراكزها الممتازة التي تواصل منها استغلال الجماهير.

إن الرجعية تملك وسائل المقاومة؛ تملك سلطة الدولة، فإذا انتزعت منها لجأت إلى سلطة المال، فإذا انتزع منها لجأت إلى حليفها الطبيعي وهو الاستعمار.

إن الرجعية تتصادم في مصالحها مع مصالح مجموع الشعب؛ بحكم احتكارها لثروته؛ ولهذا فإن سلمية الصراع الطبقي لا يمكن أن تتحقق إلا بتجريد الرجعية- أولاً وقبل كل شيء - من جميع أسلحتها.

إن إزالة هذا التصادم يفتح الطريق للحلول السلمية أمام صراع الطبقات. إن إزالة التصادم لا يزيل المتناقضات بين بقية طبقات الشعب، وإنما هو يفتح المجال لإمكانية حلها سلمياً؛ أي بوسائل العمل الديمقراطي، بينما بقاء التصادم لا يمكن أن يحل بغير الحرب الأهلية، وما تلحقه من أضرار بالوطن؛ في ظروف يشتد فيها الصراع الدولي، وتعنف فيها عواصف الحرب الباردة.

إن تحالف الرجعية ورأس المال المستغل يجب أن يسقط، ولابد أن ينفسح المجال بعد ذلك ديمقراطياً للتفاعل الديمقراطي بين قوى الشعب العاملة؛ الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية.

إن تحالف هذه القوى الممثلة للشعب العامل، هو البديل الشرعي لتحالف الإقطاع مع رأس المال المستغل، وهو القادر على إحلال الديمقراطية السليمة محل ديمقراطية الرجعية.

ثالثاً: إن الوحدة الوطنية التي يصنعها تحالف هذه القوى الممثلة للشعب هي التي تستطيع أن تقيم الاتحاد الاشتراكي العربي؛ ليكون السلطة الممثلة للشعب، والدافعة

لإمكانيات الثورة، والحارسة على قيم الديمقراطية السليمة.

إن هذه القوى الشعبية الهائلة المكونة للاتحاد الاشتراكي العربي وإطلاق فعالياتها تحتم أن يتعرض الدستور الجديد للجمهورية العربية المتحدة - عند بحثه لشكل التنظيم السياسي للدولة - لعدة ضمانات لازمة.

١- إن التنظيمات الشعبية والسياسية التي تقوم بالانتخاب الحر المباشر لابد لها أن تمثل بحق وبعدل القوى المكونة للأغلبية؛ وهى القوى التي طال استغلالها، والتي هي صاحبة مصلحة عميقة في الثورة؛ كما أنها بالطبيعة الوعاء الذى يختزن طاقات ثورية دافعة وعميقة بفعل معاناتها للحرمان.

إن ذلك- فضلاً عما فيه من حق وعدل باعتباره تمثيلاً للأغلبية- ضمان أكيد لقوة الدفع الثوري نابعة من مصادرها الطبيعية الأصيلة؛ ومن هنا فإن الدستور الجديد يجب أن يضمن للفلاحين والعمال نصف مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية على جميع مستوياتها، بما فيها المجلس النيابي؛ باعتبارهم أغلبية الشعب؛ كما أنها الأغلبية التي طال حرمانها من حقها الأساسي في صنع مستقبلها وتوجيهه.

٢- إن سلطة المجالس الشعبية المنتخبة يجب أن تتأكد باستمرار فوق سلطة أجهزة الدولة التنفيذية؛ فذلك هو الوضع الطبيعي الذى ينظم سيادة الشعب، ثم هو الكفيل بأن يظل الشعب دائماً قائد العمل الوطني، كما أنه الضمان الذى يحمى قوة الاندفاع الثوري من أن تتجمد في تعقيدات الأجهزة الإدارية أو التنفيذية؛ بفعل الإهمال أو الانحراف.

كذلك فإن الحكم المحلى يجب أن ينقل باستمرار وبإلحاح سلطة الدولة تدريجياً إلى أيدى السلطات الشعبية؛ فإنها أقدر على الإحساس بمشاكل الشعب، وأقدر على حسمها.

٣- إن الحاجة ماسة إلى خلق جهاز سياسي جديد داخل إطار الاتحاد الاشتراكي العربي؛ يجند العناصر الصالحة للقيادة، وينظم جهودها ويبلور الحوافز الثورية للجماهير، ويتحسس احتياجاتها، ويساعد على إيجاد الحلول الصحيحة لهذه الاحتياجات.

٤- إن جماعية القيادة أمر لابد من ضمانه في مرحلة الانطلاق الثوري. إن جماعية القيادة ليست عاصماً من جموح الفرد فحسب، وإنما هي تأكيد للديمقراطية على أعلى

المستويات؛ كما أنها في الوقت ذاته ضمان للاستمرار الدائم المتجدد.

رابعاً: إن التنظيمات الشعبية؛ وخصوصاً التنظيمات التعاونية والنقابية، تستطيع أن تقوم بدور مؤثر وفعال في التمكين للديمقراطية السليمة.

إن هذه التنظيمات لابد أن تكون قوى متقدمة في ميادين العمل الوطني الديمقراطي، وإن نمو الحركة التعاونية والنقابية معين لا ينضب للقيادات الواعية التي تلمس بأصابعها مباشرة أعصاب الجماهير، وتشعر بقوة نبضها، ولقد سقط الضغط الذى كان يخنق حرية هذه المنظمات ويشل حركتها.

إن تعاونيات الفلاحين- فضلاً عن دورها الإنتاجي- هي منظمات ديمقراطية قادرة على التعرف على مشاكل الفلاحين، وعلى استكشاف حلولها؛ وكذلك فلقد آن الوقت لكى تقوم نقابات للعمال الزراعيين.

إن نقابات عمال الصناعة والتجارة والخدمات قد توصلت بقوانين يوليو العظيمة إلى مركز طليعي في قيادة النضال الوطني.

إن العمال لم يصبحوا سلعة في عملية الإنتاج، وإنما أصبحت قوى العمل مالكة لعمليات الإنتاج ذاتها، شريكة في إدارتها.. شريكة في أرباحها تحت أوفى الأجور، وأحسن الشروط من ناحية تحديد ساعات العمل.

خامساً: إن النقد والنقد الذاتي من أهم الضمانات للحرية، ولقد كان أخطر ما يعرقل حرية النقد والنقد الذاتي في المنظمات السياسية هو تسلل العناصر الرجعية إليها.

كذلك لقد كانت سيطرة الرجعية على الصحافة؛ بحكم سيطرتها على المصالح الاقتصادية، تسلب حرية الرأي أعظم أدواتها. إن استبعاد الرجعية يسقط ديكتاتورية الطبقة الواحدة، ويفتح الطريق أمام ديمقراطية جميع قوى الشعب الوطنية.

إنه يعطى أوثق الضمانات لحرية الاجتماع، وحرية المناقشة؛ كذلك فإن ملكية الشعب للصحافة؛ التي تحققت بفضل قانون تنظيم الصحافة؛ الذى أكد لها في نفس الوقت استقلالها عن الأجهزة الإدارية للحكم؛ قد انتزع للشعب أعظم أدوات حرية الرأي، ومكن أقوى الضمانات لقدرتها على النقد.

إن الصحافة بملكية الاتحاد الاشتراكي العربي لها.. هذا الاتحاد الممثل لقوى الشعب العاملة؛ قد خلصت من تأثير الطبقة الواحدة الحاكمة؛ كذلك خلصت من تحكم رأس المال فيها، ومن الرقابة غير المنظورة التي كان يفرضها عليها بقوة تحكمه في مواردها.

إن الضمان المحقق لحرية الصحافة هي أن تكون الصحافة للشعب؛ لتكون حريتها بدورها امتداداً لحرية الشعب.

سادساً: إن المفاهيم الثورية الجديدة للديمقراطية السليمة، لابد لها أن تفرض نفسها على الحدود التي تؤثر في تكوين المواطن؛ وفى مقدمتها التعليم والقوانين واللوائح الإدارية.

إن التعليم لم تعد غايته إخراج موظفين للعمل في مكاتب الحكومة؛ ومن هنا فإن مناهج التعليم في جميع الفروع ينبغي أن تعاد دراستها ثورياً؛ لكى يكون هدفها هو تمكين الإنسان الفرد من القدرة على إعادة تشكيل الحياة.

كذلك فإن القوانين لابد أن تعاد صياغتها لتخدم العلاقات الاجتماعية الجديدة التي تقيمها الديمقراطية السياسية؛ تعبيراً عن الديمقراطية الاجتماعية.

كذلك فإن العدل الذى هو حق مقدس لكل مواطن فرد؛ لا يمكن أن يكون سلعه غالية وبعيدة المنال على المواطن. إن العدل لابد أن يصل إلى كل فرد حر، ولابد أن يصل إليه من غير موانع مادية أو تعقيدات إدارية؛ كذلك فإن اللوائح الحكومية يجب أن تتغير تغييراً جذرياً من الأعماق، لقد وضعت كلها أو معظمها في ظلال حكم الطبقة الواحدة، ولابد بأسرع ما يمكن من تحويلها لتكون قادرة على خدمة ديمقراطية الشعب كله.

إن العمل الديمقراطي في هذه المجالات سوف يتيح الفرصة لتنمية ثقافة نابضة بالقيم الجديدة؛ عميقة في إحساسها بالإنسان، صادقة في تعبيرها عنه، قادرة بعد ذلك كله على إضاءة جوانب فكره وحسه، وتحريك طاقات كامنة في أعماقه، خلاقة ومبدعة، ينعكس أثرها بدوره على ممارسته للديمقراطية، وفهمه لأصولها، وكشفه لجوهرها الصافي النقـي.

الباب السادس
في حتمية الحل الاشتراكي

إن الحرية الاجتماعية طريقها الاشتراكية. إن الحرية الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق إلا بفرصة مكافئة أمام كل مواطن في نصيب عادل من الثروة الوطنية.

إن ذلك لا يقتصر على مجرد إعادة توزيع الثروة الوطنية بين المواطنين، وإنما هو يتطلب أولاً وقبل كل شيء توسيع قاعدة هذه الثروة الوطنية؛ بحيث تستطيع الوفاء بالحقوق المشروعة لجماهير الشعب العاملة.

إن ذلك معناه أن الاشتراكية بدعامتيها من الكفاية والعدل هي طريق الحرية الاجتماعية.

إن الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي في مصر، وصولاً ثورياً إلى التقدم؛ لم يكن افتراضاً قائماً على الانتقاء الاختياري؛ وإنما كان الحل الاشتراكي حتمية تاريخية فرضها الواقع، وفرضتها الآمال العريضة للجماهير؛ كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم في النصف الثاني من القرن العشرين.

إن التجارب الرأسمالية في التقدم تلازمت تلازماً كاملاً مع الاستعمار؛ فلقد وصلت بلدان العالم الرأسمالي إلى مرحلة الانطلاق الاقتصادي على أساس الاستثمارات التي حصلت عليها من مستعمراتها.

وكانت ثروة الهند التي نزح الاستعمار البريطاني النصيب الأكبر منها؛ هي بداية تكوين المدخرات البريطانية التي استعملت في تطوير الزراعة والصناعة في بريطانيا.

وإذا كانت بريطانيا قد وصلت إلى مرحلة الانطلاق اعتماداً على صناعة النسيج في لانكشير؛ فإن تحويل مصر إلى حقل كبير لزراعة القطن كان شرياناً ينقل الدم إلى قلب الاقتصاد البريطاني؛ على حساب جوع الفلاح المصري.

إن عصور القرصنة الاستعمارية التي جرى فيها نهب ثروات الشعوب لصالح غيرها- بلا وازع من القانون أو الأخلاق - قد مضى عهدها، وينبغي القضاء على ما تبقى من ذكريات لها مازالت فيها بقية من الحياة خصوصاً في إفريقيا.

كذلك فإن هناك تجارب أخرى للتقدم حققت أهدافها على حساب زيادة شقاء الشعب العامل واستغلاله؛ إما

لصالح رأس المال، أو تحت ضغط تطبيقات مذهبية مضت إلى حد التضحية الكاملة بأجيال حية؛ في سبيل أجيال لم تطرق بعد أبواب الحياة.

إن طبيعة العصر لم تعد تسمح بشيء من ذلك. إن التقدم عن طريق النهب أو التقدم عن طريق السخرة لم يعد أمراً محتملاً في ظل القيم الإنسانية الجديدة.

إن هذه القيم الإنسانية أسقطت الاستعمار، كما أن هذه القيم أسقطت السخرة.. ولم تكتف هذه القيم الإنسانية بإسقاط هذين المنهجين؛ وإنما كانت إيجابية في تعبيرها عن روح العصر ومثله العليا حين فتحت بالعلم مناهج أخرى للعمل من أجل التقدم.

إن الاشتراكية العلمية هي الصيغة الملائمة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم. إن أي منهاج آخر لا يستطيع بالقطع أن يحقق التقدم المنشود، والذين ينادون بترك الحرية لرأس المال، ويتصورن أن ذلك طريق إلى التقدم؛ يقعون في خطأ فادح.

إن رأس المال في تطوره الطبيعي، في البلاد التي أرغمت على التخلف؛ لم يعد قادراً على أن يقود الانطلاق الاقتصادي، في زمن نمت فيه الاحتكارات الرأسمالية

الكبرى في البلدان المتقدمة؛ اعتماداً على استغلال موارد الثروة في المستعمرات.

إن نمو الاحتكارات العالمية الضخم لم يترك إلا سبيلين للرأسمالية المحلية في البلاد المتطلعة إلى التقدم:

أولهما: أنها لم تعد تقدر على المنافسة إلا من وراء أسوار الحمايات الجمركية العالية، التي تدفعها الجماهير.

والثاني: أن الأمل الوحيد لها في النمو هو أن تربط نفسها بحركة الاحتكارات العالمية، وتقتفى أثرها، وتتحول إلى ذيل لها، وتجر أوطانها وراءها إلى هذه الهاوية الخطيرة.

ومن ناحية أخرى فإن اتساع مسافة التخلف في العالم بين السابقين وبين الذين يحاولون اللحاق بهم لم تعد تسمح بأن يترك منهاج التقدم للجهود الفردية العفوية التي لا يحركها غير دافع الربح الأناني.

إن هذه الجهود بالتأكيد لم تعد قادرة على مواجهة التحدي. إن مواجهة التحدي لا يمكن أن تتم إلا بثلاثة شروط:

١ - تجميع المدخرات الوطنية.

٢- وضع كل خبرات العلم الحديث في خدمة استثمار هذه المدخرات.

٣- وضع تخطيط شامل لعملية الإنتاج.

ومن الناحية الأخرى المقابلة لجانب زيادة الإنتاج؛ وهى ناحية عدالة التوزيع، فإن الأمر يقتضى وضع برامج شاملة للعمل الاجتماعي، تعود بخيرات العمل الاقتصادي ونتائجه على الجموع الشعبية العاملة، وتصنع لها مجتمع الرفاهية الذى تتطلع إليه وتكافح لكى يقترب يومه.

إن العمل من أجل زيادة قاعدة الثورة الوطنية؛ لا يمكن أن يترك لعفوية رأس المال الخاص المستغل ونزعاته الجامحة.

كذلك فإن إعادة توزيع فائض العمل الوطني على أساس من العدل، لا يمكن أن يتم بالتطوع القائم على حسن النية مهما صدقت.

إن ذلك يضع نتيجة محققة أمام إرادة الثورة الوطنية؛ لا يمكن بغير الوصول إليها أن تحقق أهدافها؛ وهذه النتيجة هي ضرورة سيطرة الشعب على كل أدوات الإنتاج، وعلى توجيه فائضها طبقاً لخطة محددة.

إن هذا الحل الاشتراكي هو المخرج الوحيد إلى التقدم الاقتصادي والاجتماعي، وهو طريق الديمقراطية في كل أشكالها السياسية والاجتماعية. إن سيطرة الشعب على كل أدوات الإنتاج لا تستلزم تأميم كل وسائل الإنتاج، ولا تلغى الملكية الخاصة، ولا تمس حق الإرث الشرعي المترتب عليها، وإنما يمكن الوصول إليها بطريقين:

أولهما: خلق قطاع عام وقادر؛ يقود التقدم في جميع المجالات، ويتحمل المسئولية الرئيسية في خطة التنمية.

ثانيهما: وجود قطاع خاص يشارك في التنمية في إطار الخطة الشاملة، لها من غير استغلال؛ على أن تكون رقابة الشعب شاملة للقطاعين، مسيطرة عليهما معاً.

إن ذلك الحل الاشتراكي هو الطريق الوحيد الذى يمكن أن تتلاقى عليه جميع العناصر في عملية الإنتاج؛ على قواعد علمية وإنسانية تقدر على مد المجتمع بجميع الطاقات التي تمكنه من أن يصنع حياته من جديد وفق خطة مرسومة مدروسة وشاملة.

إن التخطيط الاشتراكي الكفء هو الطريقة الوحيدة التي تضمن استخدام جميع الموارد الوطنية المادية والطبيعية

والبشرية؛ بطريقة عملية وعلمية وإنسانية؛ لكى تحقق الخير لجموع الشعب، وتوفر لهم حياة الرفاهية.

إنه الضمان لحسن استغلال الثروات الموجودة والكامنة والمحتملة؛ ثم هو في الوقت ذاته ضمان توزيع الخدمات الأساسية باستمرار، ورفع مستوى ما يقدم منها بالفعل، ومد هذه الخدمات إلى المناطق التي افترسها الإهمال والعجز؛ نتيجة لطول الحرمان الذى فرضته أنانية الطبقات المتحكمة المستعلية على الشعب المناضل.

والتخطيط من هذا كله ينبغي أن يكون عملية خلق علمي منظم؛ يجيب على جميع التحديات التي تواجه مجتمعنا؛ فهو ليس مجرد عملية حساب الممكن، ولكنه عملية تحقيق الأمل؛ ومن ثم فإن التخطيط في مجتمعنا مطالب بأن يجد حلاً للمعادلة الصعبة؛ التي يكمن في حلها نجاح العمل الوطني مادياً وإنسانياً.. هذه المعادلة هي: كيف يمكن أن نزيد الإنتاج وفى نفس الوقت نزيد الاستهلاك في السلع والخدمات؟ هذا مع استمرار التزايد في المدخرات من أجل الاستثمارات الجديدة. هذه المعادلة الصعبة ذات الشعب الثلاث الحيوية تتطلب إيجاد تنظيم ذي كفاية عالية وقدرة؛ يستطيع تعبئة

القوى المنتجة، ورفع كفايتها مادياً وفكرياً، وربطها بعملية الإنتاج.

إن هذا التنظيم مطالب بأن يدرك أن غاية الإنتاج هي توسيع نطاق الخدمات، وأن الخدمات بدورها قوة دافعة لعجلات الإنتاج، وأن الصلة بين الإنتاج والخدمات وسرعتها، وسهولة جريانها، تصنع دورة دموية صحيحة لحياة الشعب، ولحياة كل إنسان فرد فيه.

إن هذا التنظيم لابد له أن يعتمد على مركزية في التخطيط، وعلى لا مركزية في التنفيذ تكفل وضع برامج الخطة في يد كل جموع الشعب وأفراده.

إن الجزء الأكبر من الخطة نتيجة لذلك كله يجب أن يقع على القطاع العام الذى يملكه الشعب بمجموعه. إن ذلك ليس ضماناً لحسن سير عملية الإنتاج في طريقها المحدد من أجل الكفاية؛ وإنما هو في ذات الوقت تحقيق للعدل باعتبار أن هذا القطاع العام ملك للشعب بمجموعه.

إن النضال الوطني لجماهير الشعب هو الذى صنع نواة القطاع العام؛ بتصميمه على استرداد المصالح الاحتكارية

الأجنبية، وتأميمها، وإعادتها إلى مكانها الطبيعي والشرعي؛ وهو الملكية العامة للشعب كله.

كذلك فإن هذا النضال الوطني - حتى في إبان معركته العسكرية المسلحة ضد الاستعمار - أضاف لهذا القطاع العام كل الأموال البريطانية والفرنسية في مصر، وهى الأموال التي سلبت من الشعب تحت ظروف الامتيازات الأجنبية، وفى العهود التي استبيحت فيها حرمة الثروة الوطنية لتكون نهباً للمغامرين الأجانب.

كذلك فإن هذا النضال الوطني في سعيه إلى الحرية الاجتماعية، وفى اقتحامه لكل مراكز الاستغلال الطبقي؛ هو الذى ضم إلى هذا القطاع العام الجزء الأكبر من أدوات الإنتاج؛ وذلك بقوانين يوليو سنة ١٩٦١، وثوريتها العميقة المعبرة عن إرادة التغيير الشامل في مصر.

إن هذه الخطوات الجبارة التي مكنت للقطاع العام من أداء دوره الطليعي في قيادة التقدم، ورسمت خطوطاً واضحة المعالم؛ كما أرست حدوداً أملاها الواقع الوطني، وفرضتها الدراسة الدقيقة لظروفه وإمكانياته وأهدافه، إن هذه الخطوط والحدود يمكن إجمالها فيما يلى:

أولاً: في مجال الإنتاج عموماً:

يجب أن تكون الهياكل الرئيسية لعملية الإنتاج؛ كالسكك الحديدية والطرق والموانئ والمطارات، وطاقات القوى المحركة، والسدود، ووسائل النقل البحري والبرى والجوي، وغيرها من المرافق العامة؛ في نطاق الملكية العامة للشعب.

ثانياً: في مجال الصناعة:

يجب أن تكون الصناعات الثقيلة والمتوسطة والصناعات التعدينية في غالبيتها داخلة في إطار الملكية العامة للشعب، وإذا كان من الممكن أن يسمح بالملكية الخاصة في هذا المجال فإن هذه الملكية الخاصة يجب أن تكون تحت سيطرة القطاع العام المملوك للشعب وفى ظله، يجب أن تظل الصناعات الخفيفة بمنأى دائماً عن الاحتكار، وإذا كانت الملكية الخاصة مفتوحة في مجالها فإن القطاع العام يجب أن يحتفظ بدور فيها يمكنه من التوجيه لصالح الشعب.

ثالثاً: في مجال التجارة:

يجب أن تكون التجارة الخارجية تحت الإشراف الكامل للشعب، وفى هذا المجال فإن تجارة الاستيراد يجب أن تكون

كلها في إطار القطاع العام، وإن كان من واجب رأس المال الخاص أن يشارك في تجارة الصادرات، وفى هذا المجال فإن القطاع العام لابد أن تكون له الغالبية في تجارة هذه الصادرات؛ منعاً لاحتمالات التلاعب. وإذا جاز تحديد نسب في هذا النطاق فإن القطاع العام لابد له أن يتحمل عبء ثلاثة أرباع الصادرات؛ مشجعاً للقطاع الخاص على تحمل مسئولية الجزء الباقي منها.

يجب أن يكون للقطاع العام دور في التجارة الداخلية، ولابد للقطاع العام على مدى السنوات الثمانية القادمة - وهى المدة المتبقية من الخطة الأولى للتنمية الشاملة من أجل مضاعفة الدخل في عشر سنوات - أن يتحمل مسئولية ربع التجارة الداخلية على الأقل؛ منعاً للاحتكار، ليفسح مجالاً واسعاً في ميدان التجارة الداخلية للنشاط الخاص والتعاوني؛ على أن يكون مفهوماً بالطبع أن التجارة الداخلية خدمة وتوزيع مقابل ربح معقول لا يصل إلى حد الاستغلال تحت أي ظرف من الظروف.

رابعاً: في مجال المال:

يجب أن تكون المصارف في إطار الملكية العامة؛ فإن المال وظيفته وطنية لا تترك للمضاربة أو المغامرة، كذلك فإن شركات التأمين لابد أن تكون في نفس إطار الملكية العامة صيانة لجزء كبير من المدخرات الوطنية، وضماناً لحسن توجيهها والحفاظ عليها.

خامساً: في المجال العقاري:

يجب أن تكون هناك تفرقة واضحة بين نوعين من الملكية الخاصة؛ ملكية مستغلة، أو تفتح الباب للاستغلال وملكية غير مستغلة تؤدى دورها في خدمة الاقتصاد الوطني، كما تؤديه في خدمة أصحابها، وفى مجال ملكية الأرض الزراعية فإن قوانين الإصلاح الزراعي قد انتهت بوضع حد أعلى لملكية الفرد لا يتجاوز مائة فدان؛ على أن روح القانون تفرض أن يكون هذا الحد شاملاً للأسرة كلها؛ أي للأب والأم وأولادهما القصر؛ حتى لا تتجمع ملكيات في نطاق الحد الأعلى تسمح بنوع من الإقطاع.

على أن ذلك يمكن أن يتم الوصول إليه خلال مرحلة السنوات الثمانية القادمة، وعلى أن تقوم الأسر التي تنطبق

عليها حكمة القانون وروحه ببيع الأراضي الزائدة عن هذا الحد بثمن نقدى إلى الجمعيات التعاونية للإصلاح الزراعي أو للغير؛ كذلك ففي مجال ملكية المباني تكفلت قوانين الضرائب التصاعدية على المباني، وقوانين تخفيض الإيجارات، والقوانين المحددة لقواعد ربطها؛ بوضع الملكية العقارية في مكان يبتعد بها عن أوضاع الاستغلال.. على أن متابعة الرقابة أمر ضروري، وإن كانت الزيادة في الإسكان العام والتعاوني سوف تساهم بطريقة عملية في مكافحة أي محاولة للاستغلال في هذا المجال.

إن قوانين يوليو سنة ١٩٦١ بالعمل الاشتراكي العظيم الذى حققته؛ تعد بمثابة أكبر انتصار توصلت إليه قوة الدفع الثوري في المجال الاقتصادي. إن هذه القوانين تعد امتداداً لمقدمات سبقتها، كانت جسراً عبرته عملية التحول نحو الاشتراكية بنجاح منقطع النظير.

إن هذه المرحلة الثورية الحاسمة ما كان يمكن إتمامها بالكفاية التي تمت بها وبالجو السلمى الذى تحققت فيه؛ لولا قوة إيمان الشعب، ولولا وعيه، ولولا استجماعه لكل قواه في مواجهة حاسمة مع الرجعية، استطاع فيها أن يقتحم عليها

جميع مواقعها المنيعة، ويؤكد سيادته على مقدرات الثروة في بلاده.

إن قوانين يوليو المجيدة، والطريقة الحاسمة التي تمت بها، والجهود الموفقة الشجاعة التي بذلها مئات الألوف من أبناء الشعب- العاملين في المؤسسات التي انتقلت ملكيتها إلى الشعب بهذه القوانين- في الفترة الحرجة التي أعقبت عملية التحويل الواسعة المدى، قد مكنت من حفظ الكفاية الإنتاجية لهذه المؤسسات ودعمها.

إن ذلك كله إذ يؤكد تصميم الشعب على امتلاك مقدراته؛ يثبت في الوقت نفسه مقدرة الشعب على توجيهها، واستعداده بالعناصر المخلصة من أبنائه لتحمل أصعب المسئوليات وأكثرها دقة. ومن المؤكد أن الإجراءات التي أعقبت قوانين يوليو الاشتراكية قد حققت بنجاح عملية تصفية كانت محتمة وضرورية، لقد تمت بعد أن بدت محاولة الانقضاض الرجعى على الثورة الاجتماعية عملية حاسمة لإزالة رواسب عهود الإقطاع والرجعية والتحكم. إن هذه العملية قطعت الطريق على كل محاولات التسلل والدوران من حول أهداف الشعب، ولحساب المصالح الخاصة للفئات

التي حكمت وتحكمت من المراكز الطبقية الممتازة، ولقد أكدت هذه الإجراءات - الإجراءات يعنى الحراسة - أن الشعب قد عقد عزمه من غير تردد على رفض كل وضع استغلالي؛ سواء كان طبقية موروثة، أو كان طفيلية انتهازية.. على أنه من الواجب ألا يستقر في أذهاننا أن الرجعية قد تم الخلاص منها إلى الأبد؛ إن الرجعية مازالت تملك من المؤثرات المادية والفكرية ما قد يغريها بالتصدي للتيار الثوري الجارف؛ خصوصاً في اعتمادها على الفلول الرجعية في العالم العربي، المسنودة من جانب قوى الاستعمار. إن اليقظة الثورية كفيلة - تحت كل الظروف - بسحق كل تسلل رجعى مهما كانت أساليبه، ومهما كانت القوى المساعدة له، وإنه لمن الأمور البالغة الأهمية أن تتخلص نظرتنا إلى التأميم من كل الشوائب التي حاولت المصالح الخاصة أن تلصقها به.

إن التأميم ليس إلا انتقال أداة من أدوات الإنتاج من مجال الملكية الخاصة إلى مجال الملكية العامة للشعب، وليس ذلك ضربة للمبادرة الفردية كما ينادى أعداء الاشتراكية؛ وإنما هو توسيع لإطار المنفعة، وضمان لها في الحالات التي تقتضيها مصلحة التحول الاشتراكي الذى يتم لصالح

الشعب؛ كذلك فإن التأميم لا يؤدى إلى خفض الإنتاج، بل إن التجربة أثبتت قدرة القطاع العام على الوفاء بأكبر المسئوليات، وبأعظم قدر من الكفاية؛ سواء في تحقيق أهداف الإنتاج أو في رفع مستواه النوعي، وحتى إذا وقعت خلال عملية التحول الكبيرة بعض الأخطاء فلابد لنا أن ندرك أن الأيدي الجديدة التي انتقلت إليها المسئولية في حاجة إلى المران على تحمل مسئولياتها، ولقد كان محتماً على أي حال أن تنتقل المصالح الكبرى الوطنية إلى الأيدي الوطنية، حتى وإن اضطررنا إلى مواجهة صعوبات مؤقتة، وليس التأميم- كما تنادى بعض العناصر الانتهازية - عقوبة تحل برأس المال الخاص حين ينحرف، ولا ينبغي بالتالي ممارسته في غير أحوال العقوبة. إن نقل أداة من أدوات الإنتاج من مجال الملكية الفردية إلى مجال الملكية العامة أكبر من معنى العقوبة وأهم؛ على أن الأهمية الكبرى المعلقة على دور القطاع العام لا يمكن أن تلغى وجود القطاع الخاص.

إن القطاع الخاص له دوره الفعال في خطة التنمية من أجل التقدم، ولابد له من الحماية التي تكفل له أداء دوره، والقطاع الخاص الآن مطالب بأن يجدد نفسه، وبأن يشق

لعمله طريقاً من الجهد الخلاق، لا يعتمد - كما كان في الماضي- على الاستغلال الطفيلي. إن الأزمة التي وقع فيها رأس المال الخاص قبل الثورة تنبع من واقع الأمر من كونه كان وارثاً لعهد المغامرين الأجانب؛ الذين ساعدوا على نزح ثروة مصر إلى خارجها في القرن التاسع عشر. لقد تعود رأس المال الخاص أن يعيش وراء أسوار الحماية العالية التي كانت توفر له من قوت الشعب؛ كذلك تعود السيطرة على الحكم بغية التمكين له من مواصلة الاستغلال، ولقد كان عبئاً لا فائدة منه أن يدفع الشعب تكاليف الحماية؛ ليزيد أرباح حفنة من الرأسماليين، ليسوا - في معظم الأحوال - غير واجهات محلية لمصالح أجنبية، تريد مواصلة الاستغلال من وراء الستار؛ كذلك فإن الشعب لم يكن بوسعه أن يقف مكتوف اليدين إلى الأبد أمام مناورات توجيه الحكم لصالح القلة المتحكمة في الثروة، ولضمان احتفاظها بمراكزها الممتازة على حساب مصالح الجماهير.

إن التقدم بالطريق الاشتراكي هو تعميق للقوائم التي تستند إليها الديمقراطية السليمة، وهى ديمقراطية كل الشعب.

إن صنع التقدم بالطريق الرأسمالي حتى وإن تصورنا إمكان حدوثه في مثل الظروف العالمية القائمة الآن، لا يمكن من الناحية السياسية إلا أن يؤكد الحكم للطبقة المالكة للمصالح والمحتكرة لها. إن عائد العمل في مثل هذا التصور يعود كله إلى قلة من الناس، يفيض المال لديها لدرجة أن تبدده في ألوان من الترف الاستهلاكي يتحدى حرمان المجموع. إن ذلك معناه زيادة حدة الصراع الطبقي، والقضاء على كل أمل في التطور الديمقراطي، لكن الطريق الاشتراكي بما يتيحه من فرص لحل الصراع الطبقي سلمياً، وبما يتيحه من إمكانية تذويب الفوارق بين الطبقات؛ يوزع عائد العمل على كل الشعب طبقاً لمبدأ تكافؤ الفرص.

إن الطريق الاشتراكي بذلك يفتح الباب للتطور الحتمي سياسياً؛ من حكم ديكتاتورية الإقطاع المتحالف مع رأس المال إلى حكم الديمقراطية الممثلة لحقوق الشعب العامل وآماله. إن تحرير الإنسان سياسياً لا يمكن أن يتحقق إلا بإنهاء كل قيد للاستغلال يحد حريته. إن الاشتراكية مع الديمقراطية هما جناحا الحرية، وبهما معاً تستطيع أن تحلق إلى الآفاق العالية التي تتطلع إليها جماهير الشعب.

الباب السابع
الإنتاج والمجتمع

لقد مضى إلى غير رجعة ذلك الزمن الذى كان مصير الأمة العربية وشعوبها وأفرادها يتقرر في العواصم الأجنبية، وعلى موائد المؤتمرات الدولية، أو في قصور الرجعية المتحالفة مع الاستعمار.

إن الإنسان العربي قد استعاد حقه في صنع حياته بالثورة.

إن الإنسان العربي سوف يقرر بنفسه مصير أمته على الحقول الخصبة، وفى المصانع الضخمة، ومن فوق السدود العالية، وبالطاقات الهائلة المتفجرة بالقوى المحركة.

إن معركة الإنتاج هي التحدي الحقيقي الذى سوف يثبت فيه الإنسان العربي مكانه الذى يستحقه تحت الشمس. إن الإنتاج هو المقياس الحقيقي للقوة الذاتية العربية تعويضاً للتخلف، واندفاعاً للتقدم، ومقدرة على مجابهة جميع الصعاب والمؤامرات والأعداء، وقهرهم جميعاً وتحقيق النصر فوق شراذمهم المندحرة. والهدف الذى وضعه الشعب المصري أمام نفسه ثورياً بمضاعفة الدخل القومي، مرة على الأقل كل

عشر سنوات، لم يكن مجرد شعار؛ وإنما كان حاصلاً صحيحاً لحساب القوة المطلوبة لمواجهة التخلف، والسبق إلى التقدم مع مراعاة التزايد في عدد السكان.

إن مشكلة التزايد في عدد السكان هي أكثر العقبات التي تواجه جهود الشعب المصري في انطلاقه نحو رفع مستوى الإنتاج في بلاده بطريقة فعالة وقادرة، وإذا كانت محاولات تنظيم الأسرة بغرض مواجهة مشكلة تزايد السكان تستحق أصدق الجهود المعززة بالعلوم الحديثة؛ فإن ضرورة الاندفاع نحو زيادة الإنتاج بأقصى سرعة وكفاية ممكنة تحتم أن يحسب لهذا الأمر حسابه في عملية الإنتاج؛ بصرف النظر عن الآثار التي يمكن أن تترتب على تجربة تنظيم الأسرة. إن مضاعفة الدخل كل عشر سنوات تسمح بنسبة نمو اقتصادي تتقدم بكثير على زيادة عدد السكان، وتسمح بفرصة حقيقية لرفع مستوى المعيشة؛ برغم هذه المشكلة المعقدة. إن مقدرة الشعب المصري يجب أن توضع موضع الاختبار إيجابياً؛ بالتزامه هذا الهدف الذى ينبغي وضعه دائماً أمام النضال الوطني، بل إن المقياس الحقيقي للإرادة الوطنية يرتبط ارتباطاً مباشراً باختصار مدة مضاعفة الدخل القومي إلى أقل

من عشر سنوات، بكل المسافة التي يطيق الجهد الوطني تحملها.

إن الوصول إلى ذلك الهدف ممكن بالتخطيط الاقتصادي والاجتماعي، ودونما تضحية بالأجيال الحية من المواطنين لمصلحة الأجيال التي لم تولد بعد. إن إمكانية تحقيق هذا الهدف لا تعتصر قواهم تحت ضغط المسئولية، وإنما كل الذى تتطلبه منهم هو العمل المنظم والأمين؛ في إطار الأهداف الإنتاجية للخطة، وبوحى من الفكر الاجتماعي الذى يرسم لها طريقها إلى صنع المجتمع الجديد، وما يمكن لهذا الفكر أن يطوره من قيم أخلاقية جديدة ومعان إنسانية متفتحة للحياة، نابضة بها.

إن ذلك يتطلب جهوداً جبارة في ميادين تطوير الزراعة والصناعة، وهياكل الإنتاج الأساسية اللازمة لهذا التطوير؛ وبالذات طاقات القوى المحركة ووسائل المواصلات.

إن التطبيق العربي للاشتراكية في مجال الزراعة لا يؤمن بتأميم الأرض وتحويلها إلى مجال الملكية العامة، وإنما هو يؤمن استناداً إلى الدراسة وإلى التجربة بالملكية الفردية للأرض في حدود لا تسمح بالإقطاع. إن هذه النتيجة ليست

مجرد انسياق مع حنين الفلاحين العاطفي الطويل إلى ملكية الأرض؛ وإنما الواقع أن هذه النتيجة نبعت من الظروف الواقعية للمشكلة الزراعية في مصر، والتي أكدت قدرة الفلاح المصري على العمل الخلاق إذا ما توفرت له الظروف الملائمة.

إن كفاية الفلاح المصري على امتداد تاريخ طويل عميق بالخبرات المكتسبة من التجربة قد وصلت في قدرتها على استغلال الأرض إلى حد متقدم؛ خصوصاً إذا ما أتيحت له الفرصة للاستفادة من نتائج التقدم العلمي للزراعة، يضاف إلى ذلك أنه منذ عصور بعيدة في التاريخ توصلت الزراعة المصرية إلى حلول اشتراكية صحيحة لأعقد مشاكلها؛ وفى مقدمتها الري والصرف، وهما في مصر الآن ومنذ زمان طويل في إطار الخدمات العامة.

من هنا فإن الحلول الصحيحة لمشكلة الزراعة لا تكمن في تحويل الأرض إلى الملكية العامة وإنما هي تستلزم وجود الملكية الفردية للأرض، وتوسيع نطاق هذه الملكية بإتاحة الحق فيها لأكبر عدد من الأجراء؛ مع تدعيم هذه الملكية

بالتعاون الزراعي على امتداد مراحل عملية الإنتاج في الزراعة من بدايتها إلى نهايتها.

إن التعاون الزراعي ليس هو مجرد الائتمان البسيط الذى لم يخرج التعاون الزراعي عن حدوده حتى عهد قريب، وإنما الآفاق التعاونية في الزراعة تمتد على جبهة واسعة؛ إنها تبدأ مع عملية تجميع الاستغلال الزراعي الذى أثبتت التجارب نجاحه الكبير، وتساير عملية التمويل التي تحمى الفلاح وتحرره من المرابين، ومن الوسطاء الذين يحصلون على الجزء الأكبر من ناتج عمله، وتصل به إلى الحد الذى يمكنه من استعمال أحدث الآلات والوسائل العملية لزيادة الإنتاج، ثم هي معه حتى التسويق الذى يمكن الفلاح من الحصول على الفائدة العادلة تعويضاً عن عمله وجهده وكده المتواصل. إن المواجهة الثورية لمشكلة الأرض في مصر كانت بزيادة عدد الملاك، لقد كان ذلك هو الهدف من قوانين الإصلاح الزراعي التي صدرت سنة ٥٢ وسنة ٦١؛ كذلك فإن هذا الهدف - فضلاً عن أهداف زيادة الإنتاج - كان من القوى الدافعة وراء مشاريع الري الكبرى، والتي أصبح رمزها العتيد سد أسوان العالي؛ الذى خاض الشعب في مصر

صنوف الحروب المسلحة والاقتصادية والنفسية لكى يبنيه.. إن هذا السد أصبح رمزاً لإرادة الشعب وتصميمه على صنع الحياة، كما أنه رمز لإرادته في إتاحة حق الملكية لجموع غفيرة من الفلاحين؛ لم تسنح لها هذه الفرصة عبر قرون طويلة ممتدة من الحكم الإقطاعي. إن نجاح هذه المواجهة الثورية لمشكلة الزراعة؛ هذه المواجهة القائمة على زيادة عدد الملاك لا يمكن تعزيزه إلا بالتعاون الزراعي، وإلا بالتوسع في مجالاته إلى الحد الذى يكفل للملكيات الصغيرة للأرض اقتصاداً قوياً نشيطاً.

إن هناك بعد ذلك كله ثلاثة آفاق ينبغي أن تنطلق إليها معركة الإنتاج الجبارة من أجل تطوير الريف:

أولها: الامتداد الأفقي في الزراعة عن طريق قهر الصحراء والبوار. إن عمليات استصلاح الأرض الجديدة لا يجب أن تتوقف ثانية واحدة، إن الخضرة يجب أن تتسع مساحتها مع كل يوم على وادى النيل، وينبغي الوصول إلى الحد الذى تصبح فيه كل قطرة من ماء النيل قادرة على التحول فوق ضفافه إلى حياة خلاقة لا تهدر هباء ولا تضيع. إن هناك اليوم كثيرين ينتظرون دورهم ليملكوا في أرض

وطنهم، والمستقبل يحمل مع كل جيل جديد أفواجاً من المتطلعين بحق إلى ملكية الأرض.

والثاني: هو الامتداد الرأسي في الزراعة عن طريق رفع إنتاجية الأرض المزروعة. إن الكيمياء الحديثة قد لمست ثورياً طرق الزراعة وأساليبها؛ وذلك بواسطة الأسمدة والمبيدات الحشرية، واستنباط أنواع جديدة من البذور؛ كذلك فإن هناك احتمالات هائلة عن طريق العلم المنظم تمكن من تنمية الثروة الحيوانية؛ بما يمنح الاقتصاد الزراعي للفلاح تدعيماً محققاً؛ كذلك فإن هناك احتمالات كبيرة وراء إعادة دراسة اقتصاديات المحاصيل الزراعية للأرض المصرية، وتنويعها على أساس نتائج هذه الدراسة.

والثالث: إن تصنيع الريف اتصالاً بالزراعة يفتح فيه أبعاداً هائلة لفرص العمل، وينبغي أن نذكر دائماً أن الصناعة بالتقدم الآلي ليست في مركز يسمح لها بامتصاص كل فائض الأيدي العاملة على الأرض الزراعية، وذلك في الوقت الذى لم يعد فيه جدال في أن حق العمل في حد ذاته هو حق الحياة، من حيث هو التأكيد الواقعي لوجود الإنسان وقيمته؛ لذلك فإن مشكلة العمالة يجب أن تجد جزءاً من حلولها في الريف

ذاته وتصنيع الريف، فضلاً عن قدرته على رفع قيمة الإنتاج الزراعي؛ يعزز العناصر العاملة في الحقول بقوى جديدة من العمال الفنيين العاملين في خدمة الإنتاج الزراعي في جميع مراحله.

إن تطوير عملية الإنتاج في الريف سوف يساعد في نفس الوقت على إيجاد القوى البشرية المنظمة التي تستطيع بدورها تغيير شكل الحياة فيه تغييراً ثورياً حاسماً. إن التعاون سوف يخلق المنظمات التعاونية القادرة على تحريك الجهود الإنسانية في الريف لمواجهة مشاكله؛ كذلك نقابات العمال الزراعيين سوف تكون قادرة على تجنيد جهود الملايين الذين ضيعتهم البطالة المقنعة، وأهدرت بالسلبية طاقاتهم. إن هذه القوى هي الخلايا التي تستطيع أن تنسج خيوط الحياة في الريف من جديد، وتصنع منها قماشاً حضارياً يقرب القرية إلى مستوى المدينة. إن وصول القرية إلى المستوى الحضري ليس ضرورة عدل فقط؛ ولكنه ضرورة أساسية من ضروريات التنمية.

إن المدينة مسئولة مسئولية ضمير ومصير عن العمل الجاد في القرية؛ من غير تعال عليها، ومن غير خيلاء. إن

وصول القرية إلى مستوى المدينة الحضاري وخصوصاً من الناحية الثقافية سوف يكون بداية الوعى التخطيطي لدى الأفراد؛ وهو الوعى الذى يقدر على مواجهة أصعب المشاكل التي تعترض التنمية وتهددها؛ وهى مشكلة تزايد عدد السكان. إن الإدراك العميق لضرورة التخطيط في حياة الفرد سوف يكون هو الحل الحاسم لمشكلة تزايد السكان، وهو الذى يغير من حالة الاستسلام القدري حيالها، ويضع مكانها الشعور بالمسئولية وإقامة الاقتصاد العائلي على أساس من الحساب.

إن الصناعة هي الدعامات القوية للكيان الوطني، وهى القادرة على الوفاء بأعظم الآمال في التطوير الاقتصادي والاجتماعي، والصناعة هي الطاقة الخلاقة التي تستطيع أن تتجاوب مع التخطيط الواعي المدروس، وتفي ببرامجه دونما عوائق غير منظورة تصعب السيطرة عليها، ومن ثم فهى القادرة في أسرع وقت على توسيع قاعدة الإنتاج توسيعاً ثورياً حاسماً.

إن اتجاهنا إلى الصناعة يجب أن يكون واعياً، وأن يأخذ في اعتباره جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية في معركة التطوير الكبرى.

ومن الناحية الاقتصادية:

ينبغي أن يكون اتجاهنا إلى آخر ما وصل إليه العلم. إن حصولنا على أدوات العمل الجديدة المتقدمة لا يكفل لنا مجرد نقطة بداية سليمة؛ وإنما هو يكفل أيضاً تعويضاً عن التخلف، ويعطى الصناعة المصرية - بالجديد الذى تأخذ به - مركز امتياز يعوض التقدم الصناعي الذى بدأ فيه غيرنا، في وقت لم تكن آلات الإنتاج قد وصلت فيه إلى ما هي عليه الآن من تفوق، وينبغي في هذا المجال أن يطرح الرأي القائل بأن استخدام الآلات الحديثة سوف لا يفتح المجال كاملاً للعمالة؛ باعتبار أن هذه الآلات الحديثة - خصوصاً بالتقدم الذى وصلت إليه – لا تحتاج إلى قوة عمل واسعة، إن ذلك الرأي قد يكون صحيحاً في المدى القريب، ولكن أثره يتلاشى تماماً في المدى الطويل؛ فإن الآلات الحديثة قادرة بسرعة على توسيع قاعدة الإنتاج، وهذا هو الذى يكفل

بدوره غزو الآفاق الجديدة في التصنيع؛ وبالتالي يتيح فرصاً أوسع للعمالة.

إن مجالات العمل الصناعي في مصر ليست لها حدود. إن الصناعة المصرية تقدر أن تمد العمل المبدع الخلاق إلى أقاصي الأرض المصرية. إن مصادر الثروة الطبيعية والمعدنية لازالت تحتفظ بالكثير من أسرارها، ولقد طال إهمال مساحات شاسعة من الأرض، لم تزد الجهود التي وجهت إليها حتى الآن عن مجرد خدوش على سطحها. إن العمل العلمي الصناعي وحده هو القادر على أن يجعل الأرض المصرية تبوح بكل أسرارها، وتفيض بما في باطنها من ثروات طبيعية ومعدنية لخدمة التقدم. إن هذه المصادر تستطيع أن تكون عموداً فقرياً للصناعة الثقيلة القادرة بدورها على خلق أدوات الإنتاج الجديدة، وإن أهمية خاصة يجب أن توجه إلى الصناعات الثقيلة؛ فبها يمكن أن يوضع الأساس الحقيقي الذى تقوم عليه الصناعة الحديثة.

إن المواد الخام من الزراعة أو من المناجم لابد لها من عمليات التصنيع المحلية التي تكسبها قيمة مضافة في الأسواق، وهى بذلك تعزز قدرة الإنتاج الصناعي؛ كما أنها

تفتح أبواباً واسعة للعمالة؛ كذلك فإن الاهتمام الكبير يجب أن يصل إلى الصناعات الاستهلاكية. إن هذه الصناعات فضلاً عما تفتحه من أبواب كثيرة للعمل تسد جزءاً هاماً في مطالب الاستهلاك، وتوفر مصادر قيمة من النقد الأجنبي؛ ثم هي تتيح في الوقت الحاضر فرصة للتوسع في التصدير إلى أسواق قريبة منا، لم نصل فيها بعد إلى مركز المنافسة في الصناعات الثقيلة على المستوى العالمي، والصناعات الغذائية في ظل الصناعات الاستهلاكية تقدر أكثر من أي سبيل آخر على تدعيم اقتصاديات الريف؛ كذلك فإن فيها احتمالات كثيرة لأسواق في الدول المتقدمة التي يرتفع فيها الطلب الاستهلاكي بارتفاع مستوى المعيشة فيها، وبصورة شاملة فإن الصناعة يجب أن تضع في برامجها تصنيع كل ما تقدر على تصنيعه من المواد الخام؛ تصنيعاً جزئياً أو تصنيعاً كاملاً؛ فإن ذلك يحقق أكبر الأهداف من عملية التطوير، إنه يحقق زيادة الإنتاج ويحقق مواجهة مطالب الاستهلاك؛ كما أنه يفتح الفرص للأيدي القادرة على العمل، والتي تطلبه كحق إنساني مقدس، وفى نفس الوقت فهو مصدر للنقد الأجنبي الذى يواجه المطالب المتزايدة لمعركة التطوير.

ومن الناحية الاجتماعية؛ فإن الصناعة مسئولة عن إقامة التوازن الإنساني الذى لابد منه بين مطالب الإنتاج واحتياجات الاستهلاك. إن الفلسفة التي قامت عليها سياسة التصنيع في مصر حققت هذا الهدف بالتوازن الذى أقامته بين الاتجاه إلى الصناعة الثقيلة، وبين الاتجاه إلى الصناعات الاستهلاكية. إن الصناعة الثقيلة هي دون شك القاعدة الثابتة للكيان الصناعي الشامخ، لكن بناء الصناعات الثقيلة مع الأولوية المحققة التي يجب أن تمنح له، لا يجب أن يوقف التقدم نحو الصناعات الاستهلاكية.

إن حرمان جماهير شعبنا طال مداه، وتجنيدها تجنيداً كاملاً لبناء الصناعة الثقيلة، وإغفال مطالبها الاستهلاكية؛ يتنافى مع حقها الثابت في تعويض حرمانها الطويل، ثم هو يعطل- من غير مبرر حقيقي- إمكانيات الوفاء بتطلعاتها المتسعة، ومن ناحية أخرى فإن الصناعة تطور شكل العمل في مصر تطويراً ثورياً بعيد الأثر، وإن النجاح العظيم الذى حققته الصناعة منذ بدأت براجمها المنظمة في مصر؛ كان السند العملي للحقوق الثورية التي حصلت عليها الطبقة العاملة ضمن قوانين يوليو سنة ١٩٦١.

إن هذه الحقوق الثورية جعلت الآلات ملكاً للعمل، ولم تجعل العمل ملكاً للآلات. لقد أصبح العامل هو سيد الآلة، ولم يعد أحد التروس في جهاز الإنتاج. إن هذه الحقوق الثورية كفلت حداً أدنى للأجور، واشتراكاً إيجابياً في الإدارة، يصاحبه اشتراك حقيقي في أرباح الإنتاج؛ وذلك في ظل ظروف للعمل تكفل الكرامة للإنسان العامل؛ وعلى هذا الأساس فقد أصبح يوم العمل هو سبع ساعات.

إن ذلك التغيير الثوري في الحقوق العمالية لابد أن يقابله تغيير ثوري في الواجبات العمالية، إن مسئولية العمل يجب أن تكون كاملة عن أدوات الإنتاج التي وضعها المجتمع كله تحت إرادته. لقد أصبحت مسئولية العمل بأدوات الإنتاج التي يتولى الحفاظ عليها وتشغيلها بكفاية وأمان، وبالاشتراك في الإدارة والأرباح مسئولية كاملة في عملية الإنتاج. إن ذلك الوضع الجديد لا يلغى دور التنظيمات العمالية، وإنما هو يزيد من أهمية دورها.. إنه يمد هذا الدور ويوسعه من مجرد كونها طرفاً مقابلاً لطرف الإدارة في عملية الإنتاج إلى الحد الذى يجعل منها قائدة طليعية في عملية التطوير.

إن النقابات العمالية تستطيع ممارسة مسئولياتها القيادية عن طريق الإسهام الجدى في رفع الكفاية الفكرية والفنية؛ ومن ثم رفع الكفاية الإنتاجية للعمال، كذلك هي تستطيع ممارسة مسئولياتها عن طريق صيانة حقوق العمال ومصالحهم، ورفع مستواهم المادي والثقافي، ويدخل في ذلك اهتمامها بمشروعات الإسكان التعاوني والاستهلاك التعاوني وتنظيم الاستفادة المجدية صحياً ونفسياً وفكرياً من أوقات الفراغ والإجازات؛ بما يساهم في تحقيق الرفاهية للجموع العاملة.

إن مكانة العمال في المجتمع الجديد لم يعد لها الآن من مقياس غير إنجاح عملية التطوير الصناعي، وغير طاقتهم على العمل من أجل هذا الهدف، وغير كفايتهم في الوصول إليه. إن التوسع في طاقات القوى المحركة، وفى إقامة هياكل الإنتاج الرئيسية؛ هو أساس الانطلاق نحو الأهداف الجديدة للإنتاج في الزراعة وفى الصناعة معاً.

إن وصول القوى المحركة إلى كل مكان في مصر هو شرارة الثورة القادرة على تحريك طاقات التغيير الجذري اقتصادياً واجتماعياً؛ من التخلف الذى كان إلى التقدم الذى

يتطلع إليه النضال الوطني. إن الوطن كله ينبغي أن تغطيه بكفاية شبكات السكك الحديدية والطرق والمطارات؛ فإن سهولة المواصلات ويسرها، تستطيع أن تقوم بالمعجزات في تحقيق الوحدة الإنتاجية في الوطن؛ ومن ثم تؤدى إلى وحدة الرخاء على أرضه، دون عزلة تفرض على أجزاء منه. إن اهتماماً خاصاً يجب أن يوجه إلى الصناعات البحرية في بلد يقع في قلب العالم البحري، ويطل على أعظم بحاره أهمية من نواحي الاقتصاد والسياسة وهما البحران الأبيض والأحمر. إن احتياجات الإنتاج الصناعي في جميع النواحي تفتح إمكانيات كبيرة لرأس المال الوطني غير المستغل لكى يقوم بجانب القطاع العام بدور هام ومسئول في عملية الإنتاج كلها، بل إن استمرار دور القطاع الخاص بجانب القطاع العام يزيد من فعاليات الرقابة على الملكية الشعبية العامة، ويقوم بدور عامل منشط لها؛ بما يفتحه من مجالات المنافسة الحرة في إطار التخطيط الاقتصادي العام.

إن قوانين يوليو الثورية العظيمة سنة ٦١ لم تكن تستهدف القضاء على القطاع الخاص؛ وإنما كان لها هدفان أساسيان:

الهدف الأول: خلق نوع من التكافؤ الاقتصادي بين المواطنين، يحقق العدل المشروع، ويقضي على آثار احتكار الفرصة للقلة على حساب الكثرة، ويساهم في الوقت نفسه في عملية تذويب الفوارق بين الطبقات، بما يعزز احتمالات الصراع السلمى بينها، ويفتح الأبواب للحلول الديمقراطية للمشاكل الكبرى التي تواجه عملية التطوير.

والهدف الثاني: زيادة كفاءة القطاع العام الذى يملكه الشعب، وتعزيز قدرته على تحمل مسئولية التخطيط، وتمكينه من دوره القيادي في عملية التطوير الصناعي على الأساس الاشتراكي.

إن هذين الهدفين قد تحققا بنجاح رائع يؤكد قوة الدفع الثوري، كما يؤكد عمق الوحدة الوطنية. إن تحقق هذين الهدفين يزيل بقايا العقد التي صنعها الاستغلال الذى ألقى ظلالاً من الشك على دور القطاع الخاص؛ وبالتالي فإن الطريق أمام هذا القطاع الآن لا تقيده غير القوانين الاشتراكية المعمول بها وحدها الآن، أو ما قد تراه السلطات الشعبية المنتخبة مستقبلاً من خطوات لازمة لدفع عملية التطـــوير.

إن الحدود الاشتراكية التي تم رسمها بدقة في قوانين يوليو قد قضت على آثار الاستغلال، وتركت الباب مفتوحاً للاستثمار الفردي الذى يخدم المصلحة العامة للتطوير؛ كما يخدم مصلحة أصحابه في الربح المشروع بدون استغلال. إن الذين يتصورون أن قوانين يوليو قد قيدت المبادرة الفردية يقعون في خطأ كبير. إن المبادرة الفردية يجب أن تكون قائمة على العمل، وعلى المخاطرة، وما كان قائماً في الماضي كان يعتمد على الإنتاج قبل العمل، وعلى حماية الاحتكار التي تنفى كل احتمال للمخاطرة؛ وهى الحجة التي يستند إليها رأس المال الفردي في نصيبه من الربح، ومن ناحية أخرى فإن المبادرة الفردية بالطريقة التي كانت قائمة بها لم تكن تقدر على مسئوليات الأمان الوطنية.

إن الاستثمارات الجديدة التي توجه الآن للصناعة تساوى أكثر من مائة مرة ما كان يوجه منها في سنوات ما قبل الثورة. إن إعادة توزيع الثروة لا تعرقل طريق التنمية؛ وإنما هي تنشطها من حيث هي تزيد عدد القادرين على الاستثمار. إن رأس المال الفردي في دوره الجديد يجب أن يعرف أنه خاضع لتوجيه السلطة الشعبية؛ شأنه في ذلك شأن رأس المال

العام، وإن هذه السلطة هي التي تشرع له، وهى التي توجهه على ضوء احتياجات الشعب، وإنها قادرة على مصادرة نشاطه إذا ما حاول أن يستغل أو ينحرف، إنها على استعداد لأن تحميه، ولكن حماية الشعب واجبها الأول.

إن رأس المال الأجنبي ودوره في الاستثمار المحلى أمر يمكن الاستطراد إليه في هذه المرحلة. إن رأس المال الأجنبي تحيط به في نظر الدول المتخلفة- خصوصاً تلك التي كانت مستعمرات فيما مضى- سحب من الشكوك والريب المظلمة. إن سيادة الشعب على أرضه واستعادته لمقدرات أموره تمكنه من أن يضع الحدود التي يستطيع في ظلالها أن يسمح لرأس المال الأجنبي بالعمل في بلاده. إن الأمر يتطلب وضع أولويات هي في الواقع من خلاصة التجربة الوطنية؛ كما أنها تأخذ في الاعتبار طبيعة رأس المال العالمي، الذى يفضل دائماً أن يجرى وراء الموارد الخام البكر؛ في مناطق لم تتهيأ للنهوض الاقتصادي والاجتماعي؛ حيث يستطيع في ظروفها أن يحصل على أعلى نسبة من الفائدة؟

من هنا فإن التطوير الوطني في الدرجة الأولى يقبل كل المعونات الأجنبية غير المشروطة التي تساعده على تحقيق

أهدافه وهو يقبلها بكل العرفان الصادق لمقدميها، مهما كانت ألوان أعلامهم، وفى الدرجة الثانية فإن التطوير الوطني يقبل كل القروض غير المشروطة التي يستطيع أن يفى بها دون عنت أو إرهاق، والخروج بالتجربة طريقة واضحة في حدودها؛ فإن مشكلتها تنتهى تماماً بعد سدادها وبعد سداد الفوائد المستحقة عليها، والتطوير الوطني في الدرجة الثالثة مستعد للقبول باشتراك رأس المال الأجنبي في أوجه نشاطه الوطني كمستثمر؛ على أن يكون ذلك في العمليات الضرورية خصوصاً تلك التي تقتضى خبرات جديدة يصعب توفرها في المجال الوطني.

إن قبول استثمارات أجنبية معناه القبول باشتراك أجنبي في إدارتها، ومعناه القبول بتحويل جزء من أرباحها سنوياً وإلى غير حد إلى المستثمرين؛ وذلك أمر يجب ألا يترك على إطلاقه. إن الأولوية الأولى للمعونات غير المشروطة، والمكانة الثانية للقروض غير المشروطة، ثم يأتي دور القبول بالاستثمار الأجنبي في الأحوال التي لا مفر فيها من قبوله؛ في النواحي التي تتطلب خبرات عالمية في مجالات التطوير الحــديث.

إن شعبنا في نظرته الثورية الواعية يعتبر أن المساعدات الأجنبية واجب على الدول السابقة في التقدم؛ نحو تلك التي مازالت تناضل للوصول، بل إن شعبنا في إدراكه لعبرة التاريخ يرى أن الدول ذات الماضي الاستعماري ملزمة أكثر وأكثر من غيرها بأن تقدم للدول المتطلعة إلى النمو بعض ما نزحته من ثروتها الوطنية؛ أيام كانت هذه الثروة نهباً مباحاً للطامعين.

إن تقديم المساعدات واجب اختياري على الدول المتقدمة، وهو أقرب ما يكون إلى الضريبة الواجبة السداد على الدول ذات الماضي الاستعماري؛ تعوض به الذين استغلتهم عن طول استغلالها لهم. ولابد أن تكون هذه الرعاية في متناول كل مواطن في كل ركن من الوطن؛ في ظروف ميسرة وقادرة على الخدمة، ولابد من التوسع في التأمين الصحي حتى يظل بحمايته كل جموع المواطنين.

ثانياً: حق كل مواطن في العلم بقدر ما يتحمل استعداده ومواهبه. إن العلم طريق تعزيز الحرية الإنسانية وتكريمها؛ كذلك فإن العلم هو الطاقة القادرة على تجديد شباب العمل

الوطني، وإضافة أفكار جديدة إليه كل يوم، وعناصر قائدة جديدة في ميادينه المختلفة.

ثالثها: حق كل مواطن في عمل يتناسب مع كفايته واستعداده، ومع العلم الذى تحصل عليه. إن العمل فضلاً عن أهميته الاقتصادية في حياة الإنسان تأكيد للوجود الإنساني ذاته، ومن المحتم في هذا المجال أن يكون هناك حد أدنى للأجور يكفله القانون؛ كما أن هناك بحكم العدل حداً أعلى للدخول تتكفل به الضرائب.

رابعها: إن التأمينات ضد الشيخوخة وضد المرض لابد من توسيع نطاقها؛ بحيث تصبح مظلة واقية للذين أدوا دورهم في النضال، وجاء الوقت الذى يجب أن يضمنوا فيه حقهم في الراحة المكفولة بالضمان.

إن الطفولة هي صانعة كل المستقبل، ومن واجب الأجيال العاملة أن توفر لها كل ما يمكن لها من تحمل مسئولية القيادة بنجاح.

إن المرأة لابد أن تتساوى بالرجل، ولابد أن تسقط بقايا الأغلال التي تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية في صنع الحياة.

إن الأسرة هي الخلية الأولى للمجتمع، ولابد أن تتوافر لها كل أسباب الحماية التي تمكنها من أن تكون حافظة للتقاليد الوطنية مجددة لنسيجه، متحركة بالمجتمع كله ومعه إلى غايات النضال الوطني. إن مجتمع الرفاهية قادر على أن يصوغ قيماً أخلاقية جديدة لا تؤثر عليها القوى الضاغطة المتخلفة من العلل التي عانى منها مجتمعنا زماناً طويلاً؛ كذلك فإن هذه القيم لابد لها أن تعكس نفسها في ثقافة وطنية حرة؛ تفجر ينابيع الإحساس بالجمال في حياة الإنسان الفرد الحر.

إن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها في حياتنا الجديدة الحرة. إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان، وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان، وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الحق والخير والمحبة. إن رسالات السماء كلها في جوهرها كانت ثورات إنسانية استهدفت شرف الإنسان وسعادته، وإن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته، إن جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة، وإنما ينتج التصادم في بعض الظروف من محاولات

الرجعية، أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية، لقد كانت جميع الأديان ذات رسالة تقدمية، ولكن الرجعية التي أرادت احتكار خيرات الأرض لمصالحها وحدها أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين، وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكى توقف تيار التقدم.

إن جوهر الأديان يؤكد حق الإنسان في الحرية وفى الحياة، بل إن أساس الثواب والعقاب في الدين هو فرصة متكافئة لكل إنسان، إن كل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء يخط فيها أعماله باختياره الحر، ولا يرضى الدين بطبقية تورث عقاب الجهل والفقر والجهل والمرض لغالبية الناس، وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم، إن الله- جلت حكمته- وضع الفرصة المتكافئة أمام البشر أساساً للعمل في الدنيا وللحساب في الآخرة، وينبغي لنا أن نذكر دائماً أن حرية الإنسان الفرد هي أكبر حوافزه على النضال، إن العبيد يقدرون على حمل الأحجار، وأما الأحرار فهم وحدهم القادرون على التحليق إلى آفاق النجوم، إن

الإقناع الحر هو القاعدة الصلبة للإيمان، والإيمان بغير الحرية هو التعصب، والتعصب هو الحاجز الذى يصد كل فكر جديد ويترك أصحابه بمنأى عن التطور المتلاحق الذى تدفعه جهود البشر في كل مكان.

إن الحرية وحدها هي القادرة على تحريك الإنسان إلى ملاحقة التقدم وعلى دفعه، والإنسان الحر هو أساس المجتمع الحر وهو بنائه المقتدر، إن حرية كل فرد في صنع مستقبله وفى تحديد مكانه في المجتمع، وفى التعبير عن رأيه، وفى إسهامه الإيجابي في قيادة التطور وتوجيهه بكل فكرة وتجربته وأمله، حقوق أساسية للإنسان، ولابد أن تصونها له القوانين، ولابد أن يستقر في إدراكنا أن القانون في المجتمع الحر خادم للحرية وليس سيفاً مسلطاً عليها، كذلك لابد أن يستقر في إدراكنا أنه لا حرية للفرد بغير تحريره أولاً من براثن الاستغلال، إن ذلك هو الأساس الذى يجعل الحرية الاجتماعية مدخلاً إلى الحرية السياسية بل هي مدخلها الوحيد.

إن القضاء على الاستغلال والتمكين للحق الطبيعي في الفرصة المتكافئة وتذويب الفوارق بين الطبقات وإنهاء سيطرة الطبقة الواحدة، ومن ثم إزالة التصادم الطبقي الذى

يهدد الحرية الفردية للإنسان المواطن، بل يهدد الحرية الكاملة للوطن كله بأن يفتح من الثغرات في صفوف الشعب ما يتيح الفرصة للأخطار الخارجية المتربصة بالوطن، تريد أن تجره إلى ميادين الحرب الباردة، وتجعل أرضه مسرحاً لها، وتجعل من شعبه وقوداً للنار، إن إزالة التصادم الطبقي الناشئ عن المصالح التي لا يمكن أن تتلاقى على الإطلاق بين الذين فرضوا الاستغلال، وبين الذين اعتصرهم الاستغلال في المجتمع القديم لا يمكن أن يحقق تذويب الفوارق مرة واحدة، ولا يمكن أن يفتح الباب للحرية الاجتماعية والديمقراطية السليمة بين يوم وليلة، ولكن إزالة هذا التصادم بإزالة الطبقة التي فرضت الاستغلال يوفر إمكانية السعي إلى تذويب الفوارق بين الطبقات سلمياً، ويفتح أوسع الأبواب للتبادل الديمقراطي الذى يقترب بالمجتمع كله من عصر الحرية الحقيقية، لقد كان ذلك هو أحد الأهداف الاجتماعية العظيمة التي سعت إليها قوانين يوليو، ووجهت من أجله ضربتها الهائلة إلى مراكز الاستغلال والاحتكار، إن هذا العمل الثوري العظيم جعل إمكانية الديمقراطية السليمة أمراً قابلاً للتحقيق لأول مرة في مصر.

إن الكلمة الحرة ضوء كشاف أمام الديمقراطية السليمة، وبنفس المقدار فإن القضاء الحر ضمان نهائي وحاسم لحدودها، إن حرية الكلمة هي المقدمة الأولى للديمقراطية، وسيادة القانون هي الضمان الأخير لها، وحرية الكلمة هي التعبير عن حرية الفكر في أي صورة من صوره، كذلك فإن حرية الصحافة وهى أبرز مظاهر حرية الكلمة، يجب أن تتوافر لها كل الضمانات.

إن الديمقراطية السليمة بمفهومها العميق تزيل التناقض بين الشعب وبين الحكومة حين تحولها إلى أداة شعبية، ولكن الصحافة الحرة يجب أن تكون رقيباً أميناً على أداء الإرادة الشعبية شأنها في ذلك شأن المجالس النيابية، كذلك فإن سيادة القانون تتطلب منا الآن تطويراً واعياً لمواده ونصوصه؛ بحيث تعبر عن القيم الجديدة في مجتمعنا، إن كثيراً من المواد التي مازالت تحكم علاقاتنا الاجتماعية قد جرت صياغتها في جو اجتماعي مختلف، وإن أول ما يعزز سلطان القانون هو أن يستمد حدوده من أوضاع المجتمع المتطورة، إن القانون أيضاً وهو في حد ذاته صورة من صور الحرية لابد

أن يسايرها في اندفاعها إلى التقدم، ولا يجب أن تكون مواده قيوداً تصد القيم الجديدة في حياتنا.

إن الطريق إلى الحرية قد أصبح مفتوحاً من غير حواجز ولا عوائق، إن هذا المجتمع الجديد الذى يبنيه الشعب العربي في مصر على دعائم الكفاية والعدل، يحتاج إلى درع واق في عالم لم تصل مبادئه الأخلاقية إلى مستوى تقدمه العقلي.

إن دور القوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة هو أن تحمى عملية بناء المجتمع من الأخطار الخارجية، كما أنه يتعين عليها أن تكون مستعدة لسحق كل محاولة استعمارية رجعية تريد أن تمنع الشعب من الوصول إلى آماله الكبرى من أجل ذلك فإن الشعب يمنح قواته المسلحة ما يجعلها دائماً في وضع الاستعداد وفى مكان القوة، وفى الموضع الذى تتمكن منه دائماً أن تخدم أمانيه بالولاء المطلق، وبالإخلاص المتفاني.

إن القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة يجب أن تملك تفوقاً حاسماً في البر والبحر والجو، قادراً على الحركة.. قادراً على الحركة السريعة في إطار المنطقة العربية التي تقع

مسؤولية سلامتها في الدرجة الأولى على القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة، كذلك فإن هذه القوات لابد لها في تسليحها أن تساير التقدم العلمي الحديث، وأن تملك من الأسلحة الرادعة ما يكبح جماح القوى الطامعة، ويقدر على هزيمتها إذا ما تحركت بالعدوان، وليس من شك في أن التقدم الذاتي هو في جوهره أعظم أنواع الدفاع عن النفس ضد الأخطار المتربصة، لكن علينا أن ندرك أننا نعيش في منطقة مفتوحة للأطماع الباغية، وأن من أول أهداف أعدائنا أن يحولوا دون بلوغنا مرحلة القوة الذاتية المحققة للتقدم حتى نظل دائماً تحت رحمة التهديد.

إن الجمهورية العربية بالذات طليعة النضال العربي التقدمي، وقاعدته وقلعته المحاربة، هي الهدف الطبيعي لجميع أعداء الأمة العربية وأعداء تقدمها، إن قوى الاستعمار العالمي تسعى إلى هدف ثابت هو وضع الأرض العربية الممتدة من المحيط إلى الخليج تحت سيطرتها العسكرية حتى تتمكن من مواصلة استغلالها ونهب ثرواتها، ولقد وصل التآمر الاستعماري إلى حد انتزاع قطعة من الأرض العربية في فلسطين قلب الوطن العربي، واغتصابها دونما سند من حق أو

قانون لصالح إقامة فاشستية عسكرية لا تعيش إلا بالتهديد العسكري الذى يستمد أخطاره الحقيقية من كون إسرائيل أداة للاستعمار، والجمهورية العربية المتحدة بالتاريخ وبالواقع، هي الدولة العربية الوحيدة في الظروف الحالية التي تستطيع تحمل مسؤولية بناء جيش وطني يكون بمثابة القوة الرادعة للخطط العدوانية الاستعمارية الصهيونية.

إن مواصلة الزحف الشعبي نحو التقدم الاقتصادي والاجتماعي يجعل إقامة الجيش الوطني درعاً حقيقياً للنضال، وليس مجرد قشرة سطحية تغطى خطوط الحدود، إن فعالية الجيوش الوطنية تكمن في القوة الوطنية الاقتصادية والاجتماعية، فإن التقدم هو المستودع العظيم الذى يمد أداة القتال باحتياجاتها المادية والبشرية التي تتمكن من رد التحدي وإحراز النصر وتعزيزه، ويجب أن يكون نصب أعيننا دائماً ألا تطغى احتياجات الدفاع على احتياجات التنمية، إن الدفاع إذا لم تعززه التنمية لا يقدر على الصمود الطويل للمعركة الممتدة، لكن التنمية الاقتصادية والاجتماعية هي القلب الذى يغذى اليد الضاربة للأمة بأسباب القوة

والثبات، ويمكنها من توجيه الضربات القاضية إلى العدو مهما طالت المعركة.

إن مجتمعنا يؤمن أن الحرية للوطن وللمواطن تتوافر قبل كل شيء بالسلام القائم على العدل، ولكن مجتمعنا مطالب إلى الوقت الذى تستقر فيه مبادئه العظيمة وتسود على العالم الذى يعيش فيه أن يكون مستعداً باستمرار من أجل حرية الوطن والمواطن أن يدعم السلام بالقوة.

الباب الثامن
مع التطبيق الاشتراكي ومشاكله

إن العمل الإنساني الخلاق هو الوسيلة الوحيدة أمام المجتمع لكى يحقق أهدافه، العمل شرف، والعمل حق، والعمل واجب، والعمل حياة.

إن العمل الإنساني هو المفتاح الوحيد للتقدم.

إن طبيعة العصر لم تعد تقبل وسيلة للأمل غير العمل الإنساني، لقد استطاعت مجتمعات أخرى في قرون سابقة أن تحقق انطلاقها بتوفير الاستثمارات للتنمية الوطنية عن طريق نهب أموال المستعمرات، واستغلال ثروات الشعوب وتسخيرها للعمل العبودي من أجل غيرها.

وفى مجتمعات أخرى تحقق الانطلاق تحت ظروف سخرت فيها الطبقة العاملة بطريقة تتنافى مع الإنسانية لصالح الاحتكارات الرأسمالية الوطنية أو الأجنبية، وكذلك تحققت في تجارب أخرى تحت ضغط بالغ القسوة على الأجيال الحية سلبها كل ثمار عملها من أجل الغد الموعود الذى لم تستطع أن تراه، أو وصلت إليه وهى تحمل على قلبها

أقفالاً من الكبت النفسي، وتؤرق خيالاتها أشباح من الإرهاب والطغيان.

إن طبيعة العصر لا تحتمل ذلك كله الآن، إن البشرية تنبهت إلى شرور الاستعمار ونذرت نفسها للقضاء عليه، والطبقة العاملة لا يمكن أن تساق بالسخرة إلى تحقيق أهداف الإنتاج، والطاقات المبدعة للشعوب تستطيع أن تصنع الغد دون أن تساق إليه بحمامات الدم الجماعية.

إن التقدم العلمي يجعل الوصول إلى الانطلاق بغير هذه الوسائل البالية كلها أمراً ممكناً وقابلاً للتحقيق، كذلك فإن طبيعة العصر ومثله العليا تجعل استعمال مثل هذه الوسائل القديمة أمراً مستحيل الحدوث.

إن العمل الوطني المنظم القائم على التخطيط العلمي هو طريق الغد، إن العمل الوطني على أساس الخطة لابد أن يكون محدداً أمام أجهزة الإنتاج على جميع مستوياتها، بل إن مسؤولية كل فرد في هذا العمل يجب أن تكون واضحة أمامه حتى يستطيع أن يعرف في أي وقت من الأوقات مكانه في العمل الوطني، إن ذلك يقتضى أن تتحول الخطة الشاملة في أهدافها الاقتصادية والاجتماعية إلى برامج تفصيلية تكون في

متناول يد أجهزة الإنتاج، إن ذلك يقتضى ربط الإنتاج كماً ونوعاً بحدود زمنية تلتزم بها القوى المنتجة على أن تتم العملية كلها في إطار الاستثمارات المخصصة.

إن الكم والنوع في عملية الإنتاج لا يمكن فصلها عن حساب الزمن وحساب التكلفة، وإلا أفلت التوازن الحيوي لعملية الإنتاج وتعرضت للأخطار، والأمر كذلك أيضاً في برامج الخدمات، إن وعى كل مواطن بمسئوليته المحددة في الخطة الشاملة، كذلك إدراكه المحدد لحقوقه المؤكدة من نجاحها، هو فضلاً عن كونه توزيعاً للمسئولية على نطاق الأمة كلها بما يعزز احتمالات الوصول إلى الأهداف هو في الوقت ذاته عملية انتقال ثورية بمعنى العمل الوطني من العموميات الشائعة المبهمة والغامضة، إلى وضوح ذهني وعملي يربط الإنسان الفرد في نضاله اليومي بحركة المجتمع كلها، ويشده في اتجاه التاريخ، كما أنه يوجه به حركة التاريخ في نفس اللحظة.

إن فلسفة العمل الوطني يجب أن تصل إلى جميع العاملين في الوطن في كافة المجالات، بل ويجب أن تصل إليهم بالطريقة الأكثر ملاءمة بالنسبة لكل منهم، إن ذلك

يكفل دائماً أن يكون الفكر على اتصال بالتجربة، وأن يكون الرأي النظري على اتصال بالتطبيق التجريبي، إن الوضوح الفكري أكبر ما يساعد على نجاح التجربة، كما أن التجربة بدورها تزيد في وضوح الفكر وتمنحه قوة وخصوبة تؤثر في الواقع وتتأثر به، ويكتسب العمل الوطني من هذا التبادل الخلاق إمكانيات أكبر لتحقيق النجاح، وإنه لمن ألزم الأمور هنا تشجيع الكلمة المكتوبة لتكون صلة بين الجميع يسهل حفظها للمستقبل، كما أنها تستكمل حلقة هامة في الصلة بين الفكرة والتجربة.

إنه من الأمور اللازمة تشجيع كل المسئولين عن العمل الوطني أن يكتبوا أفكارهم لتكون أمام المسئولين عن التنفيذ، كذلك من الضروري تشجيع كل القائمين بالتنفيذ أن يكتبوا ملاحظاتهم لتكون أمام المسئولين عن التوجيه، إن ذلك أمر لا يمكن أن يترك بالصدفة أو الارتجال وإنما ينبغي تنظيمه؛ إن تنظيمه سوف يوفر للعمل الوطني ذخيرة هائلة بغير حدود لآفاق الفكر ممتزجة بدقائق التنفيذ العملي، إن هذه الذخيرة سوف تساهم في رفع رصيد الكفاية الوطنية، وتعميم نطاق الاستفادة بها.

إن فترات التغيير الكبرى بطبيعتها حافلة بالأخطار التي هي جزء من طبيعة المرحلة، على أن التأمين الأكبر ضد هذه الأخطار كلها هو ممارسة الحرية وخصوصاً بواسطة المجالس الشعبية المنتخبة. إن العمل الوطني كله وعلى جميع مستوياته لا يمكن أن يصل سليماً إلا بطريق الديمقراطية، ووسيلة الديمقراطية أن تتوفر الحرية في مراكز الإنتاج جميعها لكى يتمكن جميع العاملين فيها من أن يعطوا كل جهدهم الفني والوطني من أجل كمال العمل، على أن يتم ذلك بالطبع تحت أحكام تسلسل المسئولية، كذلك فإن وسيلة الديمقراطية أن تتحقق سلطة المجالس الشعبية على جميع مراكز الإنتاج، وفوق كل أجهزة الإدارة المركزية أو المحلية، إن ذلك يضمن للشعب باستمرار أن يكون سلطة تحديد أهداف الإنتاج، وأن يكون في الوقت ذاته سلطة الرقابة على تنفيذها.

إن ممارسة النقد والنقد الذاتي يمنح العمل الوطني دائماً فرصة تصحيح أوضاعه وملاءمتها دائماً مع الأهداف الكبيرة للعمل.

إن أي محاولة لإخفاء الحقيقة أو تجاهلها يدفع ثمنها في النهاية نضال الشعب وجهده للوصول إلى التقدم، وإذا

سمحت القيادات الشعبية بأن يحدث ذلك، فإنها لا تكون مقصرة في حق الشعب الذى صدرها للقيادة فقط، وإنما هي في نفس الوقت تكون قد عزلت نفسها عن جماهيرها وفقدت اتصالها بها، وسلمت بعدم قدرتها على حل مشاكلها، وبالتالي يصبح لا مفر أمامها من أن تتنحى أو يسقطها الشعب ويسحب منها ما أسلمه إليها من مسئولية القيادة.

إن حرية النقد البناء والنقد الذاتي الشجاع ضمانات لسلامة البناء الوطني، لكن ضرورتها أوجب في فترات التغيير المتلاحق خلال العمل الثوري، إن ممارسة الحرية على هذا النحو ليست لازمة فقط لحماية العمل الوطني، ولكنها لازمة لتوسيع قاعدته، وتوفير الضمان للذين يتصدون له، فممارسة الحرية على هذا النحو سوف تكون الطريق الفعال لتجنيد عناصر كثيرة قد تتردد قبل المشاركة في العمل الوطني، الحرية هي الوسيلة الوحيدة للقضاء على سلبياتها وتجنيدها اختيارياً لأهداف النضال.

إن ممارسة الحرية بعد العملية الثورية الهائلة لإعادة توزيع الثروة الوطنية في يوليو سنة ١٩٦١ لا تشكل خطراً على أمن النضال الوطني، بل إنها صمام الأمان له؛ فإنها تخلق

القوة الشعبية القادرة على الانقضاض على كل محاولة للتآمر والقيام بالتفاف يسلب الشعب ثمار نضاله، كذلك فإن ممارسة الحرية يخلق القيادات المتجددة للعمل الثوري، ويوسع هذه القيادات، ويدفعها دائماً إلى الأمام، ويخلق قيادة من التفكير الجماعي القادر على صد نزعات التحكم الفردي، ومن ثم فهو يوفر للعمل الوطني ضمانات بعيدة المدى.

إن حرية القيادات يجب أن تستمد حقها من حرية القواعد الشعبية، ولا تستطيع القيادات أن تمارس عملها بالإكراه والتعصب، إن القيادة الحقيقية هي الإحساس بمطالب الشعب، والتعبير عنها وإيجاد الوسائل لتحقيقها، وتجميع قوى الشعب وراء الجهود المحققة لها. ولابد في الدستور الجديد من تنظيم عملية رجوع القيادات الشعبية إلى قواعدها وتأكيد مسئوليتها أمام المنابع الأصلية لقوتها، ولابد لنا أن نذكر دائماً أن القواعد الشعبية مفعمة بالثورية الطبيعية، وأن ثورية القواعد وإلحاحها الدائم من أجل التقدم سوف يكون قوة دافعة لثورية القيـــادة.

إن تحريك طاقات الشعب إلى العمل لا يجب أن يتم عن طريق إغراق الجماهير في الأمل، إن التغيير الكبير بطبيعته

يصاحبه تطلع بعيد المدى إلى الأهداف المرجوة من النضال، لكنه من ألزم الواجبات في تلك الفترة أن تتضح أمام الشعب بجلاء صعوبة الوصول إلى الأهداف المرجوة، إن مجرد التغيير الثوري في أوضاع المجتمع القديم لا يحقق أحلام الجماهير، ولكن الجهود المتواصلة هي وحدها القادرة على الوصول إلى الأحلام، وليس من حق أحد في هذه المرحلة أن يخدع الجماهير بالمنى، وإنما تقتضى الأمانة الثورية أن تكون لدى الجماهير صورة كاملة لمسئولياتها بلوغاً لآمالها، إن ذلك أمر ينبغي وضعه موضع الاعتبار طول الوقت، وينبغي أن يصاحبه تقدير للتطلعات الكبرى للجماهير، وتقدير في الوقت ذاته للروح المعنوية لدى المسئولين عن قيادة العمل تحقيقاً لهذه التطلعات، والمراهقة الفكرية خطر ينبغي التصدي له والقضاء عليه.

إن الذين يجمدون الكفاح الوطني بتفسيرات أو قوالب تحد قدرته على الانطلاق أو تشيع فيه روح التردد، إنما يقللون من قوة المجتمع بقدر ضعفهم، وعدم قدرتهم على التفكير الخلاق المنبعث من الواقع الوطني، إن التقدم الوطني لا تحققه كلمات محفوظة عالية الرنين، إن تحرير الطاقات

الخلاقة لأى شعب من الشعوب يرتبط بالتاريخ ويرتبط بالطبيعة، ويرتبط بالتطورات السائدة، والمؤثرة في العالم الذى يعيش فيه، ليس هناك شعب يستطيع أن يبدأ تقدمه من فراغ، وإلا كان يتقدم إلى الفراغ ذاته.

إن الخطر في المراهقة الفكرية في هذه المرحلة، إنما تخلق نوعاً من الإرهاب المعنوي يعرقل التجربة والخطأ، والقيادات الجديدة المتصدية لتحريك التطوير الوطني قوة هائلة لابد من حمايتها لتؤدي رسالتها الوطنية بالنجاح المطلوب، إن الثورة التي يملكها هذا الوطن صانع الحضارة من الخبراء والفنيين في جميع المجالات قيمة هائلة لابد من الحرص عليها وتنميتها وحمايتها، وفى بعض الأحيان فإن هذه القيادات في حاجة إلى حمايتها من نفسها، إن هذه القيادات قد تقع في خطأ توهم أن المشاكل الكبرى للتطوير الوطني تحل خلال التعقيدات المكتبية والإدارية، إن هذه التعقيدات تضع أعباءً جديدة على العمل الوطني دون أن تساعده، إنها قادرة لو تركت لخطأ وهمها أن تصبح طبقة عازلة تحول دون تدفق العمل الثوري، وتجمد وصول نتائجه عن الجماهير التي تحتاج إليه، إن أجهزة

العمل الإداري ترتكب غلطة العمر إذا ما تصورت أن أجهزتها الكبيرة غاية في حد ذاتها.

إن هذه الأجهزة ليست إلا وسائل لتنظيم الخدمة العامة، وضمان وصولها على نحو سليم إلى الجماهير وبنفس المقدار، فإن التنازع على السلطات يؤدى إلى شلل القيادات العاملة في التطوير الوطني؛ إذ تصبح كل منها عقبة أمام جهود الأخرى، تجمد عملها وتلغى آثاره، كذلك فإن تكديس سلطات كبيرة في أيد قليلة يؤدى دون جدال إلى انتقال السلطة الحقيقية إلى غير المسئولين عنها بالفعل أمام الشعب، لقد كان هذا الاعتبار هو المصدر الحقيقي للقانون الثوري الذى صدر بأن يكون هناك عمل واحد للرجل الواحد، إن ذلك لم يكن إجراء عدل فقط، ولكنه كان محاولة للوصول إلى أن يكون الفرد المناسب في العمل المناسب لخبرته وقدرته.

والقيادات الجديدة لابد لها أن تعي دورها الاجتماعي، وإن أخطر ما يمكن أن تتعرض له في هذه المرحلة أن تنحرف متصورة أنها تمثل طبقة جديدة حلت محل الطبقة القديمة وانتقلت إليها امتيازاتها.

إن قيادة المشروعات الكبرى في عملية التطوير في حاجة أيضاً إلى أن تؤمن بأن الإسراف - حتى وإن لم تتبعه استفادة شخصية - هو نوع من الانحراف؛ فإنه إهدار لثورة الشعب التي هي وقود معركة التطوير، والإسراف يشمل التضخم في مصاريف الإنتاج التي لا مبرر لها، كما إنه يشمل في الوقت ذاته عدم تقدير المسئولية في دراسة المشروعات الجديدة، ويمتد إلى الإهمال في التنفيذ بدون اليقظة الواجبة لسلامة العمل.

إن تلك كلها من سمات مرحلة التغيرات الكبرى ومن أخطارها، ولكن السيطرة عليها والحد من تأثيرها ممكن بممارسة الحرية، إن العمل الثوري لابد له أن يكون عملاً علمياً، إن الثورة ليست عملية هدم أنقاض الماضي، ولكن الثورة هي عملية بناء المستقبل، وإذا تخلت الثورة عن العلم فمعنى ذلك أنها مجرد انفجار عصبي تنفس به الأمة عن كبتها الطويل، ولكنها لا تغير من واقعها شيئاً.

إن العلم هو السلاح الحقيقي للإرادة الثورية، ومن هنا الدور العظيم الذى لابد للجامعات ولمراكز العلم على مستوياتها المختلفة أن تقوم به. إن الشعب هو قائد الثورة،

والعلم هو السلاح الذى يحقق النصر الثوري، والعلم وحده هو الذى يجعل التجربة والخطأ في العمل الوطني تقدماً مأمون العواقب، وبدون العلم فإن التجربة والخطأ تصبح نزعات اعتباطية قد تصيب مرة، لكنها تخطئ عشرات المرات.

إن مسئولية الجامعات ومعاهد البحث العلمي في صنع المستقبل لا تقل عن مسئولية السلطات الشعبية المختلفة، إن السلطات الشعبية بدون العلم قد تستطيع أن تثير حماسة الجماهير، لكنها بالعلم وحده تقدر على العمل تحقيقاً لمطالب الجماهير، ومن هذا التصور فإن الجامعات ليست أبراجاً عاجية ولكنها طلائع متقدمة تستكشف للشعب طريق الحياة، إن قدرتنا على التمكن من فروع العلم المختلفة هي الطريق الوحيد أمامنا لتعويض التخلف، بل إن النضال الوطني إذا ما اعتمد على العلم المتقدم يستطيع أن يمنح نفسه فرصة أعظم للانطلاق تجعل التخلف السابق ميزة أمام ما سوف يحققه التقدم الجديد.

إن الأمم التي أرغمت على التخلف إذا استطاعت أن تبدأ الآن معتمدة على العلم المتقدم تضمن لنفسها نقطة بداية

تفوق النقطة التي بدأ منها الذين سبقوها إلى المستقبل، ومن ثم تمنح نفسها قوة اندفاع أشد في اللحاق بهم والسبق عليهم.

إن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التي يتصدى شعبنا اليوم لمواجهتها لابد لها من حلول علمية، على أن مراكز البحث العلمي مطالبة في هذه المرحلة من النضال أن تطور نفسها بحيث يكون العلم للمجتمع، إن العلم للعلم في حد ذاته مسئولية لا تستطيع طاقتنا الوطنية في هذه المرحلة أن تتحمل أعباءها؛ لذلك فإن العلم للمجتمع يجب أن يكون شعار الثورة الثقافية في هذه المرحلة، على أن بلوغ النضال الوطني لأهدافه سوف يسمح لنا في مرحلة متقدمة من تطورنا بأن نساهم إيجابياً مع العالم في العلم للعلم، وليس العلم للمجتمع عقبة تفرض على العلماء أن يلتزموا بمشاكل الخبز المباشرة وحدها، إن ذلك يصبح تفسيراً ضيقاً لرغيف الخبز الذى نريده، إننا لا نستطيع أن نتقاعس لحظة عن الدخول منذ الآن في عصر الذرة، لقد تخلفنا من قبل عن عصر البخار وعن عصر الكهرباء، ولقد كلفنا هذا التخلف- مع أن ظروف العصر الاستعماري الرجعى هي التي فرضته

علينا- كثيراً ومازال يكلفنا الكثير، لكنا مطالبون الآن وعصر الذرة يشرق فجره على الدنيا أن نبدأ الفجر مع الذين بدءوه.

إن الطاقة الذرية من أجل الحرب ليست هدفنا، ولكن الطاقة الذرية في خدمة الرخاء قادرة على أن تصنع المعجزات في معركة التطوير الوطني، على أنه يتعين علينا أن نذكر دائماً أن الطاقات الروحية التي تستمدها الشعوب من مثلها العليا النابعة من أديانها السماوية أو من تراثها الحضاري قادرة على صنع المعجزات.

إن الطاقات الروحية للشعوب تستطيع أن تمنح آمالها الكبرى أعظم القوى الدافعة، كما أنها تسلحها بدروع من الصبر والشجاعة تواجه بها جميع الاحتمالات، وتقهر بهما مختلف المصاعب والعقبات، وإذا كانت الأسس المادية لتنظيم التقدم ضرورية ولازمة فإن الحوافز الروحية والمعنوية هي وحدها القادرة على منح هذا التقدم أنبل المثل العليا وأشرف الغايات والمقاصد.

الباب التاسع
الوحدة العربية

إن مسئولية الجمهورية العربية المتحدة في صنع التقدم وفى تدعيمه وحمايته تمتد لتشمل الأمة العربية كلها، إن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها، لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة، وأصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته، يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل، ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان، ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير.

إن الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أساسها مستدلين بقيام خلافات بين الحكومات العربية، ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية، إن مجرد وجود هذه الخلافات هو في حد ذاته دليل على قيام الوحدة، إن هذه الخلافات تنبع من الصراع الاجتماعي في الواقع العربي، واللقاء بين القوى التقدمية الشعبية في كل مكان من العالم العربي، والتجمع الذى تقوم به العناصر الرجعية والانتهازية

في العالم العربي هو الدليل على وحدة التيارات الاجتماعية التي تهب على الأمة العربية، وتحرك خطواتها وتنسقها عبر الحدود المصطنعة.

إن التقاء القوى التقدمية الشعبية على الأمل الواحد في كل مكان من الأرض العربية، وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة في كل مكان من الأرض العربية هو في حد ذاته دليل على الوحدة أكثر مما هو دليل على التفرقة، إن مفهوم الوحدة العربية تجاوز النطاق الذى كان يفرض التقاء حكام الأمة العربية ليكون من لقائهم صورة للتضامن بين الحكومات، إن مرحلة الثورة الاجتماعية تقدمت بهذا المفهوم السطحي للوحدة العربية، ودفعت به خطوة إلى مرحلة أصبحت فيها وحدة الهدف هي صورة الوحدة.

إن وحدة الهدف حقيقة قائمة عند القواعد الشعبية في الأمة العربية كلها، واختلاف الأهداف عند الفئات الحاكمة هو صورة من صور التطور الحتمي الثوري واختلاف مراحله بين الشعوب العربية، لكن وحدة الهدف عند القواعد هي التي ستتكفل بسد الفجوات الناشئة من اختلاف مراحل التطــور.

إن وحدة الأمة العربية قد وصلت في صلابتها إلى حد أنها أصبحت تتحمل مرحلة الثورة الاجتماعية، ولا يمكن أن تدل أساليب الانقلاب العسكري، ولا أساليب الانتهازية الفردية، ولا أساليب الرجعية المتحكمة على شيء إلا على أن النظام القديم في العالم العربي يعانى جنون اليأس، وأنه يفقد أعصابه تدريجياً وهو يسمع من بعيد في قصوره المعزولة وقع أقدام الجماهير الزاحفة إلى أهدافها.

إن وحدة الهدف لابد أن تكون شعار الوحدة العربية في تقدمها من مرحلة الثورة السياسية إلى الثورة الاجتماعية، ولابد أن ينبذ الشعار الذى جرت تحته مرحلة سابقة من النضال الوطني؛ هي مرحلة الثورة السياسية ضد الاستعمار، إن الاستعمار الآن غير مكانه ولم يعد قادراً على مواجهة الشعوب مباشرة، وكان مخبأه الطبيعي بحكم الظروف داخل قصور الرجعية.

إن الاستعمار نفسه دون أن يدرى ساهم في تقريب يوم الثورة الاجتماعية، وذلك حين توارى بمطامعه وراء العناصر المستغلة يوجهها ويحركها، وليس من شك أن الثورات الأصيلة تستفيد من حركات خصومها في مواجهتها،

وتكتسب منها قوة دافعة، إن الاستعمار كشف نفسه، وكذلك فعلت الرجعية بتهالكها على التعاون معه، وأصبح محتماً على الشعوب ضربهما معاً، وهزيمتهما معاً؛ تأكيداً لانتصار الثورة السياسية في بقية أجزاء الوطن العربي، وتدعيماً لحق الإنسان العربي في حياة اجتماعية أفضل لم يعد قادراً على صنعها بغير الطريق الثوري.

والعمل العربي في هذه المرحلة يحتاج إلى كل خبرة الأمة العربية مع تاريخها الطويل المجيد، ويحتاج إلى حكمتها العميقة، بقدر حاجته إلى ثوريتها وإرادتها على التغيير الحاسم.

إن الوحدة لا يمكن – بل ولا ينبغي – أن تكون فرضاً فإن الأهداف العظيمة للأمم يجب أن تتكافأ أساليبها شرفاً مع غايتها، ومن ثم فإن القسر بأي وسيلة من الوسائل عمل مضاد للوحدة، إنه ليس عملاً غير أخلاقي فحسب؛ وإنما هو خطر على الوحدة الوطنية داخل كل شعب من الشعوب العربية، ومن ثم بالتالي فهو خطر على وحدة الأمة العربية في تطورها الشامل، وليست الوحدة العربية صورة دستورية واحدة لا مناص من تطبيقها، ولكن الوحدة العربية طريق

طويل قد تتعدد عليه الأشكال والمراحل وصولاً إلى هدف أخير، إن أي حكومة وطنية في العالم العربي تمثل إرادة شعبها ونضاله في إطار من الاستقلال الوطني هي خطوة نحو الوحدة، من حيث أنها ترفع كل سبب للتناقض بينها وبين الآمال النهائية في الوحدة، إن أي وحدة جزئية في العالم العربي- تمثل إرادة شعبين أو أكثر من شعوب الأمة العربية- هي خطوة وحدوية متقدمة تقرب من يوم الوحدة الشاملة، وتمهد لها وتمد جذورها في أعماق الأرض العربية.

إن مثل هذه الظروف تمهد الطريق للدعوة إلى الوحدة الشاملة، وإذا كانت الجمهورية العربية المتحدة ترى في رسالتها العمل من أجل الوحدة الشاملة، فإن الوصول إلى هذا الهدف ليساعد عليه وضوح الوسائل التي لابد من تحديدها تحديداً قاطعاً وملزماً في هذه المرحلة من النضال العربي.

إن الدعوة السلمية هي المقدمة والتطبيق العلمي لكل ما تضمنه الدعوة من مفاهيم تقدمية للوحدة، هي الخطوة الثانية للوصول إلى نتيجة محققة، إن استعجال مراحل التطور نحو الوحدة يترك من خلفه كما أثبتت التجارب فجوات

اقتصادية واجتماعية تستغلها العناصر المعادية للوحدة كي تطعنها من الخلف.

إن تطور العمل الوحدوي نحو هدفه النهائي الشامل يجب أن تصحبه بكل وسيلة جهود عملية لملء الفجوات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة من اختلاف مراحل التطور بين شعوب الأمة العربية، هذا الاختلاف الذى فرضته قوى العزلة الرجعية والاستعمارية.

إن جهوداً عظيمة وواعية يجب أن تتجه أيضاً إلى فتح الطريق أمام التيارات الفكرية الجديدة حتى تستطيع أن تحدث أثرها في محاولات التمزيق، وتتغلب على بقايا التشتت الفكري، الذى أحدثه ضغط ظروف القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وما تركتها دسائسها ومناوراتها من رواسب تحجب الرؤية الصافية في بعض الظروف، والجمهورية العربية المتحدة – وهى تؤمن بأنها جزء من الأمة العربية – لابد لها أن تنقل دعوتها والمبادئ التي تتضمنها لتكون تحت تصرف كل مواطن عربي، ولا ينبغي الوقوف لحظة أمام الحجة البالية القديمة التي قد تعتبر ذلك تدخلاً منها في شئون غيرها، وفى هذا المجال فإن الجمهورية

العربية المتحدة لابد لها أن تحرص على ألا تصبح طرفاً في المنازعات الحزبية المحلية في أي بلد عربي، إن ذلك أمراً يضع دعوة الوحدة ومبادئها في أقل من مكانها الصحيح، وإذا كانت الجمهورية العربية المتحدة تشعر أن واجبها المؤكد يحتم عليها مساندة كل حركة شعبية وطنية، فإن هذه المساندة يجب أن تظل في إطار المبادئ الأساسية تاركة مناورات الصراع ذاته للعناصر المحلية تجمع له الطاقات الوطنية، وتدفعه إلى أهدافه وفق التطور المحلى وإمكانياته، كذلك فإن الجمهورية العربية المتحدة مطالبة بأن تفتح مجال التعاون بين جميع الحركات الوطنية التقدمية في العالم العربي، إنها مطالبة بأن تتفاعل معها فكرياً من أجل التجربة المشتركة، لكنها في نفس الوقت لا تستطيع أن تفرض عليها صيغة محددة لصنع التقدم.

إن قيام اتحاد للحركات الشعبية الوطنية التقدمية في العالم العربي أمر سوف يفرض نفسه على المراحل القادمة من النضال، إن ذلك لا يؤثر ولا ينبغي له أن يؤثر على قيام جامعة الدول العربية، وإذا كانت الجامعة العربية غير قادرة على أن تحمل الشوط العربي إلى غايته العظيمة البعيدة، فإنها

تقدر على السير به خطوات. إن الشعوب تريد أملها كاملاً، والجامعة العربية بحكم كونها جامعة للحكومات لا تقدر أن تصل إلى أبعد من الممكن؛ إن الممكن خطوة في طريق المقلوب الشامل، إن تحقيق الجزء مساهمة في تقريب يوم الكل، لهذا فإن الجامعة العربية تستحق كل التأييد، على ألا يكون هناك تحت أي ظرف من الظروف وهم تحميلها أكثر من طاقتها العملية التي تحدها ظروف قيامها وطبيعتها.

إن الجامعة العربية قادرة على تنسيق ألوان ضرورية من النشاط العربي في المرحلة الحاضرة، لكنها في نفس الوقت تحت أي ستار وفى مواجهة أي ادعاء لا يجب أن تتخذ وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به.

الباب العاشر
السياسة الخارجية

إن السياسة الخارجية لشعب الجمهورية العربية المتحدة هي انعكاس أمين وصادق لعمله الوطني، إن أي سياسة خارجية لأى وطن من الأوطان لا تكون انعكاساً أميناً وصادقاً لعمله الوطني تصبح ادعاءً يكشف نفسه بنفسه، ويصبح نفاقاً وإتجاراً بالشعارات، إن تلك هي المهزلة التي تقع فيها الحكومات الرجعية حين تحاول للتضليل أن تستعير سياسة خارجية براقة لا تكون صدى للواقع الوطني وتعبيراً عنـه.

إن الشعوب الواعية تفضح هذه الحكومات وتقتص منها حساب الضلال الذى حاولت أن تزيفه عليها، والسياسة الخارجية لشعب الجمهورية العربية المتحدة انعكاس أمين وصادق لعمله الوطني تمتد في ثلاثة خطوط حفرت مجراها عميقاً ومستقيماً في نضال شعب باسل صمد لكل أنواع الضغط وانتصر عليها.

إن الخطوط الثلاثة العميقة في السياسة الخارجية للجمهورية العربية تعبيراً عن كل مبادئها الوطنية هي:

- الحرب ضد الاستعمار والسيطرة بكل الطاقات والوسائل، وكشفه في جميع أقنعته، ومحاربته في كل أوكاره.

- والعمل من أجل السلام؛ لأن جو السلام واحتمالاته هي الفرصة الوحيدة الصالحة لرعاية التقدم الوطني.

- ثم التعاون الدولي من أجل الرخاء؛ فإن الرخاء المشترك لجميع الشعوب لم يعد قابلاً للتجزئة، كما أنه أصبح في حاجة إلى التعاون الجماعي لتوفيره.

إن شعب الجمهورية العربية المتحدة في حربه ضد الاستعمار ضرب مثلاً حياً مازال أسطورة في تاريخ نضال الشعوب، إن شعبنا كشف الاستعمار العثماني وقاومه برغم التحايل عليه بأستار الخلافة الإسلامية، ثم قاوم شعبنا الغزو الفرنسي حتى أرغم المغامر الذى دوخ أوروبا كلها على أن يرحل بالليل عبر البحر الأبيض إلى فرنسا، ثم صمد لمؤامرات الاستعمار العالمي واحتكاراته الدولية التي استعملت أسرة محمد على، وتدافعت موجاته الثورية واحدة إثر أخرى، حتى جرفت أمامها بعد سنوات طويلة من التضحيات النبيلة كل الحواجز التي أقامها الاستعمار على أرضه لحماية وجوده، لقد واجه شعبنا ثلاث إمبراطوريات

هي الإمبراطورية العثمانية والفرنسية والبريطانية، وقاوم غزوها لبلاده وانتصر عليها، إن شعبنا دفع خلال عشرات السنين بل مئاتها ثمناً غالياً لانتصاره على الاستعمار، لكنه في النهاية حصل على النصر، الذى برر أمام التاريخ كل التضحيات وشرف مقدارها.

وبعد النصر الثوري العظيم صباح ٢٣ يوليو، وفى طريق الشعب إلى التقدم الثوري، داست الجموع المنتصرة بأقدامها بقايا العهد الملكي الدخيل، ودكت حصون الإقطاع، واجتثت جذور الرجعية، لقد كانت تلك كلها هي الركائز التي ثبت الاستعمار عليها وجوده فوق أرضنا، وبانقضاض شعبنا عليها وتدميرها، فإن الوجود الاستعماري فقد حلقات اتصاله بأرض الوطن الطاهرة، ومن ثم كانت الخطوة الباقية هي إرغام قواته على الرحيل وراء البحر، بعد أن طوت أعلامها، وابتلعت كبرياءها.

إن شعبنا بعد عشرات السنين من الاستعمار فاز بإرغام القوى العدوانية على الجلاء مرتين في عام واحد، هو ١٩٥٦ الفاصل في نضالنا الوطني، إن الاستعمار الذى جلا عن أرضنا طبقاً لاتفاق تم تنفيذه في يونيه سنة ١٩٥٦، ما لبث أن

عاد في أكتوبر من نفس العام، متصوراً أنه قادر على إخضاع إرادة شعبنا وإذلاله وإجباره على الركوع خضوعاً لإرادة المستعمرين.

إن شعبنا الذى عقد العزم على حماية استقلاله، ورفض كل الحيل الاستعمارية التي حاولت أن تجره إلى مناطق النفوذ، وقاد مقاومة هائلة في الشرق الأوسط كله ضد حلف بغداد حتى أسقط، لم يتردد في مواجهة العدوان المسلح الثلاثي، الذى أقدمت عليه اثنتان من دول العالم الكبرى، زحفت عليه من القاعدة الاستعمارية التي خلقتها المؤامرات الرامية إلى إرهاب الأمة العربية وتمزيقها وهى إسرائيل، إن الاستعمار في معركة السويس كشف نفسه، وكشف قواعده، وكشف أعوانه.

إن الاستعمار انقض على شعب مصر بالسلاح؛ لأن الشعب المصري حاول أن يحقق استقلاله ويبنى تقدمه من أحد موارده الوطنية، التي طال استغلال الاستعمار له، واحتكاره لكل عائده وقيمته.

إن الشعب المصري باسترداد قناة السويس، ضرب الاستعمار واحتكاراته في الصميم، وأثبت صلابته بتحمله

العنيد لتبعات إصراره، إلى حد قبول المعركة المسلحة في وجه قوى زاحفة جرارة. إن الشعب المصري بثباته الرائع وبقتاله المرير ضد الغزو، استطاع أن يهز الضمير العالمي ويحركه بصورة لم يسبق لها مثيل في التطور الدولي، ولقد كان التحول الرائع في المعركة نقطة فاصلة في حركات التحرير.

إن الشعب المناضل الذى كان يواجه الطغاة الكبار وحده لم يعد وحيداً، وإنما انقلب الموقف رأساً على عقب، نتيجة للمقاومة الوطنية الباسلة. إن الذين تجمعوا ضد شعبنا ليعزلوه، وجدوا أنفسهم في عزلة عن الدنيا كلها، بينما وقفت شعوب العالم كلها مع شعبنا تشد أزره وتلوح له بأيديها، تحية له وتضامناً معه.

إن الهزيمة المريرة التي منى بها الاستعمار في حرب السويس، أنهت عصر المغامرات الاستعمارية المسلحة. إن نهاية هذا العهد البغيض بالنسبة لكل شعوب العالم تحققت بفضل نضال شعبنا. إن الاستعمار الذى مازال متمسكاً بأهدافه غير أسلوبه، إن شعبنا كان بالمرصاد لكل محاولات التنكر والتخفي، وواصل مطاردته لها وتجميع قوى الشعوب ضدها.

إن إصرار شعبنا على محاربة الأحلاف العسكرية التي تريد أن تجر الشعوب رغم إرادتها إلى فلك الاستعمار، كان صوتاً عالياً بالحق، ارتفع في جميع المجالات منبهاً ومحذراً.

إن إصرار شعبنا على تصفية العدوان الإسرائيلي على جزء من الوطن الفلسطيني، هو تصميم على تصفية جيب من أخطر جيوب المقاومة الاستعمارية ضد نضال الشعوب، وليس تعقب سياستنا للتسلل الإسرائيلي في إفريقيا غير محاولة لحصر انتشار سرطان استعماري مدمر.

إن إصرار شعبنا على مقاومة التمييز العنصري، هو إدراك سليم للمغزى الحقيقي لسياسة التمييز العنصري، إن الاستعمار في واقع أمره هو سيطرة تتعرض لها الشعوب من الأجنبي بقصد تمكينه من استغلال ثرواتها وجهدها، وليس التمييز العنصري إلا لوناً من ألوان استغلال ثروات الشعوب وجهدها، فإن التمييز بين الناس على أساس اللون هو تمهيد للتفرقة بين قيمة جهودهم.

إن الرق كان الصورة الأولى من صور الاستعمار، والذين مازالوا يباشرون أساليبه يرتكبون جريمة لا يقتصر

أثرها على ضحاياهم، وإنما يلحقون الأذى بالضمير الإنساني كله، وبها أحرزه من انتصارات.

إن شعبنا لم يدخر جهداً في سعيه نحو السلام، إن السعي نحو السلام قاد خطى شعبنا إلى مراكز دولية، أصبحت لها الآن من قوة الإشعاع ما يضئ الطريق نحو السلام، إن شعبنا الذى ساهم بكل إخلاص في أعمال مؤتمر باندونج وإنجاحه، والذى شارك في أعمال الأمم المتحدة، وحاول عن طريق هذه الأداة الدولية العظيمة دفع الخطر عن السلام، أثبت شجاعة في الإيمان بالسلام، لقد تكلم من باندونج مع غيره من دول آسيا وإفريقيا، نفس اللغة التي تكلم بها أمام الكبار الأقوياء في الأمم المتحدة.

إن شعبنا في دعوته إلى السلام وفى عمله لتوطيد احتمالاته، اشترك مع الجميع وواجه الجميع بقوة التعبير الحر، إن شعبنا الذى شارك في الجهود الإنسانية العظيمة المكرسة لتحريم التجارب الذرية، وشارك إيجابياً في العمل من أجل نزع السلاح، إنما كان يصدر عن إيمان مطلق بالسلام؛ لأنه يؤمن إيماناً مطلقاً بالحياة.

إن شعبنا يعرف قيمة الحياة لأنه يحاول بناءها على أرضه، إن صدق دعوته للسلام ينبع من حاجته الماسة إليه. إن السلام هو الضمان الأكيد لقدرته على الاستمرار في معركته المقدسة من أجل التطوير، إن العمل من أجل السلام هو الذى سلح شعبنا بشعار عدم الانحياز والحياد الإيجابي، إن ارتفاع هذا الشعار اليوم على قارات كثيرة من العالم، هو تحية عظيمة لإخلاص شعبنا في خدمة السلام.

إن الدعوة الأولى لأول مؤتمر لدول عدم الانحياز.. هذه الدعوة التي صدرت من القاهرة ولقيت استجابة رائعة لدى الكثير من الشعوب، كانت في نفس الوقت تقديراً إنسانياً للمنهج الذى سلكناه في خدمة السلام، بعد إيماننا به وإخلاصنا له، بل إن الذين يحاولون اليوم استغلال شعار عدم الانحياز والحياد الإيجابي، ليستروا أمام شعوبهم انحيازهم إلى معسكرات الحرب والاستعمار، إنما يقدمون إطراءً غير مباشر لشعبنا، الذى كان رائداً في رفع هذا الشعار عن إيمان وفى النضال من أجله.. عن حاجة حقيقية إليه نابعة من صميم كفاحه لإحراز التقدم.

إن التعاون الدولي من أجل الرخاء المشترك لشعوب العالم هو امتداد طبيعي للحرب ضد الاستعمار.. ضد الاستغلال، وهو استطراد منطقي للعمل من أجل السلام لتوفير الجو الأمثل للتطوير.

إن التعاون الدولي من أجل الرخاء يصل بالسياسة الخارجية للجمهورية العربية إلى الهدف النهائي، الذى تسعى إليه سياستها الخارجية انعكاساً لنضالها الوطني، إن شعبنا يمد يده لجميع الشعوب والأمم العاملة من أجل السلام العالمي والرخاء الإنساني، إن المعارك الدولية التي خاضها شعبنا، إنما كانت معارك دفاعية خاضها قتالاً عن حقوقه المشروعة، وحقوق الأمة العربية التي يشعر بانتمائه الحيوي إليها، انتماء الجزء إلى الكل، ولقد رفع شعبنا حتى في أحلك ظروف المعارك القاسية - التي أرغم على خوضها - شعاره الخالد: السلام لا الاستسلام، إيماءة واضحة إلى أنه يقبل التعاون الدولي، ولكنه يقاوم السيطرة، إن شعبنا يؤمن أن الرخاء لا يتجزأ وأن التعاون الدولي من أجل الرخاء هو أقوى ضمانات السلام العالمي.

إن السلام لا يمكن أن يستقر في عالم تتفاوت فيه مستويات الشعوب تفاوتاً مخيفاً، إن السلام لا يمكن أن

يستقر على حافة الهوة السحيقة، التي تفصل بين الأمم المتقدمة والأمم التي فرض عليها التخلف، إن الصدام المحقق بين التخلف والتقدم هو الخطر الثاني الذى يهدد السلام العالمي، بعد الخطر الأول الذى يكمن في نشوب حرب ذرية مفاجئة. إن التعاون الدولي من أجل الرخاء هو الأصل الوحيد في تطور سلمى يقارب ما بين مستويات الأمم، ويزرع المحبة بينها بديلاً عن سموم الكراهية.. إن التعاون الدولي من أجل الرخاء من جانب الدول المتقدمة، هو التكفير الإنساني الذى يشترك فيه المسئولون وغير المسئولين عن العصر الاستعماري.

إن التعاون الدولي يمتد على جبهة عريضة، تحاول الجمهورية العربية أن تتحرك عليها، إنه يشمل فتح الأسرار العلمية للجميع، فإن احتكار العلم يهدد البشرية بنوع جديد من السيطرة الاستعمارية، كذلك هو يشمل الدعوة إلى توجيه الذرة للسلام؛ حتى تستطيع أن تخدم قضية التطوير، وتضيء جوانب التخلف العظيم، كذلك هو يشمل التبشير بفكرة توجيه المبالغ الطائلة التي توجه إلى صنع الأسلحة النووية، لتخدم الحياة بدل أن تترصد لها وتتربص بها، كذلك هو يشمل الدعوة إلى مواجهة التكتلات الاقتصادية الدولية؛

بحيث لا تستخدم بواسطة الأقوياء لتحطيم محاولات غيرهم من أجل التقدم.

إن شعبنا يمد نواياه المعززة بالأعمال لتحقيق التعاون الدولي عبر كل المحيطات وإلى كل الأقطار، وإذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية، فهو يؤمن بجامعة إفريقية ويؤمن بتضامن آسيوي- إفريقي، ويؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به، ويؤمن برباط روحي وثيق يشده إلى العالم الإسلامي، ويؤمن بانتمائه إلى الأمم المتحدة وبولائه لميثاقها، الذى استخلصته آلام الشعوب في محنة حربين عالميتين، تخللتهما فترة من الهدنة المسلحة.

إن الإيمان بهذا كله لا يتعارض مع بعضه ولا يتصادم، وإنما حلقات سلسلة واحدة. إن شعبنا شعب عربي ومصيره يرتبط بوحدة مصير الأمة العربية. إن شعبنا يعيش على الباب الشمالي الشرقي لإفريقيا المناضلة، وهو لا يستطيع أن يعيش في عزلة عن تطورها السياسي والاجتماعي والاقتصادي. إن شعبنا ينتمي إلى القارتين اللتين تدور فيهما الآن أعظم معارك التحرير الوطني، وهو أبرز سمات القرن العشرين.

إن شعبنا يعتقد في السلام كمبدأ، ويعتقد فيه كضرورة حيوية؛ ومن ثم لا يتوانى للعمل من أجله، مع جميع الذين يشاركونه نفس الاعتقاد.

إن شعبنا يعتقد في رسالة الأديان وهو يعيش في المنطقة التي هبطت عليها رسالات السماء. إن شعبنا يعيش ويناضل من أجل المبادئ الإنسانية السامية التي كتبتها الشعوب بدمائها في ميثاق الأمم المتحدة، إن فقرات كثيرة في هذا الميثاق قد كتبت بدماء شعبنا، ودماء غيره من الشعوب.

إن شعبنا قد عقد العزم على أن يعيد صنع الحياة على أرضه بالحرية والحق.. بالكفاية والعدل.. بالمحبة والسلام. وإن شعبنا يملك من إيمانه بالله، وإيمانه بنفسه ما يمكنه من فرض إرادته على الحياة ليصوغها من جديد وفق أمانيه.

أيها الإخـــوة:

هذا هو الميثاق.. هذا هو مشروع الميثاق أقدمه إليكم. والله يوفقكم.

والسلام عليكم ورحمة الله،،

بيـان ٣٠ مارس

بيان الرئيس جمال عبد الناصر إلى الأمة

بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨

أيها الإخـوة المـواطـنـون:

الآن يصبح في إمكاننا أن نتطلع إلى المستقبل، وقبل الآن فإن مثل ذلك لم يكن ممكناً إلا بالاستغراق في الأحلام أو الأوهام، وكلاهما لا تستسلم له الشعوب المناضلة، فضلاً عن أن تقع فيه بينما هي عند مفترق الطرق الحاسمة وأمام تحديات المصير.

قبل الآن لم يكن في مقدورنا أن ننظر إلى أبعد من مواقع أقدامنا؛ فلقد كنا بعد النكسة مباشرةً على حافة جرف معرض للانهيار في أي وقت. وكان واجبنا في ذلك الظرف يحتم علينا - قبل أي شيء آخر - أن نتحسس طريقنا إلى أرض أصلب تتحمل وقفتنا، وأرض أرحب تتسع لحركتنا.

ولقد كانت جماهير الشعب بموقفها يومي ٩ و١٠ يونيو هي التي جعلت ذلك قابلاً للتحقيق؛ بفضل ما أظهرته من تصميم يرفض الهزيمة ويثق في النصر. إن الموقف المؤمن والبطولي الذى اتخذته جماهير شعبنا في ذلك الظرف العصيب، هو وحده الذى مكن للتحولات الهامة، التي

وقعت منذ ذلك الوقت من أن تحدث فعلها وأثرها؛ بحيث يكون في مقدورنا اليوم أن نقول بأمل في الله عظيم: إنه الآن يصبح في إمكاننا أن نتطلع إلى المستقبل. ومن دلائل الخير أن يكون ذلك في مقدورنا اليوم في ذكرى عيد الهجرة بما تحمله إلى المؤمنين من معانى التضحية فداءً للمبدأ، والنضال المستمر من أجل الحق، والصبر على المشاق في سبيل نصر الله عزيزاً وصادقاً.

أيها الإخوة المواطنون:

إن الموقف البطولي المؤمن لجماهير شعبنا يومي ٩ و١٠ يونيو، هو وحده الذى صنع عدداً من التحولات الهامة مكنت لعملنا من أن يبتعد عن الحافة الخطرة التي كان عليها في أعقاب النكسة، ليقف على الأرض الأصلب، وليستشرف الأفق الأوسع الذى يستطيع أن يتحرك عليه نحو أهداف نضاله الشريفة والغالية.

وأبرز هذه التحولات كما يلى:

أولاً: إننا استطعنا إعادة بناء القوات المسلحة، وكانت تلك بداية ضرورية وبغير بديل، إذ كنا نريد جداً وحقاً أن نصحح آثار النكسة، وأن نزيل العدوان، وأن نسترد ما ضاع

منا فيه. بغير إعادة بناء القوات المسلحة لم يكن أمامنا غير تقبل الهزيمة مهما كانت آمالنا، ومهما كان إيماننا؛ ذلك أن منطق هذا العصر - ولعله منطق كل العصور- أن الحق بغير القوة ضائع، وأن أمل السلام بغير إمكانية الدفاع عنه استسلام، وأن المبادئ بغير مقدرة على حمايتها أحلام مثالية مكانها السماء، وليس لها على الأرض مكان.

ثانياً: إننا استطعنا تحقيق مطلب الصمود الاقتصادي، في وقت كانت الأشياء كلها تسير في اتجاه معاكس لفرصة تحقيقه، ولقد ساعد على ذلك رضا الشعب بالمزيد من التضحيات، وساعد عليه موقف عربي أصيل في مؤتمر الخرطوم، وساعد عليه أصدقاء لنا على اتساع العالم كله، وقفنا معهم فوقفوا معنا.

ولقد كان محتماً أن يسير مطلب الصمود الاقتصادي جنباً لجنب مع عملية إعادة بناء القوات المسلحة؛ فلم يكن في استطاعتنا بغير اقتصاد سليم أن نوفر لاحتمال الحرب، ولا كان مجدياً أن نقف رابضين على خطوط النار بينما مقدرتنا على الإنتاج معطلة وراء الخطوط، وشبح الجوع يهددنا بأسرع من تهديد العدو لنا.

ثالثاً: إننا استطعنا تصفية مراكز القوى التي ظهرت، وكان من طبيعة الأمور وطبيعة النفوس أن تظهر في مراحل مختلفة من نضالنا.

إن العمل السياسي لا يقوم به الملائكة وإنما يقوم به البشر، والقيادة السياسية ليست سيفاً بتاراً قاطعاً، وإنما هي عملية موازنة وعملية اختيار بعد الموازنة، والموازنة دائماً بين احتمالات مختلفة، والاختيار في كثير من الظروف بين مخاطر محسوبة.

ولقد تجاوزت الأمور حد ما يمكن قبوله بعد النكسة؛ لأن مراكز القوى وقفت في طريق عملية التصحيح خوفاً من ضياع نفوذها، ومن انكشاف ما كان خافياً من تصرفاتها. وكان ذلك لو ترك وشأنه كفيلاً بتهديد جبهة الصمود الشعبي؛ ولذلك فلقد كان واجباً - بصرف النظر عن أي اعتبار- تصفية مراكز القوى، ولم تكن تلك بالمسألة السهلة إزاء المواقع التي كانت تحتلها مراكز القوى، وفى إطار الظروف الدقيقة التي كان يعيشها الوطن.

رابعاً: إننا استطعنا - وهذه مسألة أخلاقية ومعنوية أعلق عليها قيمة كبيرة - أن نضع أمام الجماهير- بواسطة

المحاكمات العلنية - صورة كاملة لانحرافات وأخطاء مرحلة سابقة. وكان رأيي أن هذه مسئولية يجب أن يتحملها نظامنا الثوري بأمانة وشجاعة، وكان رأيي أيضاً أن الضمير الوطني الذى أحس بأن انحرافات وأخطاء قد وقعت من حقه ومن مصلحته أن يعرف الحقيقة، وأن يخلص وجدانه من أثقالها، وأن ينفض عن نفسه كل رواسب الماضي؛ لكى يدخل إلى المستقبل بصفحة نقية طاهرة. ومع كل العذاب الذى تحملته شخصياً وتحمله المواطنون معي خلال هذه العملية، فلقد بقى إيماني بضرورتها كإيماني بطب الجراحة يقطع لينظف، ويبتر لينقذ.

خامساً: إننا استطعنا أن نقوم بجهد سياسي واسع على جبهات عريضة؛ جبهات عربية وجبهات دولية، وتنوعت جهودنا وتعددت على هذه الجبهات بالاتصال المباشر مع الأصدقاء في الدول الاشتراكية، وفى مقدمتها الاتحاد السوفييتي الذى أكدت لنا ظروف النكسة صداقته المخلصة وتعاونه الصادق ووقوفه الصلب في جبهة الثورة العالمية المعادية للاستعمار، وكذلك مع الدول غير المنحازة، ومع الدول الآسيوية والإفريقية، ومع الدول الإسلامية، ومع كل

الشعوب الراغبة في سلام قائم على العدل، ومع كل الساسة العالميين الذين يستطيع بعد نظرهم أن يتجاوز نكسة عارضة في تاريخ أمة كان لها دورها العظيم في التاريخ، وسوف يكون لها الدور العظيم في مصير الإنسانية.

إن هذه التحولات كلها قادها ودعمها إحساس عميق بالواجب لدى كثيرين من رجالنا في كل مجالات المسئولية في القوات المسلحة، ومن خبراء الاقتصاد والعاملين في وحدات الإنتاج، ومن الملتزمين بأهداف النضال الشعبي والقادرين على خدمتها، ومن المشتغلين بالسياسة والفكر والدبلوماسية؛ كل هؤلاء ساهموا في قيادة ودعم هذه التحولات التي تقارب المعجزة، والتي نستطيع بعدها أن نقول اليوم: الآن يصبح في إمكاننا أن نتطلع إلى المستقبل.

أيها الإخوة المواطنون:

والآن ونحن نتطلع إلى المستقبل، فإن اعتقادي الأكيد أن خير ما نستطيع أن نتسلح به لمواجهة مسئولياتنا المقبلة هو أن يكون في يدنا برنامج عمل محدد، ندرسه معاً، ونقره معاً، وتتفق عليه إرادتنا جميعاً؛ برنامج عمل يكفل وصولنا إلى الأهداف القريبة لنضالنا، ويقرب منا يوم الوصول إلى

الأهداف البعيدة لهذا النضال، برنامج عمل لا تختلف فيه الاجتهادات، ولا تتصارع الآراء ولا تتصادم القوى، برنامج عمل نمسك به في أيدينا، وبعد أن يتحقق لقاء فكرنا عليه؛ ثم نمضى على طريق الكفاح الطويل وفى يدنا خريطة للأفق الفسيح أمامنا، وخطة عمل لتقدمنا على هذا الأفق، برنامج للتغيير يستجيب للآمال العريضة التي حركت جماهير شعبنا إلى وقفتها الخالدة يومي ٩ و١٠ يونيو، وهى الوقفة التي سأظل دائماً وإلى آخر لحظة في العمر مؤمناً بأنها كانت بعثاً للثورة، وتجديداً لشبابها، وإلهاماً لا يخيب، وضوءً لا يخبو أمام طريق المستقبل.

ولقد بدأت التغيير- كما تعرفون- بإعادة تشكيل الوزارة، والذى يعنيني في تشكيل الوزارة الجديدة أنه جاء إلى مواقع الحكم بصفوة من شباب هذا الوطن، لا يدين أحد منهم بمنصبه لأى اعتبار سوى اعتبار علمه وتجربته في العمل السياسي، وهم على أي حال يمثلون جيلاً جديداً يتقدم نحو قمة المسئولية. وإلى جانب ذلك فهناك تغييرات أخرى قادمة في قيادات الإنتاج، وفى السلك الدبلوماسي، وفى المحافظين، وفى رؤساء المدن.

إن الكثيرين ممن يشغلون هذه المناصب أدوا مسئولياتهم بجدارة واستحقاق، ولكن بعضهم لم يكن على مستوى المسئولية سياسياً وتنفيذياً، ومن الضروري عليهم وعلينا إفساح المجال للأقدر والأجدر. لكن التغيير يبقى بعد ذلك أكبر من أن يكون مسألة أشخاص، وإنما التغيير الذى نريده يجب أن يكون أكثر بعداً وأكثر عمقاً من مجرد استبدال شخص بشخص. إن التغيير المطلوب لابد له أن يكون تغييراً في الظروف وفى المناخ، وإلا فإن أي أشخاص جدد في نفس الظروف وفى نفس المناخ سوف يسيرون في نفس الطريق الذى سبق إليه غيرهم.

إن التغيير المطلوب يجب أن يكون فكراً أوضح، وحشداً أقوى، وتخطيطاً أدق؛ وبذلك يكون للتصميم معنى، وتكون للإرادة الشعبية مقدرة اجتياح كل العوائق والسدود، نافذة واصلة إلى هدفها.

أيها الإخوة المواطنون:

إن المسئولية التاريخية للأيام العصيبة والمجيدة التي نعيش فيها، ونعيش لها، تطرح بنفسها علينا برنامج عمل له جانبان:

الجانب الأول: حشد كل قوانا العسكرية والاقتصادية والفكرية على خطوطنا مع العدو؛ لتحرير الأرض وتحقيق النصر.

الجانب الثاني: تعبئة كل جماهيرنا بما لها من إمكانيات وطاقات كامنة؛ من أجل واجبات التحرير والنصر، ومن أجل آمال ما بعد التحرير والنصر.

أيها الإخوة المواطنون:

سوف أبدأ بالجانب الأول من برنامج عملنا المقترح وهو الحشد، وإني لأرجو أن يكون اتفاقنا كاملاً على أنه ليس هناك الآن- ولا ينبغي أن يكون هناك الآن- صوت أعلى من صوت المعركة، ولا نداء أقدس من ندائها. إن أي تفكير أو حساب لا يضع المعركة وضروراتها أولاً وقبل كل شيء لا يستحق أن يكون تفكيراً، ولا تزيد نتيجته عن الصفر.

إن المعركة لها الأولوية على كل ما عداها، وفى سبيلها وعلى طريق تحقيق النصر فيها يهون كل شيء، ويرخص كل بذل؛ مالاً كان أو جهداً أو دماً، ومهما كان السبيل الذى نسلكه إلى تحرير الأرض وتحقيق النصر فإنه يصبح سبيلاً مسدوداً بغير استعداد للمعركة؛ سواء قبلنا بطريق العمل

السياسي وسرنا فيه إلى مداه؛ فإن نتيجته مرهونة باستعدادنا للمعركة، وسواء يئسنا من العمل السياسي وتركناه وواجهنا أقدارنا في ميدان القتال؛ فإن النتيجة معلقة على استعدادنا للمعركة. ولقد أبدينا استعدادنا- ولا نزال- للعمل السياسي عن طريق الأمم المتحدة أو غيره من الطرق، ونحن نضع مع أشقائنا العرب كل وسائلنا؛ سواء بواسطة مؤتمرات القمة، أو بواسطة التنسيق الثنائي المباشر. ونحن نتعاون مع كل القوى الشعبية العربية من أجل المقاومة المسلحة للعدو، وكافة أشكال المقاومة الأخرى. ونحن نفتح عقولنا وقلوبنا للعالم كله من نفس المنطق الذى حكم نضالنا الطويل؛ وهو أننا نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا.

نحن نفعل ذلك كله عن تقدير واع لنتائجه الواقعة والمحتملة، لكننا بعده يجب أن نكون مستعدين للمعركة مهما كلفتنا، وحتى إذا وقفنا فيها وحدنا. إن الأرض أرضنا والحق حقنا، والمصير مصيرنا، ولا نستطيع أمام أنفسنا، وأمام أمتنا العربية، وأمام الأجيال القادمة من أبنائنا وأحفادنا إلى الأبد أن نتردد أو نتخاذل أو نوزع التبعات على الآخرين، مهما

اقتضانا ذلك من التكاليف على مواردنا وعلى أعصابنا وعلى أرواحنا.

هذا هو الجانب الأول من برنامج عملنا، ولا أظنه بيننا موضع خلاف؛ ذلك لأن الخيار فيه هو النصر أو الهزيمة، الشرف أو العار، الحياة أو الموت، وليس هناك خيار حقيقي في ذلك كله؛ لأن القرار حتمي، وهو أننا نختار النصر، ونختار الشرف، ونختار الحياة.

أيها الإخوة المواطنون:

أنتقل الآن إلى الجانب الآخر من برنامج عملنا المقترح، وهو تعبئة كل جماهيرنا بما لها من طاقات وإمكانيات من أجل واجبات التحرير والنصر، ومن أجل آمال ما بعد التحرير والنصر، وفى هذا الصدد فإني أطرح النقط التالية:

١- إنه من الضروري والحيوي حشد كل القوى الشعبية، وبوسيلة الديمقراطية وعلى أساسها؛ وراء أهداف نضالنا القريبة والبعيدة، أي وراء واجب المعركة، ووراء أمل إتمام بناء المجتمع الاشتراكي الذى حققنا منه كثيراً، وينبغي أن نحقق منه أكثر.

٢- إن صيغة الاتحاد الاشتراكي هي أكثر الصيغ ملاءمة لحشد القوى الشعبية بوسيلة الديمقراطية وعلى أساسها، وهى تجسيد حي وصحى لمعنى أن تكون الثورة للشعب وبالشعب، ثم إنها الضمان بعد ذلك لتجنب دموية الصراع الطبقي، ولكفالة فتح أسرع الطرق وأكثرها أماناً إلى التقدم.

والاتحاد الاشتراكي- كما تذكرون وفقاً للميثاق- هو واجهة عريضة تضم تحالف قوى الشعب العاملة كلها، ثم تنظيم سياسي يقوم وسطها من الطلائع القادرة على قيادة التفاعل السياسي نحو هدف تذويب الفوارق بين الطبقات. ولم تكن المشاكل التي عاناها الاتحاد الاشتراكي ترجع إلى قصور أو عيوب في صيغته العامة، وإنما كانت أسباب القصور والعيوب ترجع إلى التطبيق.

وأول هذه الأسباب هو أن عملية إقامة الاتحاد الاشتراكي لم تبن على الانتخاب الحر من القاعدة إلى القمة.

٣- إن علينا الآن أن نعيد بناء الاتحاد الاشتراكي عن طريق الانتخاب من القاعدة إلى القمة؛ أي من اللجان التأسيسية في القرية، والحى، والمصنع، والوحدة، إلى المؤتمر

القومي للاتحاد الاشتراكي، وإلى لجنته المركزية، وإلى اللجنة التنفيذية العليا.

وتذكرون أنني كنت قد أشرت في خطابي يوم ٢٣ يوليو الماضي إلى تكوين اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وكان التصور في ذلك الوقت أن تكون بالتعيين، ولقد أجلت ذلك خلافاً لما قلت ووعدت به، عن اقتناع بأن أسلوب التعيين ليس أفضل الأساليب، وأن التعيين في النهاية قد لا يعطينا إلا ما تفرزه مراكز القوى، أو ما تقدمه المجموعات المختلفة والشلل، وليس ذلك هو المرجو، وليس هو ما يحقق لنا الهدف والدور الذى كنا نطلبه للجنة المركزية.

إن طريق الانتخاب سوف يعطينا الحل الأوفق؛ أن يتم بناء الاتحاد الاشتراكي بالإرادة الشعبية وحدها، وأن تقوم قوى الشعب العاملة باختيار قيادتها المعبرة عنها والمستوعبة لآمالها الثورية، ثم تدفعها إلى مواقع القيادة السياسية.

أيها الإخوة المواطنون:

من هذه النقط الثلاث فإني أقترح البرنامج التنفيذي التـــالي:

١- تجرى الانتخابات للوحدات التأسيسية للاتحاد الاشتراكي العربي، وتتدرج الانتخابات حتى تصل إلى المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي، الذى ينتخب بدوره اللجنة المركزية، التي تنتخب بدورها رئاستها، وهى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي.

٢- يظل المؤتمر القومي المنتخب للاتحاد الاشتراكي العربي قائماً إلى ما بعد إزالة آثار العدوان، ويعقد دورة عامة بكامل هيئته مرة كل ثلاثة شهور؛ لكى يتابع مراحل النضال ويوجهها، ويصدر في شأنها ما يرى.

٣- تظل اللجنة المركزية المنتخبة من المؤتمر القومي في حالة انعقاد دائم، وتقوم لجانها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية برسم سياسات العمل في جميع المجالات؛ استهدافاً لتحقيق النصر وإعادة البناء الداخلي.

٤- إن مجلس الأمة الحالي قد قارب على استيفاء مدته الدستورية، وهو لم يفرغ بعد من المهمة الأساسية التي أوكلت إليه؛ وهى وضع الدستور الدائم للجمهورية العربية المتحدة. وإذا كان المجلس لم يتمكن من أداء هذه المهمة فينبغي للإنصاف أن نذكر له دوره الكبير، وما قام به من

عمل يستحق التقدير. والمؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي- وهو أعلى سلطة ممثلة لتحالف قوى الشعب العاملة- قد يرى أن يقوم بنفسه بعملية وضع مشروع الدستور الدائم للجمهورية العربية المتحدة، وقد يرى في الأمر رأياً آخر. ومهما يكن فإنه من المهم أن يكون مشروع الدستور الدائم معداً بحيث يمكن فور انتهاء عملية إزالة آثار العدوان أن يطرح للاستفتاء الشعبي العام، وأن تتلوه مباشرة انتخابات لمجلس أمة جديد على أساس الدستور الدائم، وانتخابات لرئاسة الجمهورية.

٥- إن اللجنة المركزية للمؤتمر القومي سوف يكون عليها- غير واجباتها المحددة في قانون الاتحاد الاشتراكي، وغير مسئوليات الظروف الخاصة للنضال الوطني في مرحلته الحاضرة- عدة مهام إضافية هي: بناء التنظيم السياسي لطلائع الاتحاد الاشتراكي، وتحديد مهام العمل الوطني للمرحلة الجديدة والتنسيق بينها، ثم المشاركة في وضع الخطوط العريضة للدستور الدائم للجمهورية العربية المتحدة.

أيها الإخوة المواطنون:

لكى يكون هناك ضوء كاف على طريقنا فإنني أريد من الآن أن أضع أمامكم تصوري لبعض المهام الرئيسية في المرحلة القادمة من نضالنا:

١- تأكيد وتثبيت دور قوى الشعب العاملة وتحالفها وقياداتها في تحقيق سيطرتها بالديمقراطية على العمل الوطني في كافة مجالاته.

٢- تدعيم عملية بناء الدولة الحديثة في مصر، والدولة الحديثة لا تقوم- بعد الديمقراطية- إلا استناداً على العلم والتكنولوجيا؛ ولذلك فإنه من المحتم إنشاء المجالس المتخصصة على المستوى القومي سياسياً وفنياً؛ لكى تساعد على الحكم، وإلى جانب مجلس الدفاع القومي؛ فإنه لابد من مجلس اقتصادي قومي؛ يضم شعباً للصناعة، والزراعة، والمال، والعلوم، والتكنولوجيا، ولابد من مجلس اجتماعي قومي؛ يضم شُعباً للتعليم والصحة وغيرها مما يتصل بالخدمات المختلفة، ولابد أيضاً من مجلس ثقافي قومي؛ يضم شعباً للفنون وللآداب وللإعلام.

٣- إعطاء التنمية الشاملة دفعة أكبر في الصناعة والزراعة لتحقيق رفع مستوى الإنتاج والعمالة الكاملة، مع الضغط على أهمية إدارة المشروعات العامة إدارة اقتصادية وعلمية.

٤- العمل على تدعيم القيم الروحية والخلقية، والاهتمام بالشباب وإتاحة الفرصة أمامه للتجربة.

٥- إطلاق القوى الخلاقة للحركة النقابية سواء في نقابات العمال أو نقابات المهنيين.

٦- تعميق التلاحم بين جماهير الشعب وبين القوات المسلحة.

٧- توجيه جهد مركز نحو عمليات البحث عن البترول؛ لما أكدته الشواهد العملية من احتمالات بترولية واسعة في مصر، ولما يستطيع البترول أن يعطيه لجهد التنمية الشاملة من إمكانيات ضخمة.

٨- توفير الحافز الفردي؛ تكريماً لقيمة العمل من ناحية، واحتفاظاً للوطن بطاقاته البشرية القادرة، وإفساح فرصة الأمل أمامها.

٩- تحقيق وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

١٠- ضمان حماية الثورة في ظل سيادة القانون، ولعله يكون مناسباً أن تقوم اللجنة المركزية بتشكيل لجنة خاصة، ويكون لهذه اللجنة حق نظر كل الإجراءات التي ترى السلطة اتخاذها لدواعي الأمن الوطني في الظروف الراهنة.

أيها المواطنون:

طلباً لمزيد من الضوء والوضوح أمد البصر أيضاً إلى بعض الخطوط العامة التي يجب - في تقديري - أن يتضمنها الدستور؛ لكى تكون من الآن تحت سمعنا وبصرنا دليلاً ومرشداً.

إن الدستور الجديد يجب أن يكون حقيقة عملية وسياسية، تعيش في واقعنا وتنبع منه؛ ولهذا فإني أقترح من الآن أن تتضمن مواد الدستور الخطوط الأساسية العامة التالية:

١- أن ينص الدستور على تحقيق وتأكيد الانتماء المصري إلى الأمة العربية؛ تاريخياً ونضالياً ومصيرياً، وحدة عضوية فوق أي فرد وبعد أي مرحلة.

٢- أن ينص الدستور على حماية كل المكتسبات الاشتراكية وتدعيمها؛ بما في ذلك النسبة المقررة بالميثاق

للفلاحين والعمال في كل المجالس الشعبية المنتخبة، واشتراك العمال في إدارة المشروعات وأرباحها، وحقوق التعليم المجاني والتأمينات الصحية والاجتماعية، وتحرير المرأة، وحماية حقوق الأمومة والطفولة والأسرة.

٣- أن ينص الدستور على الصلة الوثيقة بين الحرية الاجتماعية والحرية السياسية، وأن تتوفر كل الضمانات للحرية الشخصية والأمن بالنسبة لجميع المواطنين في كل الظروف، وأن تتوفر أيضاً كل الضمانات لحرية التفكير والتعبير والنشر والرأي والبحث العلمي والصحافة.

٤- أن ينص الدستور على قيام الدولة العصرية وإدارتها؛ لأن الدولة العصرية لم تعد مسألة فرد ولم تعد بالتنظيم السياسي وحده، وإنما أصبح للعلوم والتكنولوجيا دورها الحيوي، ولهذا فإنه يجب أن يكون واضحاً أن رئيس الجمهورية يباشر مسئولية الحكم بواسطة الوزراء، وبواسطة المجالس المتخصصة التي تضم خلاصة الكفاءة والتجربة الوطنية، بما تحققه إدارة الحكومة عن طريق التخصص واللامركزية.

٥- أن ينص الدستور على تحديد واضح لمؤسسات الدولة واختصاصاتها؛ بما في ذلك رئيس الدولة والهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية. ومن المرغوب فيه أن تتأكد سلطة مجلس الأمة باعتباره الهيئة التي تتولى الوظيفة التشريعية، والرقابة على أعمال الحكومة، والمشاركة في وضع ومتابعة الخطة العامة للبناء السياسي، وللتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

كذلك فإن من المرغوب فيه إفساح الفرصة لوسائل الرقابة البرلمانية والشعبية لتحقيق حسن الأداء وكفالة أمانته.

٦- أن ينص في الدستور على تأكيد أهمية العمل باعتباره المعيار الوحيد للقيمة الإنسانية.

٧- أن ينص في الدستور على ضمانات حماية الملكية العامة، والملكية التعاونية، والملكية الخاصة، وحدود كل منها ودوره الاجتماعي.

٨- أن ينص في الدستور على حصانة القضاء، وأن يكفل حق التقاضي، ولا ينص في أي إجراء للسلطة على عدم جواز الطعن فيه أمام القضاء؛ ذلك أن القضاء هو الميزان

الذى يحقق العدل ويعطى لكل ذي حق حقه، ويرد أي اعتداء على الحقوق أو الحريات.

٩- أن ينص في الدستور على إنشاء محكمة دستورية عليا، يكون لها الحق في تقرير دستورية القوانين وتطابقها مع الميثاق ومع الدستور.

١٠- أن ينص في الدستور على حد زمنى معين لتولى الوظائف السياسية التنفيذية الكبرى؛ وذلك ضماناً للتجدد وللتجديد باستمرار.

أيها الإخوة المواطنون:

لقد قصدت أن أتناول أكبر قدر ممكن من رءوس المسائل وتفاصيلها؛ ليكون برنامج العمل الذى تمسك به أيدينا في المرحلة القادمة قادراً على الوفاء وعلى التحقيق، وبعد ذلك فإني أرى طرح هذا البرنامج الذى أقترح أن نسميه اختصاراً بتاريخ هذا اليوم ٣٠ مارس للاستفتاء العام، وبطرح برنامج ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ للاستفتاء العام فإني أقصد بذلك أن يكون واضحاً لنا جميعاً ما نريد، وأن يكون موضع اتفاقنا؛ كذلك أريده أن يكون واضحاً أمام أمتنا العربية ومدعاة لثقتها في وحدة النضال واستمراره، وأريده

أيضاً أن يكون واضحاً أمام الصديق وأمام العدو على حد سواء، وموضع اعتبار كل الذين يقفون معنا وكل الذين يقفون ضدنا.

إن الدستور المؤقت الصادر سنة ١٩٦٤ يعطى لرئيس الجمهورية حق أن يستفتى الشعب في المسائل الهامة المتصلة بمصالح البلاد العليا؛ وذلك وفقاً للمادة ١٢٩ منه، وإذا كان هناك من يتصور صعوبة الاستفتاء العام في مثل الظروف التي نعيش فيها فإننا نرى أن ذلك وقته، وظروف المعركة ليست حائلاً دونه بل إننا نراه ضرورة من ضرورات المعركة.

إن المعركة ليست معركة فرد، وليست معركة جيش، وإنما هي معركة شعب ومعركة أمة بأسرها، وهى في نفس الوقت معركة حياة أو موت.

إن قوى الشعب العاملة هي وحدها التي تستطيع توفير كل ضرورات النصر، وحشد كل الطاقات اللازمة لتحقيقه، وإعطاء أكبر قدر من إرادة الصمود لجبهة ميدان القتال.

إن أي نظام ثورة يستتند على الجماهير وحدها لا يكفيه أن يكون الشعب وراءه راضياً ومؤيداً، وإنما هو يحتاج إلى

أكثر من ذلك؛ يحتاج إلى أن يكون الشعب أمامه موجهاً وقائداً.

أيها الإخوة المواطنون:

إذا كان هذا البرنامج تمثيلاً صحيحاً لأفكارنا جميعاً فإنني أرى الخطوات التنفيذية التالية:

١- أن يجرى الاستفتاء العام على برنامج ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ في يوم الخميس ٢ مايو سنة ١٩٦٨.

٢- بعد ظهور نتيجة الاستفتاء، وإذا كانت النتيجة بنعم فسوف أصدر قراراً بتشكيل لجنة مؤقتة للإشراف على انتخابات المؤتمر القومي، ويحق لها أن تنضم إلى عضويته العاملة بعد انتهاء عملية انتخابات المؤتمر.

٣- على هذا الأساس فإنه يمكن للمؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي أن يجتمع يوم الثلاثاء ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٨، ويعقد دورة افتتاحية ينتخب في نهايتها لجنته المركزية.

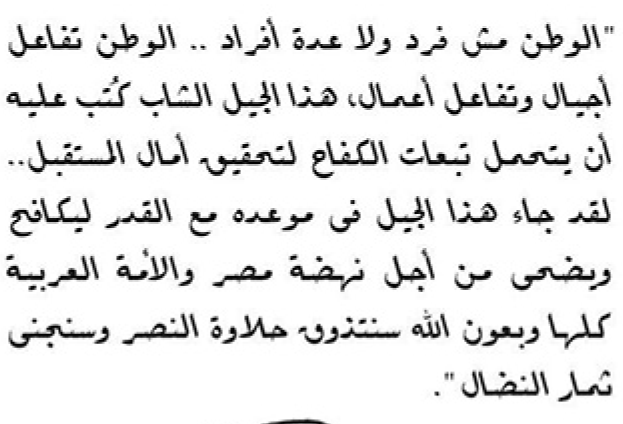
أيها الإخوة المواطنون:

إن سجل نضالنا يشهد لشعبنا أن الشعب الذى غير بكفاحه خريطة الشرق الأوسط، وأزال من فوقها سيطرة

الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة، وتصدى في وسطها لمحاولات الاستعمار الجديد، وتحمل تبعات الوحدة العربية سِلماً وحرباً، وفجر عصر الثورة الاجتماعية، وبنى أعظم السدود، وقهر الصحراء، وأقام أول قاعدة عربية للصناعة المتقدمة، هذا الشعب يملك المقدرة ويملك التجربة لتجاوز هزيمة عارضة في تاريخه وتاريخ أمته.

إننا سوف نحقق كما حققنا، وسوف ننتصر كما انتصرنا، ولتعلو إرادة الحق فوق كل إرادة؛ لأنها جزء من إرادة الله.

والسلام عليكم ورحمة الله،،


"الوطن مش فرد ولا عدة أفراد .. الوطن تفاعل
أجيال وتفاعل أعمال، هذا الجيل الشاب كُتب عليه
أن يتحمل تبعات الكفاح لتحقيق آمال المستقبل..
لقد جاء هذا الجيل فى موعده مع القدر ليكافح
ويضحى من أجل نهضة مصر والأمة العربية
كلها وبعون الله سنتذوق حلاوة النصر وسنجنى
ثمار النضال".




100
الذكرى المئوية
لميلاد الزعيم جمال عبد الناصر
Nasser 100
1918
2018